



مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

متابعات إفريقية

العدد (٥٤) رجب ١٤٤٦ هـ - ديسمبر ٢٠٢٥ م

تحرير: الدكتور محمد السبيلي

- | | | |
|------------------------------|--------------------------|----------------------|
| د. حسن كلي ورتي | د. جيهان عبد السلام عباس | د. سهام عبد الباقي |
| أ. د. فوزي بن حريدي | تقى النجار | د. الحسين كان |
| د. إيمان عبد العظيم سيد أحمد | عبد القادر محمد علي | د. مطهر يوسف بن ناصر |
| د. فيصل علي صالح سعيد | حسن إدريس طويل | د. بكاري تراوري |
| د. لخضر سباعي | | |

متابعات إفريقية

العدد (٤٥)

المحتويات

الهيئة الاستثنائية العلمية

- أ.د. كبا عمران - غينيا
أ.د. كوني بمان - ساحل العاج
أ.د. محمد يحيى باباه - موريتانيا
أ.د. بومدين بوزيد - الجزائر
أ.د. كمال جاه الله - السودان
أ.د. عمر عبد الفتاح - مصر
د. فهد الشريف - المملكة العربية السعودية
د. كزافيي لوفين - بلجيكا | Dr. Xavier Luffin - Belgium
د. زكرياء درامي - السنغال
د. وداد نائبي - بينين
د. فطومة أحمد - كينيا
د. خديجة الراجي - المغرب
د. أندريا بريغاليا - إيطاليا | Dr. Andrea Brigaglia - Italy

ضوابط ومعايير النشر

- أن تكون المادة ضمن الاهتمامات العلمية للمجلة
أن تستوفي المادة الشروط العلمية
ألا تكون المادة قد نشرت مسبقا كليا أو جزئيا الكترونيا أو ورقيا
أن تكون المعطيات العلمية المعتمدة والتوثيق حديثا
ترتيب المصادر والمراجع ألفبائيا في نهاية النص
أن تكون الرسوم البيانية والخرائط من وضع ورسم كاتب المادة
يمنع إعادة نشر أي مادة من المواد المنشورة بالمجلة دون إذن مسبق
تخضع المواد المنشورة بالمجلة لتحكيم سري

متابعات إفريقية

سلسلة أوراق متخصصة ومحكمة يضمها تقرير فصلي يصدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض. تتناول السلسلة الملفات والقضايا الثقافية والسياسية والاقتصادية والأمنية المختلفة التي تهم سُكَّان القارة الإفريقية وانعكاساتها الإقليمية والدولية من خلال مقاربات متعددة التخصصات وزوايا النظر.

للتواصل: afirstudies@kfcris.com

الدراسات:

- ١- الهجرات العربية إلى الساحل الشرقي لإفريقيا ودورها الحضاري في العصر الإسلامي: (دراسة الهجرات العمانية)
د. سهام عبد الباقي، باحثة في الأنثروبولوجيا الثقافية، كلية الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، القاهرة. ١٠
- ٢- المقاومة الثقافية للاستعمار في السنغال: قراءة في الوسائل والمآلات
د. الحسين كان، باحث متخصص في اللغة العربية والحضارة الإسلامية، دكار. ٢٦
- ٣- ترجمات معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوروبا: عرض وتحليل
د. مطهر يوسف بن ناصر، باحث متخصص في الشؤون النيجيرية، كنو. ٣٨
- ٤- ظاهرة الاقتراض اللغوي بين اللغتين: البمانية والعربية
د. بكاري تراوري، محاضر بجامعة الساحل باماكو، باماكو. ٥٧

التقارير:

- ١- العلاقات الاقتصادية الروسية - الإفريقية: الفرص والتحديات في ظل التنافس الدولي
د. جيهان عبد السلام عباس، أستاذ الاقتصاد المساعد، كلية الدراسات الإفريقية العليا، جامعة القاهرة، القاهرة. ٧٠
- ٢- تهديد مركب: العلاقة بين التنظيمات الإرهابية والجريمة المنظمة بالساحل الإفريقي
تقى النجار، باحثة متخصصة في قضايا الإرهاب، القاهرة. ٨٥
- ٣- سلام ما بعد الحرب في إثيوبيا : سياقات وتداعيات هجوم قوات التيجراي على إقليم عفر
عبد القادر محمد علي، باحث متخصص بشؤون القرن الإفريقي، تورنتو. ٩٥
- ٤- التقارب بين إريتريا والتيجراي: الخلفيات والدوافع والسيناريوهات المستقبلية
حسن إدريس طويل، كاتب إريتري مقيم بالقاهرة. ١٠٣
- ٥- الإقصاء السياسي والاجتماعي كمحددات لانتشار التنظيمات الإرهابية في إفريقيا
د. حسن كلي ورتي، محاضر في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، نجامينا. ١١١
- ٦- مراكز التفكير في إفريقيا: التواجد والتحديات
أ. د. فوزي بن ديريدي، جامعة محمد الشريف مساعدية، سوق أهراس. ١٢٠

عروض الكتب:

- ١- العمق التاريخي لظهور الكتابة في شبه الجزيرة العربية
د. إيمان عبد العظيم سيد أحمد، مدرس العلوم السياسية بكلية الدراسات الإفريقية العليا، جامعة القاهرة، القاهرة. ١٣٨
- ٢- هجرة العلماء من المغرب إلى المشرق
د. فيصل علي صالح سعيد، باحث يماني متخصص في التاريخ الوسيط، مقيم في المغرب. ١٤٤
- ٣- أعلام التأثير الروحي والفكري للتصوف المغربي في إفريقيا
د. لخضر سباعي، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم. ١٥١

د. محمد السبيطلي

هيفاء المطوع

تحرير

د. طارق باكير

مراجع لغوي

إخلاء مسؤولية

تعكس هذه المقالات ومحتوياتها تحليلات الكاتب وآراءه، ولا ينبغي أن تُنسب وجهات النظر والآراء الواردة فيها إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، والكاتب وحده هو المسؤول عما يرد فيها من استنتاجات أو إحصاءات أو أخطاء.

رقم الإيداع بمكتبة الملك فهد الوطنية:

١٤٤٤/١٠٩

ردمدم: ١٦٥٨-٩٤٢٤

كلمة المحرر

يتضمن هذا العدد الذي نضعه بين يدي القارئ، مجموعة من الأوراق العلمية، التي تستعرض بعض أوجه التفاعل التاريخي بين شعوب القارة الإفريقية، والثقافة العربية. وقد جرت هذه المائدة في مراحل متعددة من التاريخ المشترك، عبر هجرات متقطعة، قامت بها بعض القبائل والجماعات العربية، التي استقرت في المناطق الواقعة بشرق القارة، سواء على السواحل الغربية للبحر الأحمر أو على الضفاف الإفريقية للمحيط الهندي؛ وأسفر التمازج والتواصل المباشر بين العرب والأفارقة، عن نشوء لغات ومجتمعات جديدة، وظهر مدن ذات أنماط عمرانية غنية، ولها فنون وآداب وخصائص ثقافية مميزة، كما نتج عن هذا التفاعل انتشار «ظاهرة الاقتراض اللغوي» في العديد من اللغات الإفريقية، حتى إن لغات غربي إفريقيا، تكاد لا تخلو من تأثيرات عربية متفاوتة، تبعا لقوة العوامل المؤثرة.

وقد امتد هذا التواصل بين ضفتي البحر الأحمر إلى وسط وغرب إفريقيا، كما تم أيضا عبر أقطار المغرب العربي، وخاصة من خلال بلاد شنقيط، في إطار تمدد الدول والعلاقات التجارية المكثفة، والتبادل الثقافي الغزير؛ الأمر الذي أتاح لمجتمعات غربي إفريقيا - التي كانت تُعرف بالسودان الغربي - بناء قاعدة ثقافية صلبة، استندت إليها لاحقا في مقاومة الاستعمار الغربي.

واهتم العدد الجديد كذلك بجملة من القضايا الإفريقية المعاصرة، وفي مقدمتها الملفات الأمنية والاقتصادية، وهي ملفات تعبر عن أزمت مركبة، تتداخل فيها الأبعاد السياسية والثقافية، مع الجوانب الاقتصادية والأمنية. وفي هذا السياق، تناولت بعض أوراق العدد العلاقة بين التنظيمات الإرهابية والجريمة المنظمة في الساحل الإفريقي، كما رصدت إحدى الدراسات تطور الأوضاع العامة في إفريقيا في ظل التنافس الدولي المتصاعد، وفي هذا الإطار جاءت ورقة «العلاقات الاقتصادية الروسية - الإفريقية: الفرص والتحديات في ظل التنافس الدولي».

ويتقاطع هذا التنافس الدولي مع تدافع إقليمي شديد، يضع العلاقات البينية بين عدد من دول القارة على حافة الصدام، نتيجة عدم تسوية ملفات حدودية قديمة، وتراكم عوامل الاحتكاك المرتبطة بتطلعات جيوسياسية، ونزاعات إثنية، وتدخلات خارجية، وهذا ما يجعل ملف العلاقات الإثيوبية-الإريتيرية أحد أكثر الملفات المفتوحة تهديدا لأمن واستقرار القرن الإفريقي والبحر الأحمر. وفي هذا السياق قدمت إحدى الأوراق قراءة في سياقات وتداعيات هجوم قوات التيجراي على إقليم عفر، في نوفمبر من هذا العام، فيما تناولت ورقة أخرى ملابسات التقارب المستجد بين الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي وأسمر، في مواجهة الحكومة الفيدرالية في أديس أبابا، وذلك في ضوء توجه الأخيرة نحو البحث عن منفذ بحري، يتيح لها امتلاك أحد الموانئ الإريتيرية على سواحل البحر الأحمر، مع ما يصاحب ذلك من ادعاءات حول أحقية السيادة عليه.

ويُختتم هذا العدد بمجموعة من عروض الكتب التي أُختيرت بعناية، لتتنسق موضوعاتها مع المحاور المركزية، التي تناولتها الدراسات المنشورة فيه. وتأتي هذه العروض، لتمنح القارئ فرصة أرحب، للغوص في قراءات معمقة، تُغني فهمه للفضاء الإفريقي، وتفتح أمامه آفاقا جديدة لمتابعة تطورات القارة في سياقاتها التاريخية والمعاصرة.

دراسات

الهجرات العربية إلى الساحل الشرقي لإفريقيا ودورها الحضاري في العصر الإسلامي: (دراسة الهجرات العمانية)

د. سهام عبد الباقي، باحثة في الأنثروبولوجيا الثقافية، كلية الدراسات الإفريقية،
جامعة القاهرة، القاهرة.

مقدمة

ارتبط سكان شبه الجزيرة العربية بعلاقات تجارية واسعة مع الممالك الإفريقية، قبل الإسلام، وشكلت هذه المعرفة بتلك المناطق دافعا قويا للهجرة نحو إفريقيا، فلم يكن مستغربا أن تختار أولى مجموعات المسلمين بلاد الحبشة ملجأ سياسيا، انطلاقا مما عرف عن ملكها النجاشي «أصحمة بن أبجر» من حكمة وعدل. ولا شك أن هذا الحدث شكل محطة تاريخية فارقة، ربط هذه المنطقة بالإسلام وتاريخه منذ البداية. واستمرت الصلات الاقتصادية والتجارية بين العرب وسكان الساحل الإفريقي الشرقي، حيث سهل تقارب الموقع الجغرافي، وتوافر المنافذ البحرية الترحال والاتصال بين القبائل العمانية، القاطنة في جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية، وهي محور هذه الورقة، وبين منطقة الساحل، مما عزز تلك العلاقات، وساعد على استمراريتها.

ومع ظهور الإسلام، ازدادت رحلات العمانيين التجارية، وتجاوزت طابعها الاقتصادي المحض، إلى شكل أعمق من التفاعل الحضاري، بالاستيطان بالساحل الشرقي الإفريقي، والزواج من نساء المجتمعات الإفريقية، مما أدى إلى اندماج كامل، أسهم بشكل كبير في نشر الإسلام، فأصبح للمهاجرين العمانيين دور بارز في مناحي الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. وقد ساعد على ذلك امتداد وتواصل خطوط الهجرة في العصر الإسلامي لبلاد بربرة، ومنطقة القرن الإفريقي، وساحل الزنج في إفريقيا الشرقية، فتكونت ممالك إسلامية، بلغت أوج الازدهار الحضاري.

أولاً - الهجرات العُمانية: الأسباب والدوافع

لم يكن الوجود العربي بساحل إفريقيا الشرقي حديثاً؛ يدلل على ذلك ما عثر عليه من عملات عربية، أقبل بها العرب إلى الساحل، تعود إلى ما قبل ٥٠٠ م، كما عثر في عام ١٩٥٠ م على أوان فخارية، وآثار منازل، في جزيرة سنجي ياكاتي، التي تقع قرب جزيرة كلوة، وقد وصفت بأنها أقدم مستوطنة تجارية، تنتمي لجنوب الجزيرة العربية، مما يؤكد قدم التواصل بين المنطقتين حتى قبل ظهور الاسلام.^(١) وقد أدت عملية التبادل التجاري بين المنطقتين، إلى مبادلة العطور والبخور، التي كانت تستخدمها المجتمعات الإفريقية لإعداد الأدوية التقليدية، إلى جانب استخدامها في الطقوس الدينية الخاصة بها. ومن جانب التجار العرب، فقد لعب سن الفيل الإفريقي دوراً، يعادل في أهميته الدور الذي لعبه البخور في اجتذاب التجار إلى ساحل إفريقيا الشرقي، نظراً لأهميته الاقتصادية الكبيرة لدى العرب. إلى جانب الخشب والذهب وجلد النمر.^(٢) كما جلبوا إلى ساحل إفريقيا الشرقي الكثير من السلع التجارية المختلفة، تُظهر أسماؤها أصولها العربية في العديد من اللغات الإفريقية.^(٣) وقد شكلت الهجرات العُمانية إلى ساحل إفريقيا الشرقي ظاهرة تاريخية، استمرت لقرون، وتعددت دوافعها وأسبابها، ونستعرضها فيما يأتي:

١- الأسباب الجغرافية: وقد تمثلت في خبرة ودراسة سكان جنوب شبه الجزيرة العربية بالعوامل الجغرافية، المتعلقة بالرياح الموسمية، مما مكّنهم من القيام برحلتين منتظمتين في العام بأقل جهد؛ ففي فصل الخريف، تدفع الرياح الموسمية السفن باتجاه جنوبي غربي إلى الساحل الإفريقي، وفي فصل الربيع تدفع هذه الرياح الموسمية السفن باتجاه شمالي شرقي، وبذلك تتمكن من العودة إلى قواعدها في شبه الجزيرة العربية، فيما عرف برحلات الشتاء والصيف بين مختلف الأقطار الآسيوية والإفريقية. ثم لبث البحارة العرب يكتسبون خبرة كبيرة، ساعدتهم على تنظيم رحلاتهم تنظيماً دقيقاً، وفقاً لمواسم الرياح باتجاه الساحل الإفريقي الشرقي، فكان لهم السبق على الروم الذين اكتشفوا دورة الرياح الموسمية فيما بعد.^(٤) كما ساعدتهم القرب الجغرافي على هذا الانتشار، لأن المسافة بين زنجبار وعدن، لا تتجاوز ١٧٠٠ ميل، وبين زنجبار ومسقط تقدّر بنحو ٢٢٠٠ ميل، لذا كان الامتداد العربي إلى هذه المنطقة أمر طبيعى؛ فالقبائل القريبة من الساحل الإفريقي، كان لا بد لها من أن تمد نشاطها وتجارها، وتنقل حضارتها للمنطقة. وقد ظل هذا الاتصال التجاري ينمو ويتسع، قبل ظهور الإسلام وبعده، مما أدى لزيادة التدفق العربي لمنطقة الساحل.^(٥)

٢- الأسباب البيئية: تعود الأسباب البيئية التي وجهت الهجرات العمانية، إلى ارتباطهم بالبيئة البحرية التي نشأوا فيها، والتي كانت مصدراً أساساً لرزقهم، واعتيادهم ركوب البحر، للتجارة مع الدول المطلة على المحيط الهندي في آسيا وإفريقيا. وبمرور الزمن، تمكّنوا من تكوين مجموعات صغيرة،

أخذت طريقها إلى ساحل إفريقيا الشرقي، فانتشرت أولاً في بعض الجزر الساحلية كـ (زنجبار وبمبا)، وفي المراكز الساحلية مثل: (سفالا، ومالندي، وكوة، ومباسا، ودار السلام)، واستطاعت بذلك أن تطبع مناطق واسعة هناك بلغتها وديانتها، واندمجت مع السكان المحليين، مما ساعد في قيام إمارات مزدهرة حضارياً واقتصادياً. ومع ازدهار التجارة، وتقدم فنون الملاحة، زاد اتصال العرب بالساحل الإفريقي الشرقي، واتخذوا منه مستقراً وموطناً.^(٦)

٣- الفرار من الاضطهاد: كما كان للمضطهدين أسباب سياسية للهجرة إلى الساحل الإفريقي الشرقي، خلال فترات من عصر الدولتين الأموية (٤١-١٣٢هـ / ٦٦٢-١٢٥٨م)، والعباسية (١٣٢-٦٥٦هـ / ٧٥٠-١٢٥٨م) بحكم معرفتهم بالمنطقة والقبائل القاطنة فيها وطبائعهم.^(٧) لذا شهدت المنطقة حالة من التعايش السلمي، أسهمت بدورها في ازدهار التجارة.^(٨)

ثانياً- مراحل الهجرات العمانية إلى الساحل الإفريقي الشرقي

ترجع البداية الفعلية للوجود العماني في ساحل إفريقيا الشرقي إلى (٣٠٠٠ ق.م). وقد أكدت المكتشفات الأثرية، على أن ملاحى (ماجان)، والإشارة هنا لعُمان القديمة، كان لهم السيادة على المحيط الهندي، والدليل ما عثر عليه الباحثون من أدلة أثرية، تثبت الاتصال بين المنطقتين منذ العصر الحجري القديم؛ فقد عثر على فؤوس يدوية في حضرموت، تشبه نظائرها في إفريقيا، وهذا التماثل في تلك الأدوات، دعا بعض الباحثين إلى الإقرار بأسبقيّة وجودها في شبه الجزيرة العربية، ومن ثم إلى ساحل إفريقيا الشرقي.^(٩) كما عثر على أواني من الفخار المصقول وغير المصقول، في رأس الحد بعمان، تشبه الموجودة بكوة، وعثر في جزر القمر على عدد كبير من بقايا الخزف محلي الصنع، في مناطق بزنجبار، وأغلب تلك الأواني كانت تستخدم في الأغراض المنزلية، فصنعت الأواني والجرار بأعداد كبيرة، بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من الأطباق الفخارية، ذات الزخارف المنقوشة. وعثر على أواني فخارية مصنعة من الطين والجص، تعود للقرنين الثالث والرابع للهجرة. وجرة كبيرة يرجح أنها كانت تستخدم للوضوء، ويعود تاريخها للقرن السادس للهجرة. وهذه الجرار، إما أن تكون صنعت محلياً داخل جزر القمر، أو جلبت من الجزر المجاورة.^(١٠)

كما عثر على أطباق خزفية بنية ومصقولة في ورث جيسوس في ممباسا، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، شبيهة بالأواني التي عثر عليها في منطقة بهلا بعمان.^(١١) بالإضافة إلى وجود بعض البقايا العظمية والجماجم البشرية في ساحل إفريقيا الشرقي، تشبه مجموعة أخرى في شمال الجزيرة العربية. ومن المرجح أن تكون هجرة تلك المجموعة كانت من جنوب الجزيرة العربية نحو الشمال، ونحو الغرب، بالإضافة

لهجرات الشعوب الحامية من أرض الجزيرة العربية، عبر مضيق باب المندب للسواحل الإفريقية الشرقية المقابلة. وأيضا هجرات الساميين من موطنهم الأصلي في شبه الجزيرة العربية، على شكل جماعات نحو الغرب، عبر البحر الأحمر إلى السواحل المقابلة.^(١٢)

إن الانتقال البشري من آسيا لإفريقيا، عبر مضيق باب المندب، ظاهرة ترى آثارها الثقافية الوافدة من جنوب جزيرة العرب، إلى هضبة إثيوبيا، وفي ساحل إفريقيا الشرقي؛ بينما لم تحدث هجرة بشرية في الاتجاه المضاد (أي: من إفريقيا إلى آسيا) قد غيرت الأوضاع الثقافية في الجزيرة العربية، رغم أن ملوك إثيوبيا قد غزوا اليمن والحجاز، ولكنها كانت غزوة من الطراز الحربي، ولم تترك أثرا على الجانب السلافي والثقافي لشبه الجزيرة العربية، لذلك أدت تلك الهجرات المبكرة إلى انعكاساتها الحضارية واللغوية، في مراحل تاريخية لاحقة.^(١٣) وكان تأثير العمانيين في هذه المنطقة من قارة إفريقيا، أشد وأقوى من وجودهم في جنوب شرق آسيا؛ ذلك أن هجرتهم لجنوب شرق آسيا، كانت هجرات فردية، وغير دائمة، أما وجودهم في شرقي إفريقيا، فاعتمد الهجرات الدائمة والجماعية والمنظمة.^(١٤) لذا شكلت لها مراكز ذات كثافة ونفوذ هناك، وتدفقت للساحل الإفريقي الشرقي هجرات عمانية متتالية، نذكرها على النحو الآتي:

١- **هجرة قبيلة الأزد:** مع الأميرين العُمانيين من أبناء الجلندي عام (٧٥-٨٥ هـ / ٦٩٤-٧٠٤م) نتيجة للصراع الدائر بين عُمان الطامحة للاستقلال الذاتي من جهة، والدولة الأموية في دمشق، الراغبة بإخضاع جميع الأقاليم المحيطة لسلطة الدولة من جهة أخرى. فاتجه هذان الأميران صوب بات (Pat) في أرخبيل جزر موفيه ولامو (أمام شواطئ كينيا حاليا).^(١٥) وقاموا بنشر الدين الإسلامي، وصارت تلك المنطقة مركزا مهما، استقطبت حولها وفود جماعات عربية من جنوب الجزيرة والشام، على الساحل الإفريقي الشرقي.

٢- **هجرة النبهانية:** وترجع الهجرة (النبهانية) إلى بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، نظرا لما واجهته القبيلة من صراعات داخلية سياسية دامية، دفع جزءا منها للهجرة إلى الساحل،^(١٦) ومنهم السلطان سليمان النبهاني، الذي استقر به المقام في بات، وكان زعماء القبائل العمانية المهاجرون، يستهدفون مصاهرة زعماء القبائل الإفريقية، ليعتلاوا المناصب السياسية في الأماكن التي استقروا فيها،^(١٧) فتزوج من ابنة حاكم الجزيرة الأميرة بتاويينا، بنت إسحاق بن محمد البتاوي، الذي تنازل عن الحكم لصهره النبهاني، حيث جاء قوله: «بزواجك أصبح لك نصيب في مملكة بات، فأصبح سليمان أول حاكم عُمان لتلك الجزيرة الواقعة في الطرف الجنوبي من ساحل كينيا.^(١٨) كما بلغ عدد سلاطين السلطنة النبهانية أربعة سلاطين، وهم: السلطان محمد بن سليمان النبهاني (٦٢٥-٦٥٠هـ)، والسلطان أحمد بن محمد بن سليمان النبهاني (٦٥٠ - ٦٩٠هـ)،

والسلطان الفاتح محمد بن أحمد بن محمد ابن سليمان النبهاني (٦٩٠ - ٧٤٠هـ)، والسلطان عمر بن محمد بن أحمد النبهاني (٧٤٠ - ٧٩٥هـ).^(١٩)

يتضح مما سبق، أن تتابع خطوط ومسارات الهجرة إلى منطقة ساحل إفريقيا الشرقي، ساعد في تمكين القبائل العمانية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، فتولت طبقة الأشراف من المهاجرين العرب مناصب رفيعة، كحكم بعض الإمارات، مما عزز الوجود العربي، وساعد بدوره على تتابع الهجرات، نظرا لحالة الرخاء الاقتصادي، التي كانت تنعم بها تلك الإمارات، مما ساعد على ظهور التأثيرات والخبرات العربية في الإمارات الإفريقية.

ثالثا- أثر الهجرات العمانية على الجانب الحضاري بالساحل الإفريقي الشرقي

بظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي في شبه الجزيرة العربية، أصبح لدى العرب المسلمين أسباب جديدة غير التجارة، لمحاولة الاستقرار الدائم في إفريقيا، واقامة كيانات سياسية وإسلامية، وبالتالي ازدادت الروابط بينهم. وقد كان لهذا أثره الكبير على الجانب الحضاري بساحل إفريقيا الشرقي، وبتناوله فيما يأتي:

١- قيام الممالك والمدن العربية

تميز التدفق الإسلامي على الساحل الإفريقي الشرقي، بقيام ازدهار مدن وإمارات عربية، كخطوة أولى وأساس، لخلق مجتمع منظم متماسك. وقد أسهم نفوذ مملكة الجندانيين في ازدهار التجارة والملاحة، من خلال تحويل المراكز التجارية الصغيرة إلى مدن عمرانية وتجارية، بعدما كانوا قلة، معتمدين على صيد البر وصيد السمك والزراعة.^(٢٠) كما ساعدهم عدم وجود سلطات حكم محلية وطنية في المنطقة، في بلوغهم مناصب سياسية، لم تتح لهم في جنوب شبه الجزيرة العربية، وجعل السكان الأصليين، يتقبلون سلطة الأقوام القادمة من بيئات جغرافية وثقافية قريبة لهم.^(٢١)

وازدهرت التجارة في مدينة ممباسا ازدهارا كبيرا، بصفتها إحدى الموانئ الشهيرة على الساحل الكيني، بشرقي إفريقيا، ويذكر المؤرخون، أن تأسيسها كان منذ زمن الدولة الأموية في القرن (الأول الهجري/ السابع الميلادي).^(٢٢) وتكونت بها سلطنة عربية إسلامية، أطلق عليها اسم (بساسة)، ويرجح بعض الباحثين، أنها سميت غنغوبا، وسميت أمفيت بمعنى حرب، وهو اسم سواحيلي، وكانت مركزا مهما لتصدير الحبوب، وكذلك العاج والذهب، إلى جانب شهرتها بتصدير الحديد والنحاس والجلود.

وكانت زنجبار من أبرز الجزر، وتميزت بموقعها الإستراتيجي، لما امتازت به من طبيعة خلابة، وثروات متنوعة، ولذلك كانت مقصد التجار العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية، ومن الهند، وذلك منذ القرن

الأول قبل الميلاد. كما وفدت إليها القبائل العربية من عُمان، واليمن، وحضرموت، وازدهرت بمجيء الإسلام وانتشاره.^(٢٣) وتميزت بالوجود العماني العربي الكبير، مما جعلها مركزا تجاريا مهما، غير خاضع لأي سيطرة خارجية، ولذلك حرصوا على أن تكون لهم استقلالية اقتصادية، فقاموا بصك عملتهم الخاصة بهم في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي.^(٢٤)

كما وصلت مدينة براوة^(٢٥) لدرجة كبيرة من التقدم الثقافي، وأقام بها المهاجرون العمانيون عدة مراكز علمية متخصصة في علوم الشريعة، مما جعلها مقصدا لطلاب العلم من البلدان المجاورة، وخاصة من عمان واليمن، واعتبرت براوة كعبة للعلم والمعرفة، وكان للتجار العمانيين دور في الإنفاق على النواحي العلمية؛ فكانوا يشيدون المدارس، ويدعمون الطلبة ماديا بإرسالهم في بعثات علمية للبلدان الإسلامية للتعليم، وبعد عودتهم يتحولون لمعلمين في بلدانهم، لذا لم تنقطع علاقة مراكز الساحل بالمراكز العلمية في العالم الإسلامي.^(٢٦)

بسطت مدينة «بات» نفوذها السياسي طيلة القرنين السابع والثامن الهجريين، حيث كانت مقر الحكومة المركزية التي تحكم البلاد التي خضعت لهؤلاء الملوك، الذين اتخذوا اللقب السواحيلي (بوانا فومادي Fumadi Bwana) وتعني الملك أو السلطان.^(٢٧) وتوسعت بات، وشملت بعض الموانئ المهمة، مثل: قساميو، وبرأوة، ومالندي، وقد وضعت دولة النباهنة أسسا قوية لحضارة إسلامية عربية عمانية مزدهرة،^(٢٨) وتمكن سلاطينهم من التوسع شمالا إلى مقديشو، وجنوبا إلى سفالا، حيث أصبحت كل المدن الساحلية تحت رعاية سلطنة بات، وانعكس ذلك الرخاء الاقتصادي والتسامح الديني على سكان الساحل الإفريقي الشرقي بشكل عام.^(٢٩) وفي القرن الثامن عشر، غدت بات دولة قوية ومتقدمة في مجال الفنون الجميلة، وسمي هذا العصر بالعصر الذهبي لبات، وامتازت بالمنازل الأنيقة، وصناعة المصوغات الذهبية، والآلات الموسيقية المصنوعة محليا، وكانت تسمى يسوا، وكانت تطعم بالذهب، وظهرت نسخ القرآن المخطوطة باليد.^(٣٠)

٢- التطور العمراني

بعد قيام الممالك والمدن، يأتي التطور العمراني، كخطوة طبيعية لتلبية احتياجات السكان المتزايدة؛ لذا أدخل العمانيون إلى بعض مدن الساحل الإفريقي الشرقي، ومن بينها مدينة كلوة، أساليب معمارية جديدة، تجسدت في البناء بالأحجار؛ فكانوا يقطعونها ويلصقونها بالأسمنت، بعدما كان نمط البناء التقليدي لديهم، يعتمد على استخدام خشب البامبو والطين. وكثيرا ما كانوا يحفرون الأبواب الخشبية لتجميل المنازل، وخاصة في زنجبار. كما نقل إلى الممالك الإفريقية الطراز الإسلامي، والعمارة الإسلامية في البناء، وخاصة المساجد، وتشهد على ذلك أطلال المسجد، وقصر السلطان سليمان، الذي شيده عام ١٢٠٠م، وامتاز القصر

بوجود مجموعة من القباب المتلاصقة، المقامة على أربعين عمودا حجرياً، مما يعكس الأثر العربي في مجال العمارة والبناء.^(٣١) ويوجد مسجد آخر ببلدة شوكة في الجزيرة الخضراء، وقد وجد في محرابه القديم رسم لخنجر من الطراز العربي، يعود تاريخه إلى ٨١٢ هـ / ١٤١٢ م.^(٣٢)

ومن بين الشواهد المعمارية الأخرى، مسجد مدينة مقديشو، والذي يرجع بناؤه إلى تأسيس المدينة عام ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م، وهو يضاها في تصميمه وطريقة بنائه المساجد الموجودة في عمان. ويوجد بدار السلام عاصمة تنزانيا مسجد قديم، فيه محراب مماثل للمحاريب الموجودة بعمان، ويعود بناؤه إلى قبل أربعمئة عام، إلى جانب شواهد مختلفة من القبور القائمة، التي اتخذت طابعا وشكلا، يماثل شواهد القبور القديمة في عمان. وهذه الآثار جميعها، جسدت التأثير العماني في عمارة مدن الساحل الإفريقي الشرقي.^(٣٣) كما شيد الجلندانيون قلعة قوية لحمايتهم، وقام أتباعهم ببناء قرية حول القلعة، معتمدين على حياة القنص والصيد والزراعة والتجارة، ثم ما لبثت أن انضمت إليهم الجماعات الإفريقية، وتحولت القرية لمدينة ومركز تجاري مهم لتجارة الحديد والذهب والعاج، ونتج عن هذا الاختلاط علاقات مصاهرة، ونشاط تجاري واسع، وتعلم السكان المحليون اللغة العربية، لتقوية علاقاتهم التجارية مع حكام عمان.^(٣٤) وازدهرت المدن والمراكز التجارية، وبلغت ٣٧ مدينة، امتدت على طول الساحل، من مصوع في إريتريا شمالا، حتى سفالا جنوبا، وازدهرت عمرانيا بفضل الطبقة الأرستقراطية العربية، التي مثلها التجار العرب والمهاجرون، الذين كان لهم نفوذ سياسي كبير في عمان، قبل هجرتهم إلى ساحل إفريقيا الشرقي، وبعدها.^(٣٥)

٣- التطور السياسي والإداري

مع نمو المدن وتوسعها، تزداد الحاجة إلى وجود أنظمة سياسية وإدارية، لتنظيم الشؤون العامة بالمدن، ولتنظيم الموارد. وقد ظهر الأثر الحضاري العربي جليا في مجال النظم السياسية والإدارية، حيث حكم الملوك بالشريعة الإسلامية، وحمل بعضهم لقب الإمام، ولقب بعضهم بأمر المؤمنين، وعملوا بمبدأ الشورى في الحكم. وعرفت ممالك إفريقيا الشرقية نظام الوزارة، منذ دخول الإسلام إليها، وكان عمل الوزراء مقصورا على تنفيذ أوامر الخليفة، والإمام بشؤون الإدارة والمال وأحوال الولايات. ومن المناصب التي عرفتها ممالك إفريقيا الإسلامية، الكتابة، والحجابه، كما طبقت هذه الممالك النظام المالي وفق النظم الإسلامية الشرعية، مثل: الزكاة، والجزية، والغنيمه، وكانت تدفع لبيت المال. كما أدخل إلى مقديشو نظام الشياخة، وهو نظام عربي قديم، يعتمد على عراقه النسب، والكرم، والشجاعة، والمروءة، ويقوم على مبدأ الشورى، وكان أساس الانتخاب لمنصب الشيخ، هو كبر السن، والتحلي بالفضائل.^(٣٦)

٤- التطور الاقتصادي

شهدت المدن الإفريقية تطورا كبيرا في مجال النشاط الزراعي، والثروة الحيوانية، والصناعية، على يد المهاجرين العُمانيين، حيث أدخلوا أساليب زراعية جديدة في جزر أرخبيل لامو؛ فقاموا بتخصيب التربة، واستصلاح الأراضي البور، والسبخات، وأدخلوا محاصيل جديدة لم تكن معروفة لديهم، وأهمها: القرنفل، وقصب السكر، والذرة، والبقول، والأرز، والقطن، وبعض الفواكه، وخاصة البرتقال.^(٣٧) وعلم العُمانيون الإفريقيين زراعة اللوبيا، والقرع، والبادنجان، وقد وفدت إليهم هذه الحاصلات من مصر.^(٣٨) وفي مجال الثروة الحيوانية، أدخل العُمانيون تربية الماشية من إبل، وأغنام، وبعض الحيوانات كالخيل، ومن الطيور: الأوز، والدجاج، والحمام، وترتب على تربية هذه الحيوانات، ازدهار صناعة وتجارة الجلود، وعرفت المنطقة بتصديره.^(٣٩) وعرف سكان جزر القمر زراعة الحمص، والموز، والقصب، كما تدل الحفائر على انتشار تربية الماشية في جزر القمر، كالماعز، والأغنام، والأبقار، إذ عثر فيها على عظام لهذه الماشية.^(٤٠)

كما ازدهرت صناعة السفن، حيث استفاد العُمانيون من كل مقومات البيئة، فاعتمدوا في صناعتهم هذه على الأخشاب المحلية، ولا سيما المانجروف، التي صنعوا منها المراكب الشراعية، وهذا فضلا عن أخشاب نخيل الدوم، وجوز الهند، كما اعتمدوا على ألياف تلك الأشجار وأوراقها وزيوتها، مما مكنهم من إنتاج نوع مميز من السفن.^(٤١) وكانت التجارة في مقدمة النشاط الإفريقي، خلال فترة حكم الأسرة النبهانية، التي استمرت من القرن الثالث عشر الميلادي، وحتى أواسط القرن الثامن عشر الميلادي. وفي هذه الفترة، استخرج العُمانيون الذهب من منطقة سفالا في ساحل الزنج، وذهبت كمية كبيرة منه إلى الدولة الإسلامية في بلاد العرب.^(٤٢) وانتعشت التجارة بسبب تدفق الهجرات العمانية على الساحل، مما أسهم في تشغيل الأيدي العاملة، وكانوا كلما زادت أعدادهم، تمكنوا من بسط نفوذهم، وكانت أنشط فترات الاستقرار، هي ما بين القرنين الثامن والحادي عشر، وأدى ذلك لقيام دويلات صغيرة على ساحل إفريقيا الشرقي، وقد سميت تلك السلطنات التي برزت واشتهرت، امبراطورية زنج، وكانت كلوة عاصمة لها، وتشهد خرائب كلوة، والقطع النقدية التي صكها السلاطين بتمييزهم الحضاري.^(٤٣)

٥- التطور الاجتماعي

قبل التعرف على شكل التعايش بين المهاجرين العرب والسكان المحليين، علينا أولاً التعرف على التركيب السكاني للقبائل القاطنة فيه، والواقع أنه من أشهر الشعوب التي سكنت منطقة الساحل الإفريقي الشرقي: البانتو، الماساي، الباربي. أما شعوب البانتو: فهم مجموعة لغوية كبيرة، تنتمي إليها جميع

شعوب جنوب إفريقيا، عدا الخوي خوي، والبيجامي الأقرام، كما أنهم ينتمون إلى أصل إثني واحد. وكانت منطقة ساحل إفريقيا الشرقي مسرحا لصراعات البانتو مع الحاميين، الذين هاجروا نحو الشمال الشرقي، ونتيجة الاختلاط مع الحاميين، فقد خضعت بعض قبائل البانتو جزئيا أو كليا لتأثير القبائل الحامية، ووقعت تحت سلطانها. كما نجحت بعض القبائل نتيجة الحرب الطويلة في مقاومة تأثير الحاميين والاحتفاظ بأقاليمهم.^(٤٤)

بينما فضلت بعض القبائل عدم الخضوع للحاميين، واضطرت للفرار خارج حدودها، متجهة نحو الجنوب والغرب. ويمكن تقسيم شعب البانتو جغرافيا إلى ثلاث فئات، البانتو الشرقيون: الذين اندمجوا بالسلالة الحامية ويصل بعضهم إلى شمال بحيرة فكتوريا، والبانتو الجنوبيون: ويقطنون جنوب نهر الزامبيز، والبانتو الغربيون: أو سكان الكونغو. كما انقسمت قبائل البانتو الشرقيين، التي خضعت للتأثيرات الحامية لعدة أقسام، قبائل دول واهوما: وقامت هذه القبائل في المناطق الشمالية الغربية لإقليم البانتو، القبائل البانتو حامية: وهم قبائل البانتو المتأثرون بالحاميين، والبانتو النيليون: وهم القبائل التي كانت قد تأثرت بعض الشيء بالنيليين السواحليين، وهم القبائل التي نشأت على الساحل الشرقي لإفريقيا، وتأثرت بالعرب، مما أدى إلى القضاء على النظام القبلي، ونشأة الشعب السواحلي.^(٤٥)

استقر المسلمون في البداية في الأماكن الساحلية، التي كانت تحت حكم البانتو، الذين لم تكن لهم إمبراطورية بالمعنى المفهوم، لكن كانت هناك عدة مدن مثل: مقدشو، ماليندي، بات، ممباسا، وزنجبار، وكلوة، وسفالا. وقد أقامها العرب، وكان لكل منها حاكم خاص، وكان منبع الارتباط بينها، هو اشتراكها في النشاط الاقتصادي نفسه، ممثلا بالتجارة، دون أن يكون لها حاكم واحد. وقد حدثت تغيرات إثنوية مهمة في التركيبة الديموجرافية في المنطقة، بسبب الاندماج بين السكان المحليين من جانب، وبعض الإثنيات الأخرى من جانب آخر، ومن ثم صار سكان الساحل يعرفون بـ «الشعب السواحلي»، وقد كان لهذا التعايش السلمي أثره في التعايش مع العادات والتقاليد الإفريقية، مما لا يضر بجوهر العقيدة الإسلامية.

٦- التطور العلمي والثقافي

يتضح الأثر العلمي للهجرات العمانية، في الاهتمام بالتعليم الديني، والحرص على استقدام الفقهاء والعلماء لتعليم الناس، وتثقيفهم بأمور دينهم وديانهم، فأصبحوا دعاة للدين. وكان بعض هؤلاء الدعاة يشيدون المدارس، ويبنون المساجد، وكثيرا ما كانوا يقومون باختيار الطلاب المميزين، لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في المشرق العربي أو الشمال، كي يتعلموا على أيدي علماء الأزهر، أو القيروان، أو الزيتونة، أو طرابلس، أو فاس، وغيرهم.^(٤٦)

كما اقتصر التعليم في المدارس القرآنية بالساحل على مرحلتين دراسيتين، الأولى: مرحلة الكتاتيب، وفيها يتعلم الطلاب الحرف العربي، والقرآن الكريم، ثم بالمرحلة الثانية: يتعلمون العلوم النقلية والعقلية معا، ويكون للطلاب حرية التنقل بين الشيوخ دون قيد، لزيادة معارفهم، وفي هذه المرحلة يتم التدريس في المساجد، أو في البيوت، بدلا من الكتاتيب، كما يعتمد الطلبة على الكتب العربية، التي يفسرها الشيخ باللغة المحلية.^(٤٧) وقد اتسمت العلاقة بين النخب العلمية في ساحل إفريقيا الشرقي وزنجبار، وبين أقرانهم في العالم العربي ومراكزه العلمية في الجزيرة العربية، وبلاد الشام، ومصر، والمغرب، بالتواصل الدائم، خاصة في الحجاز، وعمان، وحضرموت. وبمرور الأيام، كونوا لأنفسهم مركزا مستقلا، يضاهاي المراكز الإسلامية في العالم الإسلامي. ومع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأت الكتب العربية المطبوعة تصل إلى زنجبار، التي تحولت إلى مركز علمي مهم، ووفد إليها طلاب العلم والعلماء، من جميع المناطق المجاورة لها، فبرز خيرة علمائها، الذين كانوا يعدون من كبار علماء العالم الإسلامي في تلك الفترة.^(٤٨)

ولم تقتصر الحياة العلمية على التعليم الديني فقط، بل ظهرت عنايتهم بفنون النحت، والملاحة، والطب الذي مارسوه على أيدي مختصين في العلاج من الكتاب والسنة، إلى جانب الطب التجريبي القائم على العقاقير الطبية المصنعة من النباتات، إلى جانب الكي، والحجامة، وجبر الكسور. كما مورست جميع أشكال الطب الإسلامي، وتم إجراء كثير من الممارسات الصحية كالختان على أيدي أطباء، وكان الطبيب يسمى: حكيمي ثم مارسه مساعده الأطباء، وخصصوا مكانا لذلك أمام المساجد، وكان أول ظهور للبيمارستان في كلوة، وظهرت العيادات المتنقلة فيما بعد في منطقة الساحل.^(٤٩)

هذا وعلى الجانب الثقافي، سمح العمانيون لأبناء الأرض، بأن يحتفظوا بتراثهم الثقافي الذي يتماشى مع تركيبهم القبلي، ونظمهم التقليدية، حيث كان النظام القبلي سببا رئيسا من أسباب التعايش السلمي بينهم، لشعورهم بالتقارب في أنظمتهم. كما يبرز الأثر العربي في تشكل مزيج ثقافي، يجمع بين الثقافة العربية والثقافة الإفريقية المحلية، فلقد حكم الاسلام في المستوطنات، وقام البانتو بدورهم بالتعديل في نظمهم الاجتماعية، وثقافتهم التقليدية. ونتيجة للتزاوج من البانتو، انتشرت قيم وتعاليم الإسلام بين مجتمعات البانتو، من التزام بالزني الإسلامي، والشعائر الدينية.^(٥٠) كما برزت اللغة السواحيلية كإحدى السمات الثقافية للهجرات العربية العمانية، في ساحل إفريقيا الشرقي، وهي تعكس مدى الأثر الذي تركه العرب في تلك المنطقة، وتعرف السواحيلية بأنها لغة باننوية في قواعدها، ولكنها فقدت بعض الخصائص الصوتية لكي تتلاءم مع الألفاظ العربية التي دخلتها،^(٥١) وهي تحتل المرتبة الثانية بعد اللغة العربية من حيث الانتشار.^(٥٢) وتنقسم اللغة السواحيلية لثلاث لهجات معروفة، منها لهجة ممباسا، وتعرف باسم كمفيتا Kimvita، وتنتشر في المناطق الساحلية في كينيا، ولهجة كيوجا Kiyuuja أو كيوجي Kiyuuji، وهي لهجة

زنجبار، التي تغطي المناطق الداخلية من تنزانيا، ولهجة كنجوانا Kingwana وتشمل المناطق الداخلية من شرقي إفريقيا، حتى أواسط الكونغو.^(٥٣)

وقد كانت اللغة «الجعزية» بمثابة أقدم لغة سامية مهاجرة من شبه الجزيرة العربية، وانتشرت في بعض مناطق ساحل إفريقيا الشرقي. وقد تغلبت العربية على تلك اللغات، لأن التجارة وسيلة من وسائل نشر الثقافة، ونتيجة لهذا الاختلاط بين السكان الأصليين والعرب، ظهرت اللغة السواحيلية، وهي لا ترجع لأصول قبلية إفريقية بعينها، ولكنها نمت كلغة للتجارة في مراكز استيطان العرب.^(٥٤)

وأصل لفظ (واحيلي) استعمله العرب في الإشارة إلى سكان السواحل، وبمرور الوقت، أصبح بمثابة اصطلاح ثقافي، يشير لهؤلاء اللذين انضموا تحت لواء حضارة الساحل، وهي مزيج من مؤثرات عربية وإفريقية، حيث استعارت اللغة السواحيلية كثيرا من المفردات العربية، وخاصة في المجال الديني، والسياسي، والتجاري.^(٥٥) وأصبحت لغة الطبقة الأرستقراطية العربية والإفريقية، باعتبارها لغة العروبة والإسلام، وأصبحت لغة رسمية معترفا بها من قبل حكام المراكز التجارية، وكانت تجري الرسائل والمكاتبات وعقود البيع والشراء بها، فنافست اللغات المحلية الإفريقية.^(٥٦) لذا وصفها علماء اللغات السواحلية، بأنها «لغة عربية تأفرقت، أو لغة إفريقية تعربت»، وكانت مرتبطة بانتشار الإسلام، فأينما انتشر الإسلام، انتشرت معه السواحلية، وكذلك العربية.^(٥٧) ويؤكد انتشار وتوغل اللغة السواحيلية، قدرة الوجود العربي العماني، على أن يوجد نواة اتصال، بإيجاد أداة لغوية واسعة الانتشار.^(٥٨)

وفي ميدان الطقوس الاحتفالية، عرفت منطقة الساحل نوعين من الاحتفالات، الأولى: دينية مرتبطة بعديي الفطر والأضحى، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فضلا عن الاحتفالات السنوية التي تقام للأولياء الصالحين. وقد جسدت هذه الطقوس الأثر الإسلامي، الذي يقصر الجانب الاحتفالي على مناسبات دينية محددة، دون غيرها من المناسبات، أما النوع الثاني من الاحتفالات: فيشمل الاحتفالات الاجتماعية، ممثلة في مراسم الزواج، التي جمعت بين الطقوس المحلية، من حيث مراسم الاحتفال بالزواج، ومن حيث تقديم المهر، الذي ارتضت الثقافة التقليدية ألا يقدم إلا عند الطلاق، وبين الجانب الشرعي ممثلا بالخطبة، والإيجاب والقبول، وعقد القران، إلى جانب طقوس الختان، والتي جمعت بين البعد الشرعي الذي أوجده الإسلام، فلم تعرف تلك المجتمعات عادة الختان الا مع دخول الإسلام، إلى جانب البعد الاجتماعي، ممثلا بالطرق الاحتفالية بالمختتن، وطرق تحصينه الشعبية، التي اتفقت عليها تلك المجتمعات.^(٥٩) مما يعكس المرونة التي اتسم بها المهاجرون العمانيون، ويعكس قدرتهم الكبيرة على التعايش، واحترام الثقافة المحلية المتجذرة في الوجدان الجمعي للجماعات الإفريقية.

كما ترك التراث العماني بصمة واضحة في ميدان الثقافة المادية، لا سيما الأزياء التقليدية، التي تعد أحد

العناصر المهمة لدى سكان مدينتي ممباسا، ولامو، لما تنطوي عليه من دلالات مهمة؛ حيث تستخدم في تمييز مراتب اجتماعية وسياسية ودينية لمن يرتديها، وتعكس الحالة الاجتماعية للفرد، إلى جانب أبعادها الجمالية والفنية، من حيث طرق الحياكة والتطريز، وما تعكسه التطريزات من معتقدات وقيم ثقافية. ونظرا لأن ملابس الرجال التقليدية لدى القبائل العمانية، تتمثل في ثوب طويل يسمى (دشداشة)، وهي ذات عنق مستدير، يحيط بها شريط رفيع، قد يختلف لونه عن لون الدشداشة، وتتدلى على الصدر (الفراخة أو الكركوشة)، وتطرز أطراف وعرى الدشداشة بشريط من نفس اللون. فقد تأثرت مدن الساحل في ممباسا، ولامو، بهذا الزي التقليدي، حيث نجد أن الرجال يرتدون الجلابية العمانية التقليدية، ذات الرقبة الدائرية والفتحة، التي يتدلى منها (خيط يطلق عليه (كانزو))، وهو جلاب لونه أبيض، يلبسه الرجال، ولا يقتصر ارتداؤه على المسلمين، وإنما ترتديه قبائل الباغندا، أو الباجندا، والبانغو، من غير المسلمين.^(٦٠)

ويبدو الطابع الإسلامي في الزي السواحلي للرجال والنساء؛ فالرجال يرتدون الملابس القطنية ذات الأكمام الطويلة، أو رداء طويلا يسمى (جوهو)، ويضع الرجل فوق رأسه عمامة ملونة، وفي قدميه صندلا جلديا، بينما تتكون ملابس النساء من قطعتين من القماش، تلف إحداها حول سائر الجسد حتى كعب القدمين، أما الثانية، فتوضع فوق الرأس والكتفين، وتشد للأمام، بالإضافة لقطعة ملابس إضافية، تعتبر من مكملات الثوب، وهي البرقع لحجب الوجه.^(٦١) وفي سفالا كانوا، يلفون النصف السفلي من الجسد بالأقمشة القطنية والحريرية، ويضعون (الدثار) على أكتافهم، والعمائم على رؤوسهم، وفي كلوة، كانوا يلبسون ثيابا فاخرة مزينة بخيوط الذهب.^(٦٢) وظل لباس المرأة في ذلك الزمن هو الخمار والقميص والسراويل، وشيلة تعم سائر جسدها، وجوارب في ظل السلطة العمانية، قبل الحقبة الاستعمارية.^(٦٣)

ويكثر ارتداء الجلاب في المناسبات الدينية، أو في طقوس الزواج، أو الوفاة، كرمز للثقافة العربية والإسلامية، حرصت عليه الأجيال المتلاحقة، كسمة ثقافية، تميز السواحليين عن غيرهم من الإثنيات في كينيا. كما يرتدي العمانيون الطاقية، وهي غطاء الرأس للرجال، وتبدو مظهرا ثقافيا، يوضح الأثر العماني في ممباسا ولامو، وكل مدن كينيا، وتتطابق الكوفية في تلك المدن مع الكوفية العمانية، ولكنها تختلف في أنها لا تستخدم الألوان المتعددة والصارخة، حيث يفضل الأبيض والذهبي والبني الخفيف، لدى سكان الساحل من الأصل العربي.^(٦٤) وتشتهر مدينة لامو بتطريز الكوفية، وتعد السوق الأساس لتصديرها إلى باقي المدن الكينية والعالم، ويعكس ارتداء الكوفية عند الساحليين المكانة الاجتماعية لصاحبها؛ لذا يتم ارتداؤها في جميع المناسبات. ويعد الخنجر العماني من مكملات الثوب، يتزين به الرجال، والنوع المفضل ثقافيا، هو المطرز والمصنوع من الفضة الخالصة، وأحيانا يلف الشال حول الوسط فوق حزام الخنجر، وهو من نفس نوع العمامة ولونها، ويهتم سكان ممباسا، وماليندي، ولامو، بارتداء الخنجر كتراث عماني في نطاق محدود،

ويرتبط بطقوس الزواج، فيرتديه العريس ليلة الزفاف، وعند عقد القران، يتم جلبه من محلات متخصصة لمناسبة الزواج، ومن سلطنة عمان.^(٦٥)

كما ترتدي النخبة العربية في زنجبار لباسا يُعرف باسم الـ (كيلمبا Kilemba)، وهو عبارة عن أمتار من قماش الحرير أو القطن غير المزخرف، أو المزخرف بشكل بسيط، ملفوف بعناية فوق رأس مرتديه، مما يعكس المكانة الاجتماعية له. ويطلق على هذه الطريقة «أسلوب الإمامة»، نسبة إلى الطريقة المميزة، التي كان الأئمة يربطون بها غطاء رأسهم الأبيض حول رؤوسهم.^(٦٦) كما يظهر الأثر العربي الإسلامي كذلك في مواكب الحج حيث اتخذ الحجاج العائدون من الجزيرة العربية طرازا جديدا من الملابس، على غرار الطراز العربي المستخدم داخل قوافل الحجيج، غير أن مجيء القوى الاستعمارية في منتصف القرن التاسع عشر، أدى إلى تراجع النفوذ الإسلامي في الأزياء التقليدية.^(٦٧)

الخاتمة

رغم قدم الصلات التجارية التي ربطت القبائل العمانية بالساحل الإفريقي الشرقي، فقد زادت قوتها بعد انتشار الإسلام، وتعددت أسباب الهجرات العمانية صوب منطقة الساحل، ثم ما لبثت أن عززت تلك القبائل وجودها، وتأسست الممالك الإسلامية بفعل المهاجرين العمانيين، الذين كان لهم باع طويل في العمل السياسي في ظل الخلافت الأموية والعباسية، وتكوّن مجتمع عُرف بالمجتمع السواحيلي، شكّل مزيجا متجانسا من العمانيين المهاجرين والسكان المحليين، وجمع بين مفردات الثقافة العربية والإفريقية. واصطبغت الحياة بمنطقة الساحل بصبغة دينية وحضارية مميزة، رغم عدم افتقار المجتمعات المحلية الإفريقية إلى نظم تحكمها، أو مظاهر تنم عن تنظيمهم القبلي، قبل مجيء تلك الهجرات، فتشكل مجتمع امتزجت فيه الدماء العربية بالإفريقية، بفعل التجارة والتزاوج والجوار، وتفرد بمميزاته الثقافية، التي بدت في انتشار اللغة والثقافة العربية، وازدهار الطرز المعمارية، وانتعاش الحالة الاقتصادية في مدن الساحل، وعم الرخاء، وانصهر العمانيون والأفارقة في بوتقة واحدة، وهي بوتقة الدين مع المسلمين، والمواطنة مع غير المسلمين، وأصبحت الحياة العامة في تلك الإمارات تعكس وحدة وخصوصية تاريخية، تؤكد أثر الثقافة العربية في المجتمعات الساحلية، كمحصلة لتاريخ طويل من التواصل والتفاعل الحضاري فيما بينهم.

- (١) علي منصور نصر، «العرب وانتشار اللغة العربية في إفريقيا الشرقية في العصر الإسلامي»، مجلة البلقاء للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع ١، (الأردن: جامعة عمان الأهلية، ٢٠٠١م)، ١١٩.
- (٢) سبنسر ترمينجهام، الإسلام في شرق إفريقيا، ترجمة: محمد عاطف النواوي، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣م)، ٣٦.
- (٣) دنيس جونسون ديفز، «الثقافة العربية في شرق إفريقيا»، البيان، (١٣، أكتوبر، ٢٠١٦م)،
<https://www.albayan.ae/opinions/articles/2016-10-13-1-2733200>
- (٤) سليمان عبد الغني المالكي، «دور العرب وتأثيرهم في شرق إفريقيا»، في: إفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر، تحرير: رؤوف عباس حامد، (القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٨٧م)، ١٢٣.
- (٥) المالكي، «دور العرب وتأثيرهم في شرق إفريقيا»، ١٢٩.
- (٦) عبد الرحمن حسن محمود، «أثر العرب والفرس المسلمين في الحياة السياسية والثقافة والدينية في الساحل الشرقي من القارة الإفريقية خلال القرون الوسطى»، (رسالة ماجستير، جامعة الزيتونة، تونس، ٢٠٠٢م)، ١٨.
- (٧) زكية عبد ربه عاتق اللحياني، «المجموعات التجارية في موانئ شرق إفريقيا ما بين القرنين (٣-٤ هـ / ٩-١٠م)»، مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، ع ٢٧، (مصر: جامعة كفر الشيخ، ٢٠٢٢م)، ٦٠٣.
- (٨) طه حسين عوض هديل، «دور الموانئ الإفريقية في تسهيل حركة الحج إلى الحجاز في القرنين (٦، ٧ هـ / ١٢، ١٣ م) عيذاب وزيلع أنموذجا»، مجلة قضايا تاريخية، ع ٩، (الجزائر: مخر الدراسات التاريخية المعاصرة، ٢٠١٨م)، ٥٢.
- (٩) تقي الدين علي بن عبد القادر المقرزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، تحقيق: عطا أبو رية، عبد المعطي سمس، (القاهرة: سمس الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٢٣م)، ٩.
- (١٠) بطل شعبان، «تاريخ جزر القمر وحضارتها خلال القرون الستة الأولى للهجرة»، مجلة التاريخ والمستقبل، ع ٧١، (مصر: جامعة المنيا، ٢٠٢٢م)، ٢١٧.
- (١١) هدى بنت عبد الرحمن الزدجالي، «الهجرات العمانية إلى شرق إفريقيا، وأبعادها السياسية والحضارية والثقافية»، حوليات آداب عين شمس، (مصر: كلية آداب عين شمس، ٢٠١٥م)، ١٣١.
- (١٢) المقرزي، «الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام»، ١٠.
- (١٣) محمد عوض محمد، السلالات والشعوب الإفريقية، (القاهرة: الدار المصرية للترجمة والتأليف، ١٩٦٥م)، ١٠.
- (١٤) موسى بن خميس بن محمد البوسعيد، تأسيس المدن الإسلامية في شرق إفريقيا، مجلة التفاهم، ع ٢٩، (سلطنة عمان: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، ٢٠١٣م)، ٣٩٨.
- (١٥) زياد بن طالب المعولي، «العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا»، مجلة الحياة، ٢٠١٧،
<https://tinyurl.com/3udv8fk8>
- (١٦) هدى الزدجالي، «الهجرات العمانية إلى شرق إفريقيا، وأبعادها السياسية والحضارية والثقافية»، ١٣٦.
- (17) James de Vere Allen, «Swahili Culture and the Nature of East Coast Settlement», *The International Journal of African Historical Studies*, Boston University African Studies Center, 14: 2, 1981, 322.
- (١٨) أحلام بنت حمود الجمهورية، «علاقة عُمان بشرق إفريقيا منذ الهجرة الجبلدانية حتى الآن»، أثير الإلكترونية، (١٥، يونيو، ٢٠٢٥م)،
<https://www.atheer.om/archive/593970/>
- (١٩) أحلام بنت حمود الجمهورية، «علاقة عُمان بشرق إفريقيا منذ الهجرة الجبلدانية حتى الآن».
- (٢٠) الجمهورية، «علاقة عُمان بشرق إفريقيا منذ الهجرة الجبلدانية حتى الآن».
- (٢١) عبد العزيز خليفة فرج السلمي، «العلاقات الاجتماعية بين عمان وساحل شرق إفريقيا في العصر الإسلامي الهجرات السكانية نموذجاً»، مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية، ع ٢٧، (الخرطوم: مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر، ٢٠٢٣م)، ٨٣.

- (٢٢) موسى بن خميس بن محمد البوسعيد، «تأسيس المدن الإسلامية في شرق إفريقيا»، ٤٠١.
- (٢٣) البوسعيد، «تأسيس المدن الإسلامية في شرق إفريقيا»، ٤٠٤.
- (٢٤) علي منصور نصر، «العرب وانتشار اللغة العربية في إفريقيا الشرقية في العصر الإسلامي»، ١٢٢.
- (٢٥) تقع مدينة برواء، بإقليم شبيلي السفلي، في جنوب الصومال، وهي من أعرق المدن الساحلية في شرقي إفريقيا، حيث خضعت لحكم عدة ممالك وسلطنين.
- (٢٦) جمال عبد الوهاب، «المراكز التجارية في ساحل شرق أفريقيا خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين»، (أطروحة دكتوراة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، مصر، ٢٠٢٢م)، ١٨٥.
- (٢٧) الزدجالي، «الهجرات العمانية إلى شرق إفريقيا، وأبعادها السياسية والحضارية والثقافية»، ١٣٧.
- (٢٨) صالح محروس محمد، «حكايات المهاجرون العرب إلى شرق إفريقيا»، بوابة روز اليوسف، (١٤، فبراير، ٢٠٢١م).
- <https://tinyurl.com/23cpf76f>
- (٢٩) الجهورية، «علاقة عُمان بشرق إفريقيا منذ الهجرة الجندانية حتى الآن».
- (٣٠) أحمد محمود المعمرى، عمان وشرقي إفريقيا، ترجمة: محمد أمين عبد الله، (عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٧٩)، ٦.
- (٣١) ترمنجهم، «الإسلام في شرق إفريقيا»، ١٢.
- (٣٢) زياد بن طالب المعولي، «العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا».
- (٣٣) المعولي، «العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا».
- (٣٤) الزدجالي، «الهجرات العمانية إلى شرق إفريقيا، وأبعادها السياسية والحضارية والثقافية».
- (٣٥) نصر، «العرب وانتشار اللغة العربية في إفريقيا الشرقية في العصر الإسلامي»، ١٢٥.
- (٣٦) الفاتح الشيخ يوسف، «مظاهر الحضارة الإسلامية في الممالك الإفريقية»، قراءات إفريقية، (١٠، يناير، ٢٠١٩م).
- <https://tinyurl.com/yc4tc6sd>
- (٣٧) محمد جاب الله، «أرخييل لامو خلال القرون الستة الأولى للهجرة دراسة تاريخية في ضوء الأدلة الأثرية»، مجلة الدراسات الإفريقية، ع ١ (مصر: كلية الدراسات الأفريقية العليا، ٢٠٢٤م)، ١٦.
- (٣٨) الفاتح الشيخ يوسف، «مظاهر الحضارة الإسلامية في الممالك الإفريقية».
- (٣٩) أسامة عبد الرحمن الأمين، «أثر الهجرات العربية إلى شرق إفريقيا العمانيين نموذجاً»، المجلة العلمية لجامعة الإمام المهدي، ع ٢، (السودان: جامعة الإمام المهدي، ٢٠١٣)، ٩٦.
- (٤٠) بطل شعبان، «تاريخ جزر القمر وحضارتها خلال القرون الستة الأولى للهجرة»، ٢٢٥.
- (٤١) محمد جاب الله، «أرخييل لامو خلال القرون الستة الأولى للهجرة دراسة تاريخية في ضوء الأدلة الأثرية»، ١٨.
- (٤٢) أسامة عبد الرحمن الأمين، «أثر الهجرات العربية إلى شرق إفريقيا العمانيين نموذجاً»، ٩٦.
- (٤٣) محمد أحمد مشهور الحداد، حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في إفريقيا الشرقية، (دار الفتحة، ١٩٧٣)، ١٠٣.
- (٤٤) محمود محمد الحويري، ساحل شرق إفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦م)، ١٠.
- (٤٥) رشيدة دونان مروان قران، «الهجرات العربية ودورها الحضاري في شرق إفريقيا ما بين القرنين ١٥، ١٧ الميلاديين»، (رسالة ماجستير، جامعة العقيد أحمد دراية، الجزائر، ٢٠١٩م)، ٢٣.
- (٤٦) عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشار الإسلام، (بنغازي: دار الكتب الوطنية، ١٩٩٨م)، ١٠٥.

(٤٧) عبد الرحمن حسن محمود، «أثر العرب والفرس المسلمين في الحياة السياسية والثقافة والدينية في الساحل الشرقي من القارة الإفريقية خلال القرون الوسطى»، ٦٨.

(٤٨) أحمد الكندي، «شرق إفريقيا كمركز إشعاع للثقافة العربية: الحركة العلمية في زنجبار والساحل خلال القرن الـ ١٩»، الجزيرة، (١٤)، مارس، (٢٠٢٠)،

<https://tinyurl.com/4pbwembw>

(٤٩) محمود، «أثر العرب والفرس المسلمين في الحياة السياسية والثقافة والدينية في الساحل الشرقي من القارة الإفريقية خلال القرون الوسطى»، ٧٠.

(٥٠) محمود، «أثر العرب والفرس المسلمين في الحياة السياسية والثقافة والدينية في الساحل الشرقي من القارة الإفريقية خلال القرون الوسطى»، ١٣٠.

(٥١) محمود محمد الحويري، «ساحل شرق إفريقيا من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي».

(٥٢) محمود، «أثر العرب والفرس المسلمين في الحياة السياسية والثقافة والدينية في الساحل الشرقي من القارة الإفريقية خلال القرون الوسطى»، ٨٢.

(٥٣) محمود، «أثر العرب والفرس المسلمين في الحياة السياسية والثقافة والدينية في الساحل الشرقي من القارة الإفريقية خلال القرون الوسطى»، ٧٢.

(٥٤) عطية مخزوم الفيتوري، «دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشار الإسلام»، ٧٩.

(٥٥) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، (القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠١م)، ٣٨٠.

(٥٦) جمال عبد الوهاب، «المراكز التجارية في ساحل شرق أفريقيا خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين»، ١٨٠.

(٥٧) أحمد الكندي، «شرق إفريقيا كمركز إشعاع للثقافة العربية: الحركة العلمية في زنجبار والساحل خلال القرن الـ ١٩».

(٥٨) البوسعيد، «تأسيس المدن الإسلامية في شرق إفريقيا»، ٤١٢.

(٥٩) الفيتوري، «دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشار الإسلام»، ٧١.

(٦٠) عبد الناصر علي بن علي الفكي، «مظاهر التراث العماني لدى سكان مدينتي ممباسا وماليني ولامو في كيني»، جريدة الوطن، (٢٦)، يوليو، ٢٠١٥م)،

<https://tinyurl.com/tb25tmww>

(٦١) المالكي، «دور العرب وتأثيرهم في شرق إفريقيا»، ١٣٥.

(٦٢) المالكي، «دور العرب وتأثيرهم في شرق إفريقيا»، ١٣٦.

(٦٣) المعولي، «العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق إفريقيا».

(٦٤) الفكي، «مظاهر التراث العماني لدى سكان مدينتي ممباسا وماليني ولامو في كيني».

(٦٥) بوسليمان عبد الرحمن، «التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وفي غربها، دراسة تاريخية»، مجلة الدراسات الإفريقية، ع ١، (١٥)، مايو، (٢٠١٤م)، ١٧٣.

(66) Aisa Martinez, "Omani Men's National Dress: Displaying Personal Taste, Asserting National Identity," *Ars Orientalism*, 47, 2017, 311.

(٦٧) عبد الرحمن، «التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وفي غربها، دراسة تاريخية»، ١٨٣.

المقاومة الثقافية للاستعمار في السنغال: قراءة في الوسائل والمآلات

د. الحسين كان، باحث متخصص في اللغة العربية والحضارة الإسلامية، دكار.

مقدمة

تعرضت شعوب القارة الإفريقية لموجات من الاحتلال الأجنبي، بهدف سلب هوياتها وخيراتها، وخاصة بعد انعقاد مؤتمر برلين (١٨٧٨-١٨٨٤م)، حيث جُزئت القارة الإفريقية من طرف القوى الإمبريالية، فشهدت الأنشطة السياسية للقوى الاستعمارية ازديادا، بغاية تعويض خسارة مستعمراتها في العالم الجديد. وفي هذا الصدد اتخذ الاستعمار الفرنسي من السنغال - باعتبارها بوابة غرب إفريقيا - منطلقا لإحكام سيطرته على المنطقة اقتصاديا وسياسيا وثقافيا. وظهرت في المقابل أصوات رافضة لهذه الهيمنة الاستعمارية، مما ولد مقاومة شرسة، قادها أعلام دينيون ووطنيون، وهم في هذه المقاومة على ثلاثة اتجاهات:

- اتجاه استخدم السلاح لمقاومة الاستعمار.
- واتجاه اتخذ من التربية والتعليم والتثقيف في الكتاتيب، ومجالس العلم، وفي المساجد، ووسائل للمقاومة.
- وأخيرا اتجاه تبنى الأيديولوجية الإفريقية، وسيلة مقاومة للقوى الأجنبية الإمبريالية، والدعوة إلى إحياء قيمة الرجل الأسود.

وتتمحور هذه الدراسة في تناول الاتجاه الثاني، مبينة دوافعه، وأساليبه، ونتائجه، وتطلعاته المستقبلية في إعادة بناء شخصية إفريقية، مدركة لهويتها، و متمسكة بدينها، ومتشعبة بقيم الحرية والكرامة الإنسانية، أمام خصم بيده كل مقومات القوة المادية.

وهنا تبرز عدة تساؤلات للملّمة حيثيات الدراسة، وهي: لماذا خيار المقاومة الثقافية؟ أهو خيار اضطراري أو إستراتيجي؟ وما آليات هذه المقاومة؟ وما مدى نجاعتها؟ وما مكاسبها على الصعيد الديني والثقافي والإنساني؟

المحور الأول: جذور الاستعمار في السنغال وفتيلة المقاومة الثقافية

يرجع تاريخ دخول الاستعمار في السنغال إلى القرن السابع عشر، حيث احتل الهولنديون جزيرة غوري (Gorée)^(١) عام ١٦١٧م، لتجارة الرقيق. وفي عام ١٦٥٩م، شيد الفرنسيون حصن «سين لويس - St-Louis» عند مصب نهر السنغال، وفي عام ١٦٧٧م أخذوا جزيرة غوري من الهولنديين، وأصبحت شواطئ بلاد السنغال بأيديهم.^(٢) وقد اختاروا هذه المنطقة من الساحل، لتكون بمثابة رأس حربة، تمكنهم فيما بعد من الانسياب إلى داخل القارة الإفريقية.^(٣)

وعندما تولى نابليون الثالث الحكم في فرنسا عام ١٨٤٨م، وضع مشروعا للتوسع داخل السنغال، وعلى إثره عين الجنرال (لويس فيدِهْرِب - Louis Faidherbe) حاكما على حاكم مستعمرة السنغال مرتين: من سنة ١٨٥٤م إلى سنة ١٨٦١م، ومن سنة ١٨٦٣م إلى سنة ١٨٦٥م، فقاد حملات واسعة لإخضاعها، واشتبك مع الإمارات القائمة هناك بحروب دائمة، انتهت بتوطيد السيادة الفرنسية، واتخذ من السنغال قاعدة للعمليات الحربية الاستعمارية.^(٤)

وقد كشفت سياسات الاستعمار في القطر السنغالي عن أطماعه التوسعية، وعرقلة كل مشروع نهضوي، فعمد الاستعمار إلى تآزيم الإسلام، وربط تخلف السنغاليين به، والزعم بأن أغلب مساوي إفريقيا أتت من الإسلام، ولذلك لا ينبغي تشجيعه في أي ظرف من الظروف، سواء في مستعمرات فرنسا الحالية، أو في تلك التي ستؤسسها مستقبلا.^(٥)

وفي المقابل، قدم الاستعمار للحركات التنصيرية دعما سخيا، لتنصير الشعب السنغالي عن طريق التعليم، وبناء الكنائس، وتوفير الخدمات الصحية، والاجتماعية، وتوظيف وسائل الإعلام.^(٦) كما جنح الاستعمار إلى فرض لغته وثقافته، بتأسيس مدارس استعمارية في مناطق مختلفة داخل السنغال، لغرض تخريج كوادر سنغالية، يتولون مهام تنفيذ خططه وسياساته المستقبلية، مع تشديد الخناق على المؤسسات الدينية والتعليمية واللغة العربية، وذلك بإصدار سلسلة من القرارات المجحفة، مثل:

- ١- مراقبة المسلمين وتصنيفهم، لمعرفة مدى خطورة كل صنف.
- ٢- مراقبة المساجد بوضع قوانين صارمة لبنائها، لأنهم يرون أن وجود المسجد تهديد لوجودهم، حتى قال قائلهم: «..إن وُجِدَ المسجد، فلا رجوع لنا بعددئ».^(٧)
- ٣- التضييق على المؤسسات التعليمية: فقد أصدر (فيدِهْرِب) بتاريخ: ٢٢ / يونيو / عام ١٨٥٧م قرارا صارما، يقضي بعدم تدريس اللغة العربية، إلا برخصة موقّعة من الحاكم العام، واشترط على من يريد فتح مدرسة أن يكون مواطنا من أصل سين لويس، وأن يجتاز امتحانا أمام لجنة يرأسها عمدة البلدية، وأن يصطحب تلاميذه البالغين من العمر اثنتي عشرة سنة، إلى مدرسة فرنسية مسائية.

كما أن هذه المدارس الإسلامية، قابلة للإغلاق في أي لحظة، إذا رأى ذلك الحاكم العام، أو مدير الشؤون الداخلية.. وغيرها من الشروط المجحفة.^(٨) هذا فضلا عن أطماع الاستعمار الاقتصادية، التي أسس لها مراكز تجارية، وسياساته التوسعية التي بسببها سقطت عدة إمارات... كل هذه السياسات فجرت مقاومة، حملت في بعض فتراتها السلاح على وجه المستعمر، بينما انتهجت في فترة ما نهج المقاومة الثقافية، بعد تقييم معطيات المواجهة العسكرية، مع الإدارة الاستعمارية المدججة بأحدث الأسلحة. وقد رأوا مصير من رفعوا السلاح ضد الاستعمار، الذي انتهى بالقتل أو الاغتيال أو الحرق، لذلك ألقوا الأسلحة، واستبدلوها بإستراتيجية جديدة، تمثلت في تكوين الدوائر والزوايا (المساجد)، والتركيز على التربية الدينية، وعدم اللجوء مؤقتا إلى استعمال السلاح ضد المستعمر الفرنسي، مسايرة للواقع، وإنقاذا لما يمكن إنقاذه من الوجود الإسلامي.^(٩)

وإن السجل التاريخي للسنغال، حافل بأعلام كثيرة، ساهموا في تعزيز المقاومة الثقافية ضد الاستعمار، من خلال ما كانوا يبثون من قيم الإباء والكرامة وعزة النفس، عبر مسلك التعليم والتربية. على أن من أبرز الملامح المشتركة بين رواد المقاومة الثقافية في السنغال:

- ١- نشأتهم في محيط أسري وبيئي أسهم في صقل روح المقاومة عندهم.
- ٢- تلقي تكوين علمي بؤاهم مكانة مجتمعية، بفضل مؤلفاتهم في التفسير والفقه والحديث والتوحيد واللغة والآداب والرسائل والخطب الإرشادية والتوجيهية.
- ٣- إنشأؤهم لمؤسسات تعليمية مدّت للمقاومة الثقافية الاستمرارية، وأسهمت في إزاحة القابلية للاستعمار.

ومن بين رواد المقاومة على سبيل المثال:

القاضي عَمْرُ فَالُ (١٥٥٥-١٦٣٩م)

ولد سنة ١٥٥٥م في ديمات بفوتا طورو شمال السنغال، وتعلم فيها، وأسس مدرسته قبل أن ينتقل إلى كجور، لتأسيس جامعة بير الشهيرة حوالي عام ١٦٠٣م. توفي سنة ١٦٣٩م، تاركا تراثا ثميناً في العلوم والمعارف، وأشخاصا حملوا رايتهما الخفاقة، فظلت جامعة بير مَعْلَمَة حضارية تراثية.^(١٠)

ألمام عبد القادر كانُ (١٧٢٨-١٨٠٧م)

ولد سنة ١٧٢٨م، وتعلم في محاضر فوتا، وفي محاضرة «وَلاتَة»، ثم في جامعة بير، وبرز في الفقه والحديث والقرآن والقضاء، إلى جانب كونه من الذين وضعوا اللبنة الأولى لتأسيس دولة الأئمة، وكان أول إمام

لها، بموافقة جميع رجال الدين، وكان عمره آنذاك خمسين سنة، وبقي في الحكم ثلاثين سنة، استطاع من خلالها تحديد معالم حدود الدولة، وتوطيد أركانها، وبناء مؤسساتها. كما استطاع أن يبني ٤٠ مسجداً، يحتوي كلُّ مسجد على مدرستين لتدريس القرآن، وتدريس العلوم الشرعية، وقام بإرسال الطلاب إلى البلدان المجاورة لمواصلة دراستهم. ت ١٨٠٧ م. (١١)

الشيخ أحمد بمبا البكي (١٨٥٣-١٩٢٧ م)

وُلد عام ١٨٥٣ م في امباكي بول، يلقب «خادم الرسول» أو الشيخ الخديم. نشأ في أسرة علمية متدينة، (١٢) واشتهر بالورع والصَّلاح، وبالتضلع من الفنون العلمية العقلية، (١٣) وقد أسس قرية «دار السلام» سنة ١٨٨٦ م، ثم مدينة «طوبى» عام ١٨٨٨ م، فقصده الناس يتعلمون منه. وقد توجس الاستعمار من نشاطه، فتم اعتقاله عام ١٨٩٥ م، ونفيه إلى الغابون، حيث بقي هناك سبع سنين، ثم أُعيد إلى السنغال عام ١٩٠٢ م، واستمر في منهج الدعوة التربوية والتعليم، فازداد إقبال الناس إليه، فاستمر الاستعمار يراقب كل تحركاته، وصدر قرار نفيه من جديد إلى موريتانيا، حيث مكث فيها خمس سنوات، ثم أُعيد إلى السنغال سنة ١٩٠٧ م، وبقي رهن الاعتقال المنزلي حتى وفاته عام ١٩٢٧ م. (١٤)

الشيخ الحاج مالك سي: (١٨٥٥-١٩٢٢ م)

ولد بقرية غايا غرب داغانا، ونشأ في أسرة علم ودين، (١٥) وسافر إلى جولوف، وفوتاً تورو، و«كجور»، و«اندر» وموريتانيا؛ وأخذ عن علمائها. كما سافر الشيخ إلى الديار المقدسة عام ١٨٨٩ م. وقد بقي في منطقة تيوأورون حتى وفاته، حيث بدأ الطلاب يقصدونه من كل حذب وصوب، يتلقون منه التربية والتعليم، وكان يتردد على دكار حيث أسس زاوية كبيرة، ظلت محل نشاط ثقافي. وفي أيامه الأخيرة، ركز على التعليم والتأليف، وترك أكثر مشروعاته لطلابه وأبنائه، إلى أن توفي عام ١٩٢٢ م في مدينة تيوأورون. (١٦)

الشيخ حمي بابا تلا (١٨٧١-١٩٣٥ م)

ولد في بلدة «سنجو بامبي» في منطقة فوتاً تورو، على بُعد ٥٥ كلم من ماتم، وسافر إلى كبريات المدارس العلمية التي كانت في فوتاً، مثل مدرسة «انجلن» على يد الشيخ أحمد مختار آن، ثم في مدرسة «بوقي - Bogue» على الشيخ أحمد مختار ساخو. (١٧) كما هاجر الشيخ حمي بابا إلى دكار، وأتاح له جود دكار الحضاري والعلمي مزيداً من الروح الانفتاحية، حيث تعلم اللغة الفرنسية فيها، وأتقنها إتقاناً جيداً، (١٨)

مشيرا إلى أن هذا المستعمر يحاربُ بأدواته، وأن إتقان لغته جزء مهم في مقاومته ثقافيا. ولم يُخلفَ الشيخ حمّي تراثا مكتوبا، وكان له كل المقدرة على ذلك، لكن شغله كان صناعة الرجال والأجيال، فقد تخرج على يديه علماء كانت لهم إسهامات علمية، وكان من بينهم الشيخ محمد سعيد با، وجيرنو عمر جالو، وجيرنو سالف دنفا وجيرنو عبد الرحمن بنّاج.^(١٩)

المحور الثاني: أساليب المقاومة الثقافية للاستعمار

اتخذت المقاومة الثقافية في القطر السنغالي عدة أساليب للمقاومة، ومنها:

أولا- إنشاء مراكز تعليمية:

وقد أسهمت هذه المراكز في تعزيز روح المقاومة الثقافية، وبناء الوعي الذي يشير إلى حالة من اليقظة، والقدرة على الشعور بالذات، وأدت دورا تاريخيا في مجال التربية، والتعليم، والتكوين، وتوجيه الأمة السنغالية، ومنها:

١- مركز طوبى: تأسس عام ١٨٨٦م على يد الشيخ أحمد بَمبا، الذي دعا إلى أن تكون هذه الأرض دار علم وسُنّة، ومليئة بالأمن والاستقرار.^(٢٠) وقد انتشرت فيها بعد مؤسسات ومعاهد ومكتبات علمية.

٢- مركز تياوون: وقد أنشأه الحاج مالك عام ١٩٠٢م، واستمرت الدراسة فيه حتى عام ١٩٢٣م، وقد نجح في تحويل تياوون إلى مركز إشعاع علمي وروحي، بعد أن كانت مدينة من أشهر معاقل اللهو والإقطاعية.^(٢١)

٣- مركز جِلُون: استقر الشيخ حمّي بابا في بلدة «جِلُون» بطلب من والدته، فأنشأ مدرسته هناك، وقصده الناس وطلاب العلم. وقد مثلت فترته التعليمية في بلدة «جيلون»، مرحلة الانطلاقة العلمية للبلدة، محافظة على مركزيتها، ضمن كبرى المراكز العلمية في فوتا تُوْرُو. وقد اعترف العلماء للشيخ حمّي بابا بالعلم، وسعة الاطلاع، والفهم، حيث أصبح علماء البلدة بمثابة تلاميذ للشيخ، فضلا عن تلاميذهم.^(٢٢)

ثانيا- تنشيط التربية والتعليم:

أدرك هؤلاء الرواد مركزية التعليم والتربية (التزكية) في قلب المقاومة، فعملوا على إعداد الأجيال عن طريق تنمية ثلاثة جوانب مهمة، وهي:

١- تنمية الجانب المعرفي:

فقد حث الشيخ الخديم على التعلم في أوان الصِّبا، والاعتناء بحفظ القرآن الكريم، مبينا أولوية تعلم العقيدة الصحيحة، ثم الفقه والتصوف والحديث وعلوم اللغة.^(٢٣) وأما الحاج مالك، فقد احتوى برنامجه التعليمي على علوم: القرآن والتفسير والتوحيد والفقه وأصول الفقه والحديث والمنطق والنحو والبيان والعروض وعلم الفلك وغيرها.^(٢٤) وكان يرى أن المعرفة هي ما بنيت على الدليل لا على التقليد الأعمى، مشيرا إلى أن المعرفة حق طبيعي لكل إنسان، غنيا كان أو فقيرا.^(٢٥) وأما الشيخ حمي بابا، فقد كان البرنامج الدراسي في مجلسه، يحتوي على خمس مواد رئيسة، وهي: الإلهيات، والإسلاميات، واللغويات، والآداب، والعقليات. ولم يكن التلميذ يمضي إلى درس جديد عنده، إلا بعد هضمه للدرس السابق.^(٢٦)

٢- تهذيب الجوانب الروحية:

وقد شكلت المساجد والزوايا التي أنشئوها، معسكرا للإعداد الروحي، عن طريق التخلية والتحلية، وتعني التخلية: تطهير النفس من الرذائل والأخلاق السيئة، كالرياء والكبر والحقد، بينما تعني التحلية: تزيين النفس بالأخلاق الحميدة، والأعمال الصالحة كالصدق والتواضع والصبر. وقد احتوت معظم قصائدهم الدعوة إلى هذه القيم الروحية.^(٢٧) ويلاحظ أن الشيخ حمي بابا، قد زاوج بين التربية والتعليم، ولم يفرد التربية الروحية في مرحلة خاصة، كما هو سائد في أدبيات المرينين؛ حيث يلازمهم الأتباع بهدف الحصول على هذه التربية الروحية. ويحكي الأستاذ أبو بكر خالد با،^(٢٨) أن بعض الشباب أتوه يوما يريدون ملازمته، ليربهم تربية روحية صوفية فرفض الشيخ طلبهم قائلا: «عودوا إلى أهلكم فإنني معلم ولست شيئا آخر».^(٢٩) ولعل السبب في رفض الشيخ حمي لهذا الطلب، راجع إلى ما آل إليه الأمر في استغلال المرينين للأتباع في مصالحهم الشخصية، وقضاء الأتباع معظم سنيهم متعلقين بهذا الشيخ، وما أنتجه هذا الاستغلال من مظاهر البطالة والتواكل، وعدم الأخذ بأسباب النهوض الذاتية.

٣- تنشيط الجانب المادي بالعمل:

لقد أدرك هؤلاء أهمية تحصيل الموارد المالية اللازمة، لتنفيذ مشروعاتهم، فأعادوا تفعيل وتوظيف مثلث (المُقرَّاة والمُئذنة والمَزْرعة)، لخلق قاعدة اقتصادية قوية، تحررهم من ريقة التسول والاستجداء، وتمكّنهم من بسط نفوذهم ورؤيتهم على الحكومات المحلية والوفاة.^(٣٠) ويبرز هذا البعد العملي بصورة جلية عند الحركة المرينية؛ حيث دشّن مؤسسها مفهوم الخدمة، التي تعني العمل الدؤوب المنتج، ودعا إلى المزوجة بين العبادة والعمل.^(٣١) فيما حارب الحاج مالك في زمنه

ظاهرة «الأكل بالدين»، والتي يتم فيها استغلال الدين لخداع الناس، ونهب خيراتهم، حيث قال: «... من الأمراض التي لا طبيب لها، الأكل بالدين الذي عمّت به البلوى» ثم أفتى بحرمة هذا الصنيع.^(٣٢) وقد مثل الشيخ حمّي نموذجاً حياً للمستقل فكرياً واقتصادياً؛ حيث جمع بين التعليم والمهارة في طرق التجارة، ولم يكن ذلك معهوداً في فوتا، فلاقى الشيخ حمّي ردود أفعال من منتقديه، الذين كانوا يرون في عمله ترويجاً لبضاعة الأوروبيين... غير أن الشيخ تصدى لهم، واضطلع بدور العالم والعامل، مذكراً إياهم بشرف العمل، وضرورة الاقتداء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - الذي مارس التجارة والعمل.^(٣٣)

ثالثاً- توظيف التراث الشعبي

وهو ما أنتجت البيئّة السنغالية المحلية من فنون مظهرية، كالأزياء التقليدية، أو أدب شعبي كالحكم، والأسمار الليلية.

١- المقاومة بالزي التقليدي

يعتبر التمسك بالزي التقليدي، جزءاً من المقاومة الثقافية، للحفاظ على الهوية الوطنية في وجه محاولات طمسها، لذلك حرص رواد المقاومة على الدعوة إلى الحفاظ على اللباس التقليدي المنضبط، فانتشرت في أوساط المجتمع السنغالي أنواع من الألبسة المحلية، مثل:

- **الكفتان**: الذي أصبح من الملابس الوطنية التي يلبسها السنغاليون اليوم، من مسلمين ومسيحين وأصحاب ديانات أخرى.^(٣٤)

- **تُرك انجاريّم**: وهو لباس فضفاض، واسع فتحة اليدين، ويتدلى طوله إلى الركبة. وقد انتشر هذا اللباس خاصة في مناطق كجور و بول.

- **باي لات**: نسبة إلى عبد الأحد أمباكي [١٩١٤م-١٩٨٩م] وهو الخليفة الثالث للطريقة المريدية، وقد دشن هذا اللباس في حقبة بناء جامع طوبى، حاملاً فلسفة أن للسنغاليين مظاهر لباسية خاصة بهم، فلا يحتاجون إلى استيراد ما في يد الغرب من هذه الناحية، وهو لباس مثل تُرك انجاريّم، مع وجود حبل يشده بعضهم في الخصر، مؤدياً بذلك دور الحزام، الذي تربط به السراويل (البنطلونات) في هذه الأيام.

وقد أصبح ارتداء هذا اللباس يرمز إلى الحفاظ على الهوية الوطنية، ورفض كل مظاهر التغريب والاستعمار، وأصبحت شريحة كبيرة من المجتمع السنغالي تنظر إلى لابس أزياء الأوروبيين بازدراء، ونوع من الانسلاخ عن الهوية.

٢- الحكم الشعبية والأسمار الليلية وتأثيرها في المقاومة:

ويقصد بالحكم، الأقوال التي أفرزتها الذاكرة الجماعية السنغالية، مما تحمل دلالات قيّمة، وتتميز بأنها لم تدوّن؛ إذ لم تدخل الكتابة إلى السنغال إلا بعد انتشار الإسلام، فأغلب ما تمت كتابته كان باللغة العربية، أو باللغات المحلية بالحروف العربية.

وقد شكلت مناعة ضد الفكرة الاستعمارية، حيث أسهمت في تقوية اللحمة القومية والشعبية. أضف إلى ذلك المجالس الليلية، التي تعتبر من أهم مقومات الأدب الشعبي، وكان لا يزال حتى يومنا هذا، خصوصا في الأرياف، يتحلق الرجال والنساء والولدان حول ضوء النار، يوقدون المسامرة، وخلالها يستمعون إلى القاص، يحكي لهم أقاصيص وأساطير شيقة، تخب الأفتدة، وتستحوذ على مجامع القلوب.^(٣٥) وكانت هذه الأسمار بمثابة دورة تدريبية في تعزيز روح المقاومة: «ذلك أنها تمتاز بميزات، جعلت لها آثارا نفسية وتربوية بليغة ومحكمة وثابتة على مر الأزمان، مع ما تثيره من حرارة العاطفة، التي تدفع إلى تغيير السلوك وتجديد العزيمة».^(٣٦)

المحور الثالث - آثار ومآلات المقاومة الثقافية للاستعمار

كان للمقاومة الثقافية ضد الاستعمار، نتائج إيجابية، وآثار ملموسة على الصعيد الديني والثقافي والأخلاقي والإنساني والحركي.

أولا- الأثر الديني:

بفضل المقاومة، اتخذ الدين في السنغال منحى آخر متصاعدا؛ فأصبح المسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة، ويمارسون عباداتهم بكل حرية، ودون تضييق، ويحتفلون بالأعياد الإسلامية، كعيدي الفطر والأضحى، والمناسبات الدينية كالاحتفال بالمولد النبوي، ومغال طوبى.

ثانيا- الأثر الثقافي:

فقد تقلص نفوذ الاستعمار الثقافي من خلال المراكز التعليمية، التي انتشرت في طول البلاد وعرضها، فلم تستطع الإدارة الاستعمارية أن تقف تجاه الموجة العظيمة، التي مثلها افتتاح مدارس قرآنية وتعليمية تربوية، أسهمت في حفظ هوية الشعب وثقافته، والتصدي للحملات المشبوهة ضد الإسلام والمسلمين. كما كان لها كبير الأثر في تحصين عقول النشء من الاستلاب الحضاري والثقافي، الذي كان يريده المستعمر عبر برنامج التعليمي.^(٣٧)

ومن نتائج هذه المقاومة، انتشار اللغة العربية المرتبطة بالثقافة السنغالية ارتباطا وثيقا؛ فقد كانت لغة التخاطب قبل وأثناء الوجود الاستعماري، وبالرغم من المضايقات التي تعرضت لها هذه اللغة، فقد استطاعت الصمود. ومن جوانب التأثير اللغوي، أن هناك مفردات تستعمل في اللغة الوُلوْفِيَّة واللغة الفُولَانِيَّة في السنغال، هي مشتقة من اللغة العربية، مثل: حاجة وزمن وفائدة ومرتبة وأيام الأسبوع وغيرها، مع بعض التعديلات الطفيفة في النطق، حتى قال السيد يحيى وأن: ^(٣٨) «لقد غزت المفردات العربية المستعملة في الاتصالات الشخصية لغة التُّكُور، وإن كانت هذه اللغة قد غيّرت شكل تلك المفردات عند النطق بها، فإنها قد احتفظت بمعانيها الأصلية، أو أُلحقت بها تعديلا بسبب التحول اللغوي». ^(٣٩)

ثالثا - الأثر الإنساني:

أسهمت المقاومة في تكريس أبعاد الوجود الإنساني، وأن الإنسان السنغالي ينبغي أن يعيش حرا كريما، ومن هذا التكريس:

١- قيمة الحرية:

فبعد أن عاش الشعب السنغالي قرونا في ظلال الحرية والأمان، بفضل الحكم الإسلامي، جاء الاستعمار فسلبه ذلك عن طريق تجارة الرق، واستعباد الأفارقة وبيعهم في أسواق النخاسة. وتشير الإحصاءات إلى أنه خلال قرنين، أي ما بين القرنين: (١٥ و١٧)، وصل عدد الذين تم ترحيلهم لبيعهم في الخارج نحو ٨٠٠,٠٠٠ شخص. ^(٤٠) وهنا أدرك الشعب السنغالي، أن لا مناص من المقاومة ضد هذا الظلم، للحفاظ على حريته وكرامته، فنجح بعضه إلى حد بعيد، بينما سقط آخر في معركة استرداد الحرية. وهنا يحسن إبراز أصالة الحرية التي بثها الإسلام في نفوس السنغاليين. ففي رسالة الأمام عبد القادر كَانْ، إلى المفوض التجاري الفرنسي المقيم بمدينة سين لويس، بتاريخ ١ / مارس / ١٧٨٩م، ورد ما يأتي: «نحن نحذركم بأن كل الذين سيأتون إلينا، من أجل ممارسة تجارة البشر سيقتلون، وكذلك الحال إذا لم تعيدوا إلينا أبناءنا الذين في أيديكم ﴿أُيْحَبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. ^(٤١) نحن لا نريد إطلاقا أن تشتروا المسلمين، لا من قريب ولا من بعيد، ونكرر القول: إذا كانت أهدافكم دائما هي شراء المسلمين، فعليكم أن تمكثوا في بلادكم ولا ترجعوا إلى بلادنا». ^(٤٢)

٢- الحفاظ على الكرامة الإنسانية:

وهو مرتبط بالحرية؛ إذ لا كرامة للإنسان في ظل العبودية، حيث الإرادة مسلوبة. وإن الشعب المسلم الذي تشعب بمنطق الكرامة بحكم دينه، الذي أعلن أن للكرامة الإنسانية اعتبارها، ليرفض أي نوع

من الخنوع للبشر، لذلك وقفوا ضد الغطرسة والتَّفُوقِيَّة الواهية، التي دشنها المنطق الغربي،^(٤٣) وبيان أن لون الجسد ليس المعيار الذي يحدد الأفضلية، وأن السواد لا يعني إطلاقا السفاهة،^(٤٤) كما أن هذا اللون لم يكن قط موجبا للهلاك والخسران.^(٤٥) فالنظرة الدونية للسود، نظرة قاصرة ومتمزمتة، وجاهلة بحقائق التاريخ، الذي برهن على أنهم أصحاب حضارات متجذرة، وقادوا ممالك عريقة في إفريقيا.

وأخيرا فإنَّ المقاومة الثقافية ضد الاستعمار، أسهمت في الحفاظ على الهوية الوطنية، والتمسك بالتراث واللغة والفنون، وأحدثت تطلعات إلى الاستقلال والتنمية والإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

الهوامش والإحالات

- (١) جزيرة عُوري (جزيرة الذاكرة كما تسميها منظمة الأمم المتحدة)، تقع في دكار، وقد اتخذها الاستعمار محطة لاستعباد الأفارقة، وشحنهم في السفن لبيعهم في أسواق النخاسة.
- (٢) محمد فاضل باري، وسعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، (لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م)، ٢٤٣-٢٤٢.
- (٣) صفى الدين محمد، إفريقيا بين الدول الأوربية، (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٥٩م)، ٨٥.
- (٤) محمد فاضل باري، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، ٢٤٣.
- (٥) عبد القادر سيللا، المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل، (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٩٨٦م)، ٨٤-٨٥.
- (٦) سيدي غالي لوح، «التصير في إفريقيا السنغال نموذجا»، مجلة البيان، القاهرة، العدد ١٥٤، سبتمبر ٢٠٠٠م، ٨١-٨٣.
- (٧) عبد القادر سيللا، المسلمون في السنغال، ٨٦-٨٧.
- (٨) محمد مصطفى سي، «تاريخ التعليم العربي الإسلامي وتطوره من دخول الإسلام في السنغال إلى عصر الاستقلال»، مذكرة، دكار، ١٩٩١م، ٣.
- (٩) محمد بامبا انجاي، أضواء على السنغال، (القاهرة: دار النشر والطباعة الإسلامية، ١٩٩١م)، ١٥. عبد الكريم سار، التاريخ السياسي للإسلام في السنغال، (دكار: معهد الوحدة للدراسات الإسلامية، ٢٠١٥م)، ٩٨.
- (١٠) محمد جوف بن تفسير البرني، أعلام الهدى بغرب إفريقيا، (السنغال، ١٩٩٩م)، ٥٤. وعمر صالح با، الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، (جدة: دار المنهاج، ٢٠١٥م)، ١٩١.
- (١١) أحمد مختار كان، مفتاح الثقافة في تاريخ فولبي ومشاهير فوتا، (السنغال: المطبعة السنغالية)، ٩٦-٢٠١، ومحمد سعيد باه، دولة الأئمة في فوتا تورو، تجربة إسلامية على ضفاف نهر السنغال، (القاهرة: دار الاتحاد للطباعة، ٢٠١٠م)، ٨٢-٨٣.
- (١٢) سرين امباكي محمد لوح، على آثار القوم، (دكار: منشورات تمبكتو، ٢٠٢٠م)، ٦٦.
- (١٣) محمد البشر امباكي، من الباقي الخديم في سيرة الشيخ الخديم، تحقيق: محمد شقرون، (القاهرة: دار المقطم، ٢٠١٧م)، ١٣٠.
- (١٤) محمد الأمين جوب الدغاني، إرواء النديم من عذب حب الخديم، (القاهرة: مؤسسة الأجر الاسلامي، ٢٠١٣م)، ٧٣.
- (١٥) عثمان انجاي، السيرة الذاتية للشيخ الحاج مالك سي، (القاهرة: دار المقطم للنشر والتوزيع، ٢٠١١م)، ١٥.
- (١٦) الحاج عبد العزيز سه، أوضح المسالك في التعريف بالشيخ الحاج مالك سه، ٥٢-٥٣، ٩٦.
- (١٧) عمر صالح با، الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، ٣٢٠-٣٣٩.
- (١٨) أبو بكر خالد باه، من قادة الحركة العلمية في السنغال «أحمد التجاني باه»، تحقيق: محمد السعيد با، ٣٨.
- (١٩) محمد مصطفى آن، الإسلام والثقافة في الجمهورية السنغالية، (السنغال: الدار السنغالية، ١٩٧٨م)، ١٩.
- (٢٠) مطلب الفوزين: (مخطوط غير مرقم).
- (٢١) شيخ صمب، أثر التعليم الإسلامي والعلماني في الإنسان السنغالي، (دكار: مطبعة نياروال للخدمات المتعددة، ٢٠١٤م)، ٢١.
- (٢٢) عمر صالح باه، الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، ٣٢٩.
- (٢٣) أبو المحامد أحمد مبم امباكي، ديوان العلوم الدينية، (الرباط: دار الأمان للنشر والتوزيع، ٢٠١٩م)، ٥١٢، ٥٣٧-٥٣٨.
- (٢٤) عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٨م)، ١٢٥-١٢٦.
- (٢٥) مالك سه، قنطرة المريد، دائرة الأضيءاء، ١١-١٢.
- (٢٦) عمر صالح باه، الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، ٣٦١-٣٦٢.

<https://tinyurl.com/48u76xpf>

(٢٧) أبو المحامد أحمد بمب امباكي، ديوان العلوم الدينية، ٥٣٠ - ٥٣١، وديوان الشيخ الحاج مالك سه، الناسخ: أبوبكر امبي، (دكار، ٢٠٠٦م)، ٢٩٧-٢٩٨.

(٢٨) ولد سنة ١٩٣٠م في موريتانيا، ويعد واحدا من أكابر المؤرخين الثقات لمنطقة حوض نهر السنغال من الناحية الحضارية والثقافية. وقد ألف عدة كتب تاريخية، ونشر بحوثا قيمة، ومقالات رفيعة. ينظر: أحمد التجاني باه، من قادة الحركة العلمية في السنغال، ٩٠-٩١، وأحمد مختار كان، مفتاح الثقافة في تاريخ فولبي ومشاهير فُوتا، ٣٨٠-٣٨١.

(٢٩) عمر صالح با، الثقافة، العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، ٣٦١.

(٣٠) أحمد مختار لوح، «معالم الإصلاح والتجديد لدى فقهاء السودان الغربي»، (رسالة دكتوراه، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ٢٠٢١م)، ٤٥٠.

(٣١) زائ نوي التعلم لربهم وراحة المعلم، ديوان العلوم الدينية، ٤٦٠.

(٣٢) الحاج مالك سه، كفاية الراغبين فيما يهدي إلى حضرة رب العالمين، تحقيق: الحاج عبد المينغ، (شركة بحر العلوم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م)، ٢٨٤.

(٣٣) عمر صالح با، الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، ٣٤٨-٣٤٩.

(٣٤) محمد مصطفى جوب، «الإسلام في مواجهة الغزو الثقافي الفرنسي في إفريقيا الغربية»، بحث غير منشور، ١٠٠.

(٣٥) عبد القادر سيلبا، المسلمون في السنغال، ٩.

(٣٦) محمد عبد الله عبده دبور، «أسس بناء القصة في القرآن الكريم، دراسة أدبية ونقدية»، (رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، مصر، ١٩٩٦م)، ٢٤.

(٣٧) عبد القادر سيلبا، منعطفات الصحوة الإسلامية في الساحل، (القاهرة: مكتب الدعوة والدراسات والبحوث الإسلامية، ٢٠٠٠م)، ٨٦.

(٣٨) باحث وأستاذ جامعي في السنغال.

(39) Yaya Wane, Les Toucouleurs du Fouta Tooro, (Dakar: IFAN, 1969), 184.

(٤٠) عبد الكريم سار، التاريخ السياسي للإسلام في السنغال، ٦١-٦٦.

(٤١) (الحجرات: ١٢).

(٤٢) محمد سعيد باه، دولة الأئمة في فُوتا تُوُرو، ١٠٣-١٠٤.

(٤٣) محمد غلاي انجاي، شيخ أحمد بامبا سبيل السلام، (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠١١م)، ٢٢٥.

(٤٤) مسالك الجنان في جمع ما فرقه الديرمانى: (ديوان العلوم الدينية، ٢٩٩).

(٤٥) مسالك الجنان في خدمة المطهر الجنان: (ديوان العلوم الدينية، ٤٠٢).

ترجمات معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا: عرض وتحليل

د. مطهر يوسف بن ناصر، باحث متخصص في الشؤون النيجيرية، كنو.

إن هذا البحث الموسوم بـ (ترجمات معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا.. وصف وتحليل) يدرس -كما يبدو في عنوانه- نشأة وتطور الترجمة اليورباوية لمعاني القرآن الكريم، كما يتناول الحديث عن الترجمات اليورباوية، وتصنيفها، ومناهجها، ومآخذها. والمنهج العام المرسوم للبحث، هو المنهج الوصفي التحليلي، غير أن البحث اضطر للاستعانة بمناهج أخرى، مثل: المنهج التاريخي، والإحصائي، والتقابلي، أثناء السرد التاريخي للترجمات اليورباوية المكتوبة.

يتحدد البحث بأنه يتناول الحديث عن ترجمات معاني القرآن الكريم، التي قام بها أبناء يوربا إلى لغتهم، بداية من صدور أول ترجمة عام ١٩٢٤م، إلى تاريخ صدور آخر ترجمة من هذا القبيل، عام ٢٠٢٢م. وسنتناول الموضوع بالتفصيل، ومن خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول- اليوربا: قبيلة ولغة

اليوربا مصطلح يطلق سواء على لغة اليوربا، أو على القبيلة التي تتكلم بها، غير أن المصطلح يتحدد معناه وفق ما يضاف إليه، فيقال: قبيلة يوربا، أو لغة يوربا، فمن هم هؤلاء القبيلة؟ وما هذه اللغة؟

أولاً- قبيلة اليوربا

هم مجموعة إثنية عريقة، من المجموعات الإثنية الموجودة في إفريقيا جنوب الصحراء، وتحتل بلاد يوربا منتصف الخط السادس، وتمتد إلى الخط العاشر، أي في أقصى القسم الشمالي من المنطقة الاستوائية، وتقدر مساحتها بنحو سبعين ألف ميل مربع، وقد كانت البلاد كتلة واحدة قبل قدوم الاستعمار الغربي، قبل أن تتقاسمها بريطانيا وفرنسا بينهما عام ١٨٩٨م، فوقع جزء كبير منها في نيجيريا البريطانية، وجزؤها الآخر في بنين وتوغو الفرنسيين، كما توجد أقلية يورباوية في كل من سيراليون (إفريقيا الغربية)، والبرازيل وكوبا (أمريكا اللاتينية).^(١)

وكانت اليوربا كغيرها من القبائل الإفريقية جنوب الصحراء من الزواج، سمر البشرات، ويتميزون بأنهم فطس الأنوف، ولقد عرفوا منذ القرن السادس عشر الميلادي، حين اكتشف بلادهم البرتغاليون، ومنذ القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، بدأ المؤرخون يكتبون عنهم، وعن بلادهم وحضاراتهم. وفي عام ١٦٦٧م كتب محمد بن مسني الكشناوي كتابه عن بلاد يوربا وسماه (أزهار الربا في أخبار بلاد يوربا)، غير أن عاتيات الدهر لم تبق على الكتاب. كما ذكرهم السلطان محمد بللو، نجل الشيخ عثمان بن فودي في كتابه (إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور) الصادر عام ١٨٢١م، وكتب عنهم الأسقف النصراني صمويل جونسن عام ١٨٩٧م، في كتابه (تاريخ يوربا)، وكان بهذا أول يورباوي كتب عن يوربا بالإنجليزية.^(٢) ولا شك أن وجود أكثر من كتاب يذكر شيئاً ولو قليلاً، من أخبار قبيلة يوربا منذ أربعة قرون مضت، «دليل قاطع على الاعتراف بكيان هذه القبيلة، ووضعها السياسي والاجتماعي».^(٣)

ويؤكد على وضعها السياسي والاجتماعي، قيام ممالك كبرى عديدة تنسب إليهم، ومنها: مملكة إلفي ما بين القرنين الحادي عشر والسابع عشر الميلاديين، ومملكة أويو ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر الميلاديين، وكذلك المملكة اليورباوية القائمة بدهومي (جمهورية بنين الحالية)، ما بين القرن الثالث عشر ومنتصف القرن التاسع عشر الميلاديين.^(٤)

اشتهرت في بلاد يوربا أساطير عديدة، كانت تُحكى في أصل قبائل يوربا، منها ما ذكر صمويل جونسن، أن الموطن الأصلي لقبائل يوربا، هو مدينة إلفي (متسع الأرض)، وأن جدهم الأعلى هو رجل يسمى أودودوا (العظيم الخالق)، ابن أودوماري (الخالق المبدع)، وزوجته ماريمي (تحريف مريم)، هبط من السماء بقبضة من التراب إلى الأرض، التي رأى معظمها محاطا بالماء، فتجمدت، وأمرها أن تتسع...^(٥) وإذا أقصينا هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير، لأنها مزيج من الروايات الشفوية، التي لم تستند إلى أساس علمي صحيح، إذا أقصيناها، فسوف تبقى أمامنا روايتان اثنتان: الأولى، هي أن قبائل يوربا، تنتمي إلى أصل عربي، والأخرى، أن يوربا تعود إلى أصول إفريقية من مالي القديمة.

أما الأولى التي تقول: إنَّ أصل قبائل يوربا عربي، فهي قول السلطان محمد بللو، بأن يوربا «من بقايا بني كنعان، الذين هم عشيرة نمرود، طردهم يعرب بن قحطان من العراق إلى المغرب، فسلكوا بين مصر والحبشة حتى وصلوا أرض يربا».^(٦) وقد انتقد هذا القول انتقاداً شديداً، وعُدَّ من آثار الرواية الشفوية التي لم تغربل، ولم تبن على أساس تاريخي ثابت، وتساءل الشيخ الإلوري - وهو يستنكر القول - وقال: «هل كان يعرب بن قحطان فاتحاً للعراق، حتى يكون طارداً قوماً من بقايا ملوكها؟ مع أن يعرب قد عاش في القرن العشرين قبل الميلاد... ولم يذكر التاريخ أن له فتوحات في بلاد فارس، ولا في أرض بابل، أو في بلاد العراق».^(٧) ثم واصل استنكاره لقول السلطان محمد بللو في تساؤلات متتاليات: «كيف يمكن ليعرب أن

يطرد يوربا إلى أرض يوربا؟ فمن الطارد ومن المطرود؟ أليست كلمة يوربا تحريفا ليعرب؟ فكيف تمسكت قبيلة يوربا باسم يعرب الذي طردهم من بلادهم؟^(٨) فتمكن الإلوري من خلال التساؤلات المتتاليات، من الوصول إلى أن الصحيح عنده، هو «أن يقال إنهم من بقايا بني يعرب بن قحطان، الذين نزحوا من اليمن، وانحدروا من موجات الهجرة الثانية بقيادة إفريقيش الحميري... ولا يخفى أن كلمة يوربا محرفة من يعرب، بقدر التحريفات التي تدخل الكلمات العربية، عند اختلاطها بلغة العجم في ديار الغربية، وفي ميدان تصارع اللغات، وتنازعها على البقاء كسائر الكائنات الحية»،^(٩) واستدل على ذلك بما زعم من التناغم العرفي والعقدي والثقافي واللغوي، بين قبيلة يوربا والعرب.

وأما الرواية الثانية، التي تنادي بالأصول الإفريقية لقبيلة يوربا، فقد أثبت أصحابها، أن الموطن الأصلي لقبائل يوربا هي أرض (كوكو) في مالي القديمة، مستندين إلى ما ذكر ابن فضل الله العمري في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، أن سكان مدينة كوكو هم قبائل يربا، وكانوا سودا غاية السواد، نزحوا منها إلى مقاطعة أكوكو النيجيرية وعاصمتها عووو.^(١٠)

ويقدر دخول الإسلام بلاد يوربا بالقرن الثالث عشر الميلادي، حيث إن أهل مدينة عويولي (وهي من أقدم المدن اليورباوية) قد عرفوا الإسلام منذ عهد المنسا موسى، سلطان مالي الشهير، وخير دليل على ذلك، كون الإسلام يدعى عند قبيلة يوربا حتى اليوم، دين مالي، أي (الدين الوافد من مالي).^(١١)

ثانيا- لغة اليوربا:

هي التي يتكلم بها قبائل يوربا، ويقطن معظمهم في الأقاليم الخمسة الواقعة في الجنوب الغربي من نيجيريا، وهي: لاغوس، وأويو، وأوغن، وأوندو، وإيكيوتي، ويسكنون كذلك في جزء من أقاليم الشمال الأوسط في نيجيريا، مثل: كوارا، وكوفي، وغيرهما. كما توجد مجموعة كبيرة منهم في جمهورية بنين، وتوغو، وغانا، وسيراليون، وغيرها من دول إفريقيا جنوب الصحراء. وتستخدم لغة اليوربا محرفة في الطقوس الدينية في البرازيل وكوبا، حيث تعرف في البرازيل بـ (أكُو AKU)، وتسمى في كوبا، (ناغُو NAGO).^(١٢)

وتعتبر لغة اليوربا ثاني أشهر لغة محلية في نيجيريا بعد الهوسا، وتحتل المركز الثالث في تصنيف أشهر اللغات الإفريقية المحلية، بعد السواحلية في شرق وجنوب إفريقيا، والهوسا في إفريقيا الغربية. ويقدر عدد الناطقين بها، كلغة أولى أو لغة ثانية في نيجيريا وحدها، بـ ٥٤ مليون نسمة، وفي العالم جميعا بنحو ٦٠ مليون نسمة تقريبا.^(١٣)

كما تشكل لغة اليوربا جزءا من فرع فولتا- نيجر لعائلة لغات النيجر- الكونغو التي تجمع أكثر من ألف لغة، مع حوالي مائتي مليون ناطق، وتتميز بأنها لغة نغمية، تتبع في تركيب الجمل طريقة (فاعل+فعل+مفعول)،^(١٤)

وبأن لها أكثر من عشرين لهجة، أكثرها فصاحة وانسجاما وتلاحما لهجتا عويو ولاغوس.^(١٥)

– **بين لغة اليوروبا والعربية:** يكون من المناسبة بمكان – في مستهل هذا البحث الذي يتناول بالدراسة الترجمة اليورباوية لمعاني القرآن – إجراء مقارنة بسيطة بين لغة اليوروبا واللغة العربية، للوقوف عن كثر على مدى التقارب أو التباعد بينهما.

إن قبيلة يوربا كانوا مولعين بالعربية، منذ أول اعتناقهم الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي، وكان من مظاهر ولعهم بها، أنهم كانوا يستخدمون حروفها لكتابة لغتهم، واخترعوا من أجل تسهيل ذلك ما يسمون بالعجمي، وهو استخدام الحروف العربية في كتابة اليوروبا، وذلك قبل قرون من اختراع أجاي كرودا الحروف اللاتينية لكتابة اليوروبا عام ١٨٥٢م، وفرض الاستعمار استخدامها، بدل الحروف العربية.^(١٦)

إن اختراع قبيلة اليوروبا العجمي، لا يشير بالضرورة إلى التقارب بين اليوروبا والعربية، بل إننا لما أجرينا المقارنة الدقيقة بينهما، أدركنا أن بينهما تباعدا بيّنا، يتبين في كثير من المظاهر اللغوية، نتيجة تباين عائلتهما اللغوية، ويقصد بالعائلة اللغوية في علم اللغة: «تلك اللغات المرتبطة عضويا ببعضها، والتي تعود إلى أصل لغوي مشترك، أو ربما واحد، ثم افترقت، وتطورت منفردة بدوافع زمانية ومكانية، وما زالت تشترك بالكثير من التشابه في الأشكال التصريفية والصوتية والنحوية»؛^(١٧) فلغة اليوروبا – كما أشرنا – تنتمي إلى جزء من فرع فولتا – النيجر لعائلة لغات النيجر – الكونغو، وهي لغة نغمية، تتغير معاني كلماتها عندما يتم نقل النغمات من مقطع لآخر، ونغماتها ثلاث: الهابطة، ويرمز لها موسيقيا بـ (DO)، وكتابة بـ (˘) مثل الألف الصغيرة المائلة نحو اليسار، والمتوسطة، ويرمز لها موسيقيا بـ (RE)، ولا يوجد لها رمز في الكتابة، والصاعدة، ويرمز لها موسيقيا بـ (MI)، وكتابة بـ (ˊ)، وتكتب النغمات الثلاث مجتمعة هكذا (MI) (RE) (DO).^(١٨)

فأما العربية، فإنها تنتمي إلى العائلة السامية الجنوبية، وهي تعتبر من أكثر لغات العالم ثراء من حيث مفرداتها، ومترادفاتها، وروافدها، وطرائقها التي تسمح لها بالتوليد، والإضافات مثل: القياس، والاشتقاق، والنحت، والتعريب وغيرها.^(١٩)

المبحث الثاني- الترجمة اليورباوية لمعاني القرآن: نشأة وتطورا

كان لعلماء يوربا اهتمام كبير بالإسلام، منذ دخوله بلادهم في القرن الثالث عشر الميلادي، وكان الكثير منهم – وما زالوا – يبذلون جهدا كبيرا في خدمة القرآن الكريم؛ فقد تعلموه، وحفظوه، وعلموه، وحفظوه، وترجموا معانيه إلى لغتهم، وأما ترجمتهم لمعاني القرآن، فقد سلكوا في إنجازها ثلاثة طرق، وهي:

أولاً- الترجمة الشفهية

كان مقررا في المجتمع اليورباوي، سواء في الكتابات القديمة، أو في المدارس العربية الحديثة، أن الطفل إذا أتقن القرآن قراءة وتلاوة، ينتقل إلى مرحلة تلقي معاني القرآن بلغته المحلية، إلى جانب بعض كتب في الفقه والحديث والتوحيد، وغيرها من المواد الإسلامية.

وفي خارج المدارس، دأب عامة الناس أن يتجمعوا في حلقات الوعظ في المساجد، أو في الأماكن العامة، للاستماع إلى تفسير معاني القرآن الكريم من فم الإمام، أو من عُيِّن في منصب (المفسر)، وهو المنصب الذي لم يقل أهمية عن منصب الإمام، وتبلغ الترجمة الشفهية ذروتها في شهر رمضان، حيث تنتشر في كل مسجد وحيّ تقريبا، حلقات التفسير والوعظ، طوال أيام الشهر، وعلى فترتين: الأولى من بعد صلاة العصر حتى قبيل وقت الإفطار، والثانية من بعد أداء صلاة التراويح حتى ما منتصف الليل،^(٢٠) ويؤكد ذلك الإلوري في قوله: «فكل إمام بين جماعته، ولكل عالم بين تلاميذه، نشاط ملموس من هذا الوعظ والإرشاد، خصوصا في أيام رمضان ولياليه، حيث يترجم بعضهم القرآن، ويفسر بعضهم الحديث في الأيام والليالي».^(٢١) وكان الأئمة والمفسرون، يستعينون في تفسيرهم بكتب التفاسير المشهورة، وكانوا يميلون كثيرا إلى تفسير الجلالين للإمامين: جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، وإذا أكملوا خمسة أحزاب مثلا في سنة، فإنهم يستأنفون من حيث توقفوا في السنة التالية، وهكذا حتى يكملوا تفسير جميع أحزاب القرآن، وإذا أكملوها، فإنهم يبدوون من سورة الفاتحة من جديد، وكانوا بالإضافة إلى ذلك، يستعينون في تفسير معاني القرآن بالأشعار الأعجمية، في نغمة يتذوقها الناس، ويتأثرون بها، ولا ينسونها أبدا، ويسمونها (واكا) في لغتي اليوربا والهوسا.^(٢٢)

إن هذه الترجمات الشفهية لمعاني القرآن الكريم إلى اليوربا، وإن انتقدت، لأنها كانت لا ترقى في كثير من الأحيان إلى مستوى الترجمة المكتوبة، من حيث الدقة وحسن الصياغة، شأنها في ذلك شأن كل ترجمة شفهية، مقارنة بالترجمة المكتوبة،^(٢٣) إلا أنّ لها دورا كبيرا في تقريب بعض معاني القرآن إلى أذهان عامة الناس، وللأميين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، كما أنها اللبنة الأولى التي انطلقت منها الترجمات المكتوبة.

ثانيا- الترجمات المكتوبة

إن الترجمة المكتوبة لمعاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا، تأخرت نسبيا، بسبب قلة حاجة الناس إليها، في ظل انتشار الترجمة الشفهية في المجتمع اليورباوي القديم، ويضاف إلى هذا السبب أسباب أخرى، أخرت حركة الترجمة المكتوبة، ومنها:

أ- عزوف قدامى مسلمي يوربا عن الكتابة بالحروف اللاتينية، أو قراءة ما يكتب بها، توهما أن تلك الحروف، تمثل الطقوس النصرانية.^(٢٤)

ب- إن مؤسسات التعليم الاستعمارية والتنصيرية، نجحت -حينذاك - في تنفير الطبقة المثقفة بين الناطقين باليوربا، عن الاهتمام بلغتهم، وصرف كل اهتمامهم إلى لغة المستعمر، وما زال أثر ذلك باقيا حتى اليوم؛ حيث لا يشتهي الكثير من هذه الطبقة كتابة أو قراءة أي شيء بلغتهم اليوربا، إن كان الشيء نفسه موجودا بالإنجليزية.^(٢٥)

فيعود تاريخ أول ترجمة يورباوية مكتوبة لمعاني القرآن، إلى مطلع القرن العشرين الميلادي، وبالتحديد عام ١٩٢٤ م. والمفارقة الغريبة، أنه قام بإعدادها قس نصراني يدعى: م. س. كول (Rev. M.S. Cole)، وتولّى نشرها وتوزيعها مكتبة الجمعية التنصيرية الكنسية (CMS) Church Missionary Society بمدينة لاغوس.^(٢٦) ثم جاء بعده مباشرة قس نصراني آخر، اسمه إ. كي أكنلادي (Rev. E.K. Akinlade)، وقام بترجمة أخرى لمعاني القرآن إلى لغة اليوربا عام ١٩٦٥ م، طبعت بمطبعة ككستون لغرب إفريقيا بمدينة إبادن (Caxton Brotherhood Publication)، ثم تولى نشرها الإخوان النقباء بمدينة لاغوس (Press West Africa Ltd Ibadan Syndicate)^(٢٧)، والسؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي دفع القسين النصرانيين إلى القيام بأقدم الترجمات العالمية، والهدف الأول والأخير منه تحريف كتاب الله تعالى، ومن ثمّ توظيف ذلك في تحويل المسلمين عن دينهم،^(٢٨) وصدق الله العظيم في قوله ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾.^(٢٩)

ويتبين هذا الدافع التنصيري العالمي، بما وجدنا في الغرب، حيث إن أقدم ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأوربية - في الغالب - من عمل غير المسلمين، فإن أقدم ترجمة لاتينية لمعاني القرآن الكريم قد أعدت لتلبية لطلب رئيس دير مدينة كلوني Cluny الفرنسية بين عامي (١١٤١ - ١١٤٣ م)، ونُشرت في مدينة بال السويسرية عام ١٥٤٣ م، وكانت المصدر الذي نُقل منها لاحقا كل من الترجمات: الإيطالية عام (١٥٤٧ م)، والألمانية، والهولندية عام (١٦٤١ م).^(٣٠)

فلما استشرف المسلمون الخطر التنصيري المحقق بهم، قاموا فرادى وجماعات بتدوين تلك الترجمات الشفهية المنتشرة لمعاني القرآن، وطبعها في كتب، فصدرت لهم أول ترجمة مطبوعة عام (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م). ثم تتابعت بعدها ترجمات أخرى لمعاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا، كان آخرها حسب علمي ترجمة يورباوية، قام بها أبو رحيمة مكائيل أيكوييني عام (١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م).

وسأسرد خلال الأسطر اللاحقة هذه الترجمات، سردا إحصائيا وتاريخيا ووصفيا موجزا، وفق التصنيف الآتي:

أ- **ترجمات المسيحيين:**

١- ترجمة القس النصراني م. س. كول (Rev. M.S. Cole)، وعنوانها: (AL-Qur'an Ni Ede Yoruba)، أي: (القرآن بلغة اليوربا)، عام ١٩٢٤م، وهي في ٤١١ صفحة، طبعتها ونشرتها مكتبة الجمعية التنصيرية الكنسية (CMS) Church Missionary Society بمدينة لاغوس، ووزعتها مجاناً على الناس، وقد خلت الترجمة من النص العربي، ولعل هذا ما جعلها غير مرحب بها في المجتمع اليورباوي المسلم، ولم يتم تداولها في أوساطهم، واقتصر وجودها في رفوف المكتبات الوطنية الكبيرة، التي تحتفظ بالتراث اليورباوي.^(٣١)

ولقد انتقدت الترجمة انتقاداً شديداً؛ وذلك بسبب المغالطات التي وقع فيها صاحبها، بسبب اعتماده كلياً على الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن في الغرب، تضاف إلى ذلك الدسائس العقدية، التي أعدت الترجمة من أجل بثها في عقلية مسلمي يوربا، وسيأتي ذكر بعضها لاحقاً.

٢- ترجمة القس النصراني إ.كي أكنلادي (Rev. E.K. Akinlade)، وعنوانها (Itumo Al-Kuran le'de Yoruba)، أي: (معنى القرآن بلغة اليوربا)، عام ١٩٦٥م.

واسمه بالكامل أيليجا كولا أكنلادي المولود عام ١٩٢٤م، بمدينة أبيتورو الواقعة في إقليم أوغن، جنوب غربي نيجيريا من أسرة نصرانية، وكان أديبا كاتباً في الأدبين: الإنجليزي واليورباوي، وله فيهما كتب وروايات، وتم تعيينه رئيساً لجمعية كتاب المسرحيات باليوربا عام ١٩٩٤م،^(٣٢) وتحتوي الترجمة على ٤٦٧ صفحة من الحجم المتوسط.^(٣٣)

وتبدو الترجمة في محتواها، كأنها نسخة منقحة لترجمة كول السابقة، وإن كان أكنلادي ينفي اطلاعه على ترجمة كول ضمناً، حين ذكر أن دافعه إلى عمل الترجمة، هو الرغبة في سد الفراغ، الذي تركه عدم وجود ترجمة كاملة للقرآن بلغة اليوربا.^(٣٤)

وكان ترجمة أكنلادي كسابقتها، خالية من النص العربي للقرآن، وذلك بسبب جهله بالعربية، واعتماده الكلي على الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن، وترجمات الإنجيل من الإنجليزية إلى لغة اليوربا، ويظهر أثر جهله بالعربية، في حذف بعض آيات القرآن خطأً، في مثل الآية الأولى من سورة البقرة (الم) فبدأ بترجمة الآية الثانية بدلا من الأولى، كما أدمج الآية ٢٦ في الآية ٢٧ من سورة يوسف في قوله تعالى^(٣٥) ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.^(٣٦)

وأخذت على الترجمة مأخذ أخرى من الجانب الشرعي والعقدي، وسوف نمر ببعضها في المبحث الثالث من هذا البحث.

ب- ترجمات المسلمين

سوف نتناول الحديث عن ترجمات المسلمين في صنفين اثنين، الصنف الأول: الترجمات الجماعية، والصنف الثاني: الترجمات الفردية.

الصنف الأول- الترجمات الجماعية

١- (Al-Kurani Ti A Tumo si Ede Yoruba)، أي: (القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى لغة اليوربا)، وهي التي سبقت الإشارة إلى صدورها عام ١٩٧٣م، وقد طبعت في طبعتها الأولى (ومعها نصوص القرآن الكريم بالعربية) بدار العربية ببيروت- لبنان، على نفقة الملك السعودي الأسبق فيصل بن عبد العزيز آل سعود، ثم طبعت في طبعتها الثانية عام ١٩٧٧م على نفقة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود (رحمهما الله)، ثم طبعت نسخ أخرى منها كانت على نفقة بعض المحسنين، وكلها تحت إشراف مباشر من رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وتقع الترجمة في ٥٦٨ صفحة من الحجم الكبير.^(٣٧)

واستغرق العمل على إعداد هذه الترجمة نحو أحد عشر عاما (١٣٨٢-١٣٩٣هـ)، بداية من اقتراح تقدّم به رئيس وزراء منطقة شمال نيجيريا الأسبق، الحاج أحمد بللو (رحمه الله تعالى)، إلى رابطة العالم الإسلامي، (وكان عضواً في مجلسها التأسيسي)، فقامت على إثره لجنة، كوّنّها مجلس مسلمي نيجيريا، وضمت في عضويتها كلا من: الإمام محمد الأول أوغوستو، والسيد أحمد التيجاني أكنني، والحاج حسن يوشع دندي، وهي التي باشرت العمل بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اليوربا، بإشراف مباشر من الحاج أحمد بللو، والأستاذ كامل الشريف، وكلاهما من أعضاء المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.

وبعد أن أكملت لجنة وضع الترجمة عملها، أُسند أمر مطابقة تجارب الطباعة لنصوص القرآن الكريم إلى لجنة أخرى، تكوّنت من بعض الطلبة اليورباويين الدارسين آنذاك في الجامعات الإسلامية والعربية؛ ثلاثة منهم من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهم: الدكتور خضر مصطفى، والدكتور عيسى أدبي بللو، والشيخ عبد الوهاب سنوسي، والرابع من جامعة الأزهر بالقاهرة، وهو: الشيخ عبد اللطيف أحمد أديكليكن.

وبعد ذلك، تولّت لجنة أخرى مكوّنة من كبار علماء بلاد اليوربا، مراجعة الترجمة وتصحيحها. وقد ضمت هذه اللجنة في عضويتها كلا من: فضيلة الشيخ كمال الدين الأدبي، وفضيلة الشيخ برهان الدين سنوسي ألكا، وفضيلة الشيخ آدم عبد الله الإلوري، وفضيلة الشيخ عبد الرحمن صلاح الدين الأدبي، والأستاذ محمد راجي سليمان الإمام، والبروفيسور موسى علي يحيى أجيتمابي (رحمهم الله).^(٣٨)

٢- (Al-Qur'an Alaponle Pelu Itumo Re ni Ede Yoruba)، أي: (القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى

لغة اليوربا).

بعد نفاذ جميع النسخ المطبوعة للترجمة السابقة، التي أشرفت عليها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في طبعتها المتعاقبة، ومع تنامي حاجة المسلمين الناطقين باليوربا في العالم إلى مزيد من نسخ هذه الترجمة، التي لاقت إقبالا شديدا لدى جميع الفئات، بما فيها الطبقة المثقفة، رأى مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، إعادة طباعة هذه الترجمة، لتضاف إلى غيرها من ترجمات معاني القرآن إلى لغات العالم، التي سبق أن قام هذا المجمع بإخراجها إخراجا علميا وفنيا رائعا، فقرّر المجمع إخضاع تلك الترجمة لمراجعة علمية جديدة، وذلك لاستدراك النواقص التي لا يسلم منها أي عمل بشري، واختار لإنجاز المهمة عام ١٤١٥هـ طالبين، ينتميان إلى الإثنية اليورباوية، من طلبة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهما: الشيخ إبراهيم عبد الباقي محمد من قسم الفقه، رحمه الله، والبروفيسور عبد الرزاق عبد المجيد ألو من قسم العقيدة، (ويعمل حاليا محاضرا بجامعة إلورن، كوارا - نيجيريا)، وبعد إنجاز مهمة المراجعة التي استغرقت أكثر من عام، ورفع تقرير مفصل بشأن الترجمة إلى المجمع، اتُخذ قرار بإعادة طباعتها، مع الأخذ بالملاحظات الواردة في التقرير، وأخذ على ذلك موافقة خطية من كبار علماء بلاد اليوربا الأحياء آنذاك، ومن ثم صدرت الطبعة الأولى من الترجمة - ومعها كذلك نصوص القرآن الكريم- عام (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م)، وتقع في ٩٠٩ صفحات من الحجم المتوسط، ويتراوح عدد أسطر كل صفحة بين ٣٠ و ٣٣ سطرا، ومقاسها (١٤ X ٢١) سم.^(٣٩)

وقد قام مرتضي أينلا بدراسة نقدية قيمة، بيّن فيها ملاحظاته على الترجمة؛ تلبية لمجمع الملك فهد المشرف عليها، وجاء في قوله في المقدمة: «نرجو من كل قارئ لهذه الترجمة، أن يوافي مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، بما قد يجده فيها من خطأ، أو نقص، أو زيادة؛ للإفادة من هذه الاستدراكات في الطبقات القادمة إن شاء الله».^(٤٠)

٣- (AlKurani Mimo Ni Ede Yoruba Ati Larubawa) أي: (القرآن المقدس باللغتين: اليوربا والعربية).

كانت هذه الترجمة من إعداد الفرقة القاديانية، المعروفة في نيجيريا بالجماعة الأحمدية (Ahmadiyya Muslim Mission) عام ١٩٧٦م، وصدرت الطبعتان الثانية والثالثة لها عامي (١٩٧٨م - ١٩٩٠م) على الترتيب، والناشر: دار الإسلام العالمية المحدودة للنشر، (Islam International Publications Ltd). بكل من باكستان والمملكة المتحدة، وتقع الطبعة الأخيرة الصادرة عام ١٩٩٠م - ومعها نصوص القرآن الكريم- في ٧٣٦ صفحة (ما عدا صفحات الملحق) من الحجم المتوسط، ويتراوح عدد أسطر كل صفحة بين (٣٣ - ٤٠) سطرا، ومقاسها (١٤x٢١) سم.^(٤١)

وتعتبر هذه الترجمة تكملة لمشروع عمل بدأته الجماعة منذ عقود من الزمن؛ فثمة ترجمة لمعاني جزء

من القرآن الكريم باليوربا، أصدرتها الجماعة عام ١٩٥٧م، وكان المشروع حينذاك استجابة لنداء وجهه الخليفة القادياني بشير الدين محمود أحمد عام ١٩٣٤م، بضرورة القيام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى مختلف لغات العالم. وقد حمل ذلك الجزء من الترجمة اليورباوية عند صدوره عام ١٩٥٧م، مقدّمة كتبها هذا الخليفة القادياني.^(٤٢)

ويؤخذ على أصحاب الترجمة تأثرهم كثيرا بالمصطلحات المسيحية، ويظهر ذلك مثلا في ترجمة كلمة سورة بـ (Ori)، والآية بـ (Ese) وغيرهما من المصطلحات الشائعة في الكنائس، ومن المآخذ عليهم، اعتبار البسمة آية في كل سورة، ما يجعل كل سورة تزيد آية واحدة عندهم، خلافا للأعداد المألوفة في المصاحف الصحيحة، ولكن أخطر هذه المآخذ، هو تحريفهم بعض النصوص القرآنية، كي توافق هواهم وعقيدتهم القاديانية الباطلة،^(٤٣) وسوف نذكر مثلا لذلك في المبحث الثالث من هذا البحث إن شاء الله.

٤- (Al-kur'anu Alaponle Itumo si Ede Yoruba)، أي: (القرآن الكريم ومعناه في لغة اليوربا).

قام بهذه الترجمة البروفيسور ياسر أنجولا عبد القادر، أستاذ الدراسات الإسلامية بقسم الأديان في جامعة إلورن كوارا - نيجيريا، وأشار في مقدمتها إلى تقديم أجزاء منها لأحد زملائه - وهو الدكتور نجم الدين راجي، من فرع اللغة العربية بقسم الأديان في جامعة إلورن - لمراجعتها، وقد طبعت (ومعها نصوص القرآن الكريم بالعربية)، في ورق من الحجم المتوسط مقاس (١٦ X ٢٤) سم، ويبلغ متوسط عدد الأسطر في كل صفحة ٤٠ سطرا، ونُشرت الطبعة الأولى منها عام (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م) في دار نشر محلية (دار شيبوتوما للنشر) (Shebiotimo Publications) بمدينة إجيبي أودي النيجيرية،^(٤٤) وتنفرد الترجمة بميزة فهرسة موضوعات القرآن الكريم،^(٤٥)

قام البروفيسور بهذه الترجمة استجابة للدعوات المتكررة من جمهور القراء، الذين قرؤوا ترجمته لجزء واحد فقط من أجزاء القرآن الكريم الثلاثين عام ١٩٨٥م، وقد أشاد بالترجم البروفيسور كثير من الأكاديميين النيجيريين، واعتبروا عمله هذا «سابقة نوعية، بل وفريدة حتى الآن... أعني كون أستاذ جامعي يهتم بترجمة شيء من الكتب الدينية (الإسلامية) عامة إلى اللغة المحلية (اليوربا)، ونأمل أن يحذو آخرون حذوه، فحينئذ نكون نحن وإياهم قد تحررنا فعلا من مخلفات السياسة التعليمية الاستعمارية التنصيرية، التي أضرت كثيرا بالإسلام، وبعقيدة المسلمين وثقافتهم».^(٤٦)

٥- (Alaye Itumo Al-Qurán Alapon-onle Ni Ede Yoruba)، أي: (بيان معاني القرآن الكريم باللغة

اليورباوية)، أعدها الأستاذ أبو رحيمة ميكائيل أيكوييني، بإشراف مباشر من مركز رواد الترجمة، وموقع دار الإسلام، التابع للمكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات، بالربوة بمدينة الرياض السعودية، نشرت طبعتها الأولى في موقع موسوعة القرآن الكريم عام ١٤٤٣هـ، وتقع

الترجمة (ومعها نصوص القرآن) في ١٢٣٧ صفحة، ما عدا صفحات الملاحق، من الحجم المتوسط، ويتراوح عدد أسطر كل صفحة ما بين ٩ و ٣٠.

وكان الدافع إلى إعداد الترجمة تابعا للدافع العام للترجمات، التي يشرف عليها مركز رواد الترجمة، وهو بسبب «... أن العمل على ترجمات معاني القرآن الكريم، فيه ضعف وقصور كبير، ولم يعط حقه من العناية في كثير من اللغات، وللقيام بشيء من الواجب»^(٤٧).

ومن سقطاته في الترجمة، استخدام كلمة (Allah) بدل كلمة (Olohun) التي شاعت إلى حد التواتر ترجمتها بلفظ الجلالة (الله)، وعلل لذلك، بأنه لم يكد يجد مصطلحا مناسباً تطمئن إليه نفسه لترجمة (الله) غير كلمة (Allah)،^(٤٨) فصار بذلك كمن يفسر الماء بالماء.

٦- (Al-Kurani Ti A Tumo si Ede Yoruba)، أي: (القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى لغة اليوروبا)، طبعت هذه الترجمة طبعة خاصة، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بطرابلس - ليبيا، عام ٢٠٠٥م، وتقع الترجمة - ومعها نصوص القرآن الكريم- في ١٢٠٨ صفحات (ما عدا صفحات الملحق) من الحجم المتوسط، ويتراوح عدد أسطر كل صفحة بين ٣٧ و ٣٨ سطرا.

لم تتضمن الترجمة معلومات أكثر مما ذكر،^(٤٩) ولقد قمت بمقابلة نسخة الترجمة بنسخ الترجمات المتوفرة عندي، وأدركت تقاربا شديدا بينها وبين نسخة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، إلى الحد الذي يدفع القارئ إلى الجزم بأنهما نسخة واحدة.

الصنف الثاني- ترجمات فردية

١- (Qur'an Ogota Esu ni Ede Arab ati Itumo re ni Ede Yoruba) أي: (القرآن ستون حزبا بلغة العرب ولغة اليوروبا)، قام بها الحاج عبد القادر أدي بللو من أسرة أولوشن، كان واعظا مشهورا بمناظرة النصارى في عموم بلاد يوربا، وأسلم على يديه عدد كثير من الناس، طبعت ترجمته (ومعها النص العربي) بمطبعة أدر-ليري، بمدينة إبادن- نيجيريا (Nigeria، Adura Lere Printing works Ibadan) عام ١٩٦٥م، في ٨٦٣ صفحة من الحجم المتوسط، وتقع في جزئين: الجزء الأول من سورة الفاتحة إلى سورة الكهف، والجزء الثاني من سورة مريم، حتى آخر سورة الناس، ويؤخذ على الترجمة افتقارها للمراجعة والتدقيق اللغوي، ما أوقعها في كثير من الأخطاء المطبعية حتى في النصوص العربية للقرآن الكريم.^(٥٠)

٢- (Odidi Kurani Ni Ede Yoruba) أي: (القرآن كاملا في لغة اليوروبا) للحاج أسامة إمام كوتا، المولود عام ١٩١٠م، بمدينة كوتا، وطبعت الترجمة مطبعة محلية بمدينة إيوو (Printing Works Otun) دون ذكر تاريخ الطبع، وتقع في ٤٥٢ صفحة.

وكانت الترجمة عملاً فردياً، أخذ عليها شح المراجعة، الذي كان سبباً في تداخل بعض معاني الآيات في بعض، إضافة إلى خلو الترجمة من النصوص العربية للقرآن.^(٥١)

٣- (AL- Quran Totobi: Eesu Meta Pelu Itumo) أي: (القرآن العظيم - ثلاثة أحزاب مع الترجمة)، بقلم الحاج عبد العزيز المعروف بـ (لا حَوْلَ).

تقع الترجمة في ٥٤ صفحة من الحجم المتوسط، مقاسها (٢٠ ١٥X) سم، يبلغ متوسط عدد أسطر كل صفحة ٣٥ سطراً، ولا تتضمن الترجمة أية معلومات عن تاريخ التأليف ولا النشر، سوى ذكر اسم الناشر أو الموزع؛ وهو: دار «أزلاو» الإسلامية للنشر، بمدينة إلورن النيجيرية.

ويؤخذ على الترجمة خلوها من النصوص العربية للقرآن الكريم، واكتفاؤها بوضع الترجمات الصوتية (Transliterations) محل النصوص العربية،^(٥٢) وهذا قد يؤدي بالقارئ إلى تحريف كلمات القرآن، دون قصد.

٤- (Al-Kur'an Alaponle Esu Kan Tiatu si Ede Yoruba)، أي: (القرآن الكريم: حزب واحد مترجم إلى

لغة يوربا)، بقلم الحاج صالح باميديلي، نُشرت بدار البلاغ للنشر بلاغوس-نيجيريا دون ذكر تاريخ النشر، في ٤١ صفحة من الحجم الصغير، ومقاسها ١٢ ١٦x، ويتراوح عدد أسطر كل صفحة بين (٢٤-٣١) سطراً. ومن محاسن الترجمة، أنها جمعت بين النصوص العربية للقرآن، الترجمة الصوتية (Transliterations).^(٥٣)

٥- (Al- Qur'an Majeed Ologo Julu Eesu Merin) أي: (القرآن المجيد: أربعة أحزاب) من سورة

الملك حتى الناس، للشيخ إسحاق يحيى، طبعت الترجمة في طبعتها الأولى بمطبعة محلية تدعى أبواس، ونشرتها مكتبة مركز الدعوة الإسلامية بلاغوس- نيجيريا عام ٢٠٠٤م، وتقع الترجمة في ١٥٥ صفحة، ويتراوح عدد أسطر كل صفحة بين (٢٥-٣٠) سطراً، ومقاسها (١٧ ١٢x) سم. وتتميز الترجمة بأنها أضافت إلى النص القرآني الترجمة الصوتية (Transliterations) قبل الترجمة اليورباوية.^(٥٤)

٦- ترجمة تنسب للشيخ عبد السلام بولاجي، لم يعرف غير إشارة إلوري إليها، في مقدّمة الطبعة

الثانية لترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا، وقال: «ومن الجدير بالذكر هنا، ما تقدّم به الأخ الفاضل الحاج عبد السلام بولاجي، الذي سبق أن قام وحده بترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا». ^(٥٥)

ثالثاً- الترجمات المسجلة

إن علماء بلاد يوربا لم يكتفوا بالترجمة الشفهية، ولا بالترجمة المكتوبة فقط، بل إنهم أيضاً يسجلون

ترجماتهم في الأشرطة أو الأقراص تسجيلاً صوتياً، لتنتشر بين الناس انتشاراً واسعاً، ولا سيما بعد انتشار التكنولوجيا الحديثة، واشتهر من بين هذه الترجمات المسجلة ما يأتي:

١- تسجيل ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اليوربا؛ للشيخ عبد العزيز الندوي أولواي بدماصي، والحاصل على الليسانس بالهند والماجستير بالباكستان، وكلاهما في تخصص الشريعة الإسلامية، والتفسير والحديث، وكان أسلوبه أن يتلو النصوص القرآنية بالعربية قارئاً، وهو بدوره يترجمها إلى لغة اليوربا، واستطاع بهذا الأسلوب، تسجيل ترجمة معاني القرآن كاملاً في الأقراص، خلال ثلاث سنوات.^(٥٦)

٢- التسجيل الصوتي الذي يقوم به المهندس يحيى إبراهيم المقيم في بريطانيا، ساعده تخصصه في الهندسة الإلكترونية، وإمامه الكبير باللغة العربية والدراسات الإسلامية، منذ أيام دراسته بجامعة إلورن - نيجيريا، ساعده كل ذلك في القيام بتسجيلات صوتية، يترجم فيها معاني القرآن الكريم، ترجمة فورية إلى اللغة الإنجليزية، ثم إلى لغة اليوربا، وقد ترجم بهذا الأسلوب بعض سور القرآن، ومنها سورة يس، وسورة الواقعة، وسورة الملك، ثم جزء عم.^(٥٧)

٣- التسجيل الصوتي للأستاذ الدكتور عبد الرزاق عبد المجيد ألو - يشغل حالياً محاضراً بجامعة إلورن - نيجيريا - وقد صدر له حتى الآن: ترجمة صوتية لمعاني سورة الفاتحة إلى لغة اليوربا، ومعاني جزء عم، معتمداً في تسجيله الصوتي على محتوى ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، المطبوعة على نفقة مجمع الملك فهد.^(٥٨)

وختاماً، نستخلص مما سبق، أن قبيلة يوربا، هي من أهم الأمم الإسلامية، التي خدمت القرآن الكريم قراءة، وتلاوة، وترجمة، وتعتبر لغتهم من أوائل اللغات الإفريقية، التي تُرجمت إليها معاني القرآن الكريم، فإذا اعتدنا بعام ١٩٢٤م، الذي صدرت فيه أولى ترجمة يورباوية مكتوبة، أو اعتدنا بعام ١٩٧٣م الذي صدرت فيه أولى ترجمة يورباوية للمسلمين، فإننا نستطيع الجزم من ذلك، بأن لغة يوربا كانت أول لغة محلية في نيجيريا، تُرجمت إليها معاني القرآن الكريم، حيث إن نظيرتها (الهوسا)، لم تترجم إليها معاني القرآن الكريم ترجمة مكتوبة كاملة، قبل عام ١٩٧٩م، العام الذي صدرت فيه ترجمة الشيخ محمود أبوبكر جومي، وأكد على أولية ترجمته لجميع الترجمات الهوساوية، وقال: «أتمنا ترجمة تفسير القرآن كله عام ١٩٧٩م... وكما يعرف كل منا، أن هذه الترجمة هي الترجمة الأولى من نوعها، فلا بد لها من قراء على النحو المثالي، وذلك أنه سيوجد من يقرؤها ليطلع على الأخطاء، حتى يجد مكاناً للطعن فيها، كما يوجد من يقرؤها بحسن النية، لتصحيح ما يراه غير مناسب، ومع ذلك فكلاهما قدم مساعدة لا يستهان بها، وقد أصبح هذا العمل خيراً للأمة الإسلامية عامة، ولي خاصة، فالله تبارك وتعالى المسؤول أن يجازي الكل بخير، وأن يصلح نياتنا لقبول الحق من أين جاءنا».^(٥٩)

المبحث الثالث- مآخذ على هذه الترجمات:

نتناول هنا الحديث عما أخذ على بعض ترجمات معاني القرآن إلى لغة اليوروبا، بالإضافة إلى ما ورد ذكره من المآخذ، أثناء السرد التاريخي للترجمات المكتوبة من قبل، وذلك من خلال الجوانب الآتية:

أولاً- الجانب الشرعي والعقدي

أخذ على بعض الترجمات المكتوبة، ولا سيما ترجمات المسيحيين والجماعة القاديانية، تحريف معاني النصوص القرآنية؛ كي توافق أهواء أصحابها ومعتقداتهم؛ فالقسيس أكلنادي - مثلا - في ترجمته،^(٦٠) ولكي يتمكن من دعم مزاعم النصارى في تعدد الإله، ترجم كلمة (ولي) إلى ((Baba، أي الأب))، في آيات كثيرة منها الآيتان الآتيتان ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾،^(٦١) ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.^(٦٢) كما وقع في الخطأ الفقهي، حين استخدم كلمة (غسل) للتيمم^(٦٣) في قوله تعالى من سورة النساء ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.^(٦٤)

وعمد القائمون على ترجمة الجماعة القاديانية، إلى تحريف الآية الأربعين من سورة الأحزاب؛ وهي قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.^(٦٥) حيث ترجموا لفظ «خاتم النبيين» في الآية بـ (Onte fun awon Anabi) أي (ختم أو طابع النبيين)، متجنبين ذكر اللفظ الآخر (Ipekun awon Annabi) الدال بصراحة على انقطاع الوحي، واختتام النبوة والرسالة برسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذا يخالف اعتقادهم بنبوة مؤسس نحلتهم؛ غلام أحمد القادياني.^(٦٦)

كما وقع في الخطأ الفقهي القائمون على ترجمة مجلس مسلمي نيجيريا المطبوعة عام ١٩٧٣ م، عندما قالوا بالربط بين مشروعية الحجاب، وآية حبس الزانيات في البيوت في أول الإسلام، وهي قوله تعالى ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.^(٦٧) وجاء في تعليقهم ما معناه، أن الآية هي الأصل في مشروعية الحجاب للمرأة المسلمة، وبناء على ذلك يكون حجابا خاصا بالزانيات دون غيرهن.^(٦٨)

ثانيا- الجانب اللغوي

نورد هنا بعض نماذج من الأخطاء اللغوية التي انزلق فيها عدد من الترجمات المكتوبة، ومنها:

ترجمة قول لقوله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٦٩) قوله:

(Nitorina eje ki awon olododo gba Allah)، ومعناه (وبالله فليؤمن الصادقون).^(٧٠)

وترجمة أكنلادي (المبايعة) بسورة (التوبة)،^(٧١) في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.^(٧٢) وترجمة «الأعراب» بالعرب، كما في ترجمة الآيتين: (٩٠ و ١٢٠) من سورة التوبة، في ترجمة مجلس مسلمي نيجيريا ١٩٧٣م، ووردت عند البروفيسور عبد القادر أيضا في ترجمته للآيتين، إلا أنه زاد الطين بلة، حين زعم أن معنى الأعراب في الآيات الـ ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠١ من السورة نفسها هو: «سكان الصحراء من العرب» (Larubawa tingbe asale)! والترجمة القاديانية كذلك لم تخرج عن هذين المعنيين في ترجمتها للآيات المذكورة^(٧٣).

وأخذت على ترجمة مجمع الملك فهد ترجمة الفعل المجهول في قوله ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.^(٧٤) بالفعل المعلوم، حيث ورد فيها: (Nigbati ile bami titi ni mimi re).^(٧٥)

ثالثا- الجانب الفني

إذا أردنا دراسة الجوانب الفنية ومؤاخذاتها في الترجمات المذكورة، فإن الحديث يجربنا إلى البحث عن النقاط الآتية:

- التهميش لإزالة ما غمض، أو حل ما استشكل من المعاني الخفية، التي لا يكفي لشرحها متن الترجمة، فيؤخذ على جميع الترجمات عدم الاهتمام به، ويستثنى من ذلك ترجمة أبو رحيمة أيكوييني، وقد أولى صاحبها عناية فائقة به، وتدخل في الاستثناء كذلك، ترجمة مجلس مسلمي نيجيريا، وترجمة مجمع الملك فهد؛ فإن الأولى استغلت الهوامش خير استغلال، في إظهار المعاني الخفية من بداية القرآن، حتى سورة النساء، وزادت الثانية على ذلك الحد قليلا.
 - وضع علامات المقاطع اللفظية (Syllable)، فالمقاطع اللفظية أو الصوتية، من الميزات التي تمتاز بها لغة اليوربا، ولها دور كبير في القراءة الصحيحة، لكل ما يكتب بلغة اليوربا، وذكر البروفيسور أوارو، أن لغة اليوربا تعد «من لغات العالم القليلة -كالصينية، مثلا- التي تعتمد على النبرات الصوتية؛ فالكلمة الواحدة قد تتعدد أوجه قراءتها ومعانيها، من غير إحداث أي تغيير في حروفها، وعلى سبيل المثال: Owò و Òwó و Owó و Owó قد تبدو هذه كلها واحدة، لكنها ليست كذلك بل تختلف حسب العلامات التي عليها؛ فالأولى تعني: المال، والثانية: التجارة، والثالثة: سَقَطَ، والرابعة: نَظَرَ. فهكذا تنتج الكلمة الواحدة اسمين وفعلين، وقد تزيد أو تقل في كلمات أخرى، ومن هنا ندرك أهمية وضع هذه العلامات على الكلمات اليورباوية، ولاسيما المبهمة والموهمة منها في الترجمات».^(٧٦)
- ولم يوف هذه العلامات حَقَّها من بين الترجمات المذكورة، غير ترجمة البروفيسور عبد القادر، وكذلك اهتمت بها ترجمة مجلس مسلمي نيجيريا، وترجمة مجمع الملك فهد، واعتمدت ترجمة أبو رحيمة

أيكوييني اهتماماً أقل نسبياً. وأما الترجمات الأخرى، فلم تعرّها أي اهتمام، وأرجع البروفيسور سبب ذلك إلى الصعوبة البالغة، التي تكتنف وضع هذه العلامات، لكون هذه العلامات اصطلاحية وضعية محضة، فليس كل يورباوي يستطيع القيام بوضعها، وإن كان يدرك بسليقته وطبيعته، الفوارق الصوتية في الكلمات.^(٧٧) يضاف إلى ذلك «أنّ هذه العلامات، وإلى حدّ الآن، لم تنتشر، رغم توفر التقنية العصرية الخاصة لكتابتها - كبرنامج حاسب آليّ مثلاً - مما يجعل الأمر مقصوراً على بعض الأفراد، الذين استطاعوا تطوير طريقة تقنية أو أخرى، للتعامل مع هذه العلامات، في حين يلجأ الكثيرون إلى كتابتها بالأيدي».^(٧٨)

- التقويم والتصحيح والتدقيق: تعتبر هذه النقطة من أهم متطلبات البحوث العلمية الحرة، فضلاً عن ترجمة معاني كلام الله، فيجب على من يتصدى لها، التقيد ببعض الضوابط العلمية والفنية، ومن أبرزها تقديم الترجمة إلى شخص محايد، لتقويمها وتصحيحها وتدقيقها.

فإذا استعرضنا الترجمات التي بين أيدينا، وجدنا أن الترجمات التي أعدت بجهود فردية، يؤخذ عليها كثرة أخطائها، بسبب عدم مرورها بمرحلة المراجعة الدقيقة، ومن أجل هذه النقطة، فقد عاب الإلوري على ترجمة الحاج عبد السلام بولاجي المذكورة سابقاً، وقال: «ومن الجدير بالذكر هنا، ما تقدّم به الأخ الفاضل الحاج عبد السلام بولاجي، الذي سبق أن قام وحده بترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا، ومع تقديرنا لمواقفه المحمودة مع أهل الكتاب في المجادلة والمناظرة، ومع تقديرنا لما قام به من ترجمة معاني القرآن الكريم، فإننا نرى أنّ ما تعاونت عليه الجماعة، أفضل مما قام به فرد، مهما أوتي من فهم وذكاء».^(٧٩)

- (1) "Writing System and Languages in the World," Omniglot, <https://tinyurl.com/3y87m7pn>
- (٢) آدم عبد الله الإلوري، أصل قبائل يوربا والقبائل المجاورة لها في نيجيريا، (القاهرة: مطبعة الزهراء للإعلام العربي)، ٨١ - ٩٥.
- (٣) آدم عبد الله الإلوري، أصل قبائل يوربا، ٨٣.
- (4) Robin Law, *The Oyo Empire (c1600-c1836), A West Africa Imperialism in the Era of the Atlantic Slave Trade*, (Oxford: Clarendon press, 1977), 7.
- (٥) جامع سعد الله عبد الكريم، «النقد التاريخي لدى الشيخ آدم عبد الله الإلوري، أصل قبائل يوربا نموذجاً»، مجلة سيبويه العربية والتربوية، العدد ٥٦، ٣.
- (٦) السلطان محمد بللو بن عثمان ابن فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، (تونس: مجمع الأطرش للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م)، ٤١.
- (٧) آدم عبد الله الإلوري، أصل قبائل يوربا، ٩١ - ٩٢.
- (٨) آدم عبد الله الإلوري، ٩٣.
- (٩) آدم عبد الله الإلوري، ١١٧ - ١١٨.
- (١٠) آدم يحيى عبد الرحمن الفلاني، مع المؤرخين في بلاد يوربا، (كنو: مطبعة فيتي)، ٧٤ - ٨٨.
- (١١) آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي، (القاهرة: مكتبة وهبة ٢٠١٢م)، ٣٨.
- (١٢) عبد الحفيظ أحمد أديميح، «موجز تاريخ اليوربا وعلاقتها باللغة العربية والإسلام»، <https://tinyurl.com/4kfb9k67>
- (١٣) عبد الحفيظ أحمد أديميح، «موجز تاريخ اليوربا وعلاقتها باللغة العربية والإسلام».
- (١٤) «اللغات المستخدمة في قارة إفريقيا»، المرسل، مايو ٢٠٢٢م، www.almrsal.com/post/891851
- (15) Anthony Ayodele Olaoye, "Sociolinguistic Documentation of Endangered Ethnography of Communication in Yoruba Language," *I-manager's Journal on English Language Teaching*, Vol. 3, No. 4, October 2013, 43.
- (16) Olu Owolabi, *Ijile Ede Ati Litireso Yoruba*, (Nigeria: Iwe Kini, 1986), 22-23.
- (١٧) خالد المحمد، «العائلات اللغوية واللغة التركية»، الجزيرة، (٢٩، مارس، ٢٠١٨م).
- www.aljazeera.net/blogs/2018/3/29
- (18) "Writing System and Languages in the World".
- (١٩) - جابر قميحة، «اللغة العربية: قدرة ومرونة وثناء»، إسلام ويب، (٤، إبريل، ٢٠١٠م)، www.islamweb.net/ar/article/157607
- (٢٠) عبد الرزاق عبد المجيد الأرو، «تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا»، في: ترجمة معاني القرآن: تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ٢٠٠٢م)، ٩ - ١٠.
- (٢١) آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا، ١٦٥.
- (٢٢) آدم عبد الله الإلوري، ١٦٦.
- (٢٣) عبد الرزاق الأرو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ١٠.
- (٢٤) عبد الغني عبد الحميد أكوردي، «المستشرق القسيس إيليجا كولا أكلادي ومنهجه في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا»، في: القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ٢٠٠٦م)، ٢٢.

- (٢٥) عبد الرزاق الأرو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ٨.
- (٢٦) عبد الرزاق الأرو، ١١.
- (٢٧) عبد الغني أكوردي، المستشرق القسيس إيليجا كولا أكتلاي ومنهجه، ٢٤.
- (٢٨) عبد الرزاق الأرو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ١١.
- (٢٩) (سورة البقرة: ١٠٩).
- (٣٠) - عبد الرزاق الأرو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ٩.
- (31) Badmus N. O. Abdul Azeez, "Dynamicism in Yoruba Translation of the Quran," *International Journal of Integrative Sciences (IJIS)*, Vol. 1, No.8, 2023, 1200-1201.
- (٣٢) عبد الغني أكوردي، المستشرق القسيس إيليجا كولا أكتلاي ومنهجه، ٣٦-٣٧.
- (٣٣) عبد الغني أكوردي، ٤٣.
- (٣٤) مرتضى أحمد أينلا، «ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا نقد تحليلي لنسخة مجمع الملك فهد»، (رسالة ماجستير، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، ٢٠٠٩م)، ٤٥-٤٦.
- (٣٥) (سورة يوسف: ٢٦-٢٧).
- (٣٦) عبد الغني أكوردي، المستشرق القسيس إيليجا كولا أكتلاي ومنهجه، ٤٤-٤٥.
- (٣٧) عبد الرزاق الأرو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ١٥.
- (٣٨) عبد الرزاق الأرو، ١٤-١٥.
- (٣٩) عبد الرزاق الأرو، ١٦-١٧.
- (٤٠) القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى لغة اليوربا، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٩٩٧م)، أ.
- (٤١) عبد الرزاق الأرو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ١٩-٢٠.
- (٤٢) عبد الرزاق الأرو، ٢٠.
- (٤٣) عبد الغني أكوردي، المستشرق القسيس إيليجا كولا أكتلاي ومنهجه، ٢٨.
- (٤٤) عبد الرزاق الأرو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ١٧-٤٨.
- (٤٥) مرتضى أينلا، ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا نقد تحليلي لنسخة مجمع الملك فهد، ٥١.
- (٤٦) عبد الرزاق الأرو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ١٨.
- (٤٧) ميكائيل أبو رحيمة إيكوييني، بيان معاني القرآن الكريم باللغة اليورباوية، (الرياض: مركز رواد الترجمة)، ب.
- (٤٨) ميكائيل أبو رحيمة إيكوييني، بيان معاني القرآن الكريم باللغة اليورباوية، ١٢٣٥.
- (٤٩) جمعية الدعوة الإسلامية، القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى لغة اليوربا، (طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية، ٢٠٠٥م)، ٢٠٢.
- (٥٠) ميكائيل إيكوييني، بيان معاني القرآن الكريم باللغة اليورباوية، ٢٧.
- (٥١) ميكائيل إيكوييني، ٢٥-٢٧.
- (٥٢) عبد الرزاق الأرو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ٢١.
- (٥٣) عبد الرزاق الأرو، ٢٢.

- (٥٤) عبد الغني أكوردي، المستشرق القسيس إيليجا كولا أكنلاي ومنهجه، ٣٣.
- (٥٥) مجلس مسلمي نيجيريا، القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى لغة اليوربا، (بيروت: دار العربية، ١٩٧٣م)، ٢.
- (٥٦) عبد الغني أكوردي، المستشرق القسيس إيليجا كولا أكنلاي ومنهجه، ٣٥.
- (٥٧) عبد الغني أكوردي، ٣٤.
- (٥٨) مرتضى أينلا، ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ٥٢.
- (٥٩) جومي محمود أبوبكر، وآخرون، القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى لغة الهوسا، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ٢٠١٣م)، ج.
- (٦٠) عبد الغني أكوردي، المستشرق القسيس إيليجا كولا أكنلاي ومنهجه، ٥٣ - ٥٤.
- (٦١) (سورة البقرة: ٢٥٧).
- (٦٢) (سورة آل عمران: ٦٨).
- (٦٣) عبد الغني أكوردي، المستشرق القسيس إيليجا كولا أكنلاي ومنهجه، ٥٨.
- (٦٤) (سورة النساء: ٤٤).
- (٦٥) (سورة الأحزاب: ٤٠).
- (٦٦) عبد الرزاق آلارو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ١٩ - ٢٠.
- (٦٧) (سورة النساء: ١٥).
- (٦٨) مجلس مسلمي نيجيريا، القرآن وترجمة معانيه إلى لغة اليوربا، ٧٣.
- (٦٩) (سورة آل عمران: ١٢٢).
- (٧٠) مرتضى أينلا، ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ٤٤.
- (٧١) عبد الغني أكوردي، المستشرق القسيس إيليجا كولا أكنلاي ومنهجه، ٦٠ - ٦١.
- (٧٢) (سورة الفتح: ١٠).
- (٧٣) عبد الرزاق آلارو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ٤١.
- (٧٤) (سورة الزلزلة: ١).
- (٧٥) مجمع الملك فهد، القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى لغة اليوربا، ٩٠١.
- (٧٦) عبد الرزاق آلارو، تاريخ تطور ترجمة معاني القرآن إلى لغة اليوربا، ٤٣.
- (٧٧) عبد الرزاق آلارو، ٤٤.
- (٧٨) عبد الرزاق آلارو، ٤٤.
- (٧٩) مجمع الملك فهد، القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى لغة اليوربا، ٢.

ظاهرة الاقتراض اللغوي بين اللغتين: البرمانية والعربية

د. بكاري تراوري، محاضر بجامعة الساحل باماكو، باماكو.

مقدمة

يعدُّ الاقتراض اللغوي ظاهرة منتشرة بين اللغات عامة، وبين اللغة العربية واللغات الإفريقية خاصة، واللغة العربية من أقدم اللغات الحضارية، التي دخلت في إفريقيا منذ أمد بعيد، وحتى قبل مجيء الإسلام، وقد كانت أحوال الحبشة معروفة لدى أهالي مكة، منذ عصر رحل الشتاء والصيف، المذكورة في القرآن الكريم، ولما جاء الإسلام، وُطِّدت هذه العلاقة التي كانت تربط بين العرب والأفارقة، وعُزِّز رابط التجارة والدين الإسلامي.

ولقد اعتنقت الشعوب الإفريقية الديانة الإسلامية بشكل مبكّر، ولم يمض قرن واحد، حتى وصل الإسلام إلى غربي إفريقيا، وأصبحت العلاقة التجارية بين العرب والأفارقة تزداد يوماً بعد يوم، فأصبحت مملكة غانا قبلة العرب التجار والمسلمين، يقومون إليها بالتجارة، وفيها ينشرون الإسلام.

وغالبية من الشعوب الإفريقية، لم تكتف باعتماد الإسلام فحسب، بل صار بينهم وبين العرب القادمين من شمالي إفريقيا، نوع من الاختلاط والامتزاج، وهذه الظاهرة، أسهمت كثيراً في انتشار الثقافة الإسلامية واللغة العربية. وكذلك كثرة نزوح القبائل العربية إلى إفريقيا، واستيطانهم مع الأفارقة، وهي القوة التي دفعت عجلة الحضور العربي بكل أشكاله: الإنسانية والثقافية، وكان لمنطقة غربي إفريقيا حالة استثنائية؛ حيث تأثرت بعض قيادات الممالك الإفريقية بالواقع، واعتنقوا الديانة الجديدة، وتحولت بذلك بلدانهم إلى ممالك إسلامية، وأخرى تأسست على غرار الخلافة الإسلامية في المشرق العربي والمغرب، وهكذا أصبحت لغات غربي إفريقيا متأثرة باللغة العربية بدرجات متفاوتة، بما فيها اللغة البرمانية.

وتتجلى ظاهرة الاقتراض في كثير من اللغات الإفريقية، بل لا تكاد تخلو لغة في غربي إفريقيا من تأثر باللغة العربية، وتتفاوت درجات التأثير بحسب قوة العوامل المؤثرة، إضافة إلى البعد الجغرافي؛ حيث إن القبائل التي كثر احتكاكها مع العرب من حيث المجاورة، يزداد الاقتراض عندهم أكثر من

غيرهم، بل حتى يصعب أحيانا معرفة أصول بعض الكلمات من اللغات الإفريقية، وهل هي من العربية، أو هي إفريقية بحتة؟ واللغة البمانية لا تختلف عن تلكم اللغات.

ويكثر اقتراض اللغة البمانية من اللغة العربية، لدرجة يصعب على أي باحث أن يلمّ بكل ظواهر الاقتراض البماني عن العربية، وعلى هذا، فالباحث اختار بعض أبعاد الاقتراض اللغوي، كالبعد الاجتماعي، والديني، والبعد السياسي، والاقتصادي، وحتى هذه الجوانب، لا يضمن للباحث الواحد أن يلمّ بكل الكلمات المقترضة في هذه الجوانب، نظرا لبعدها اللغوية الجغرافية، وسيطرتها على نواحي كثيرة من حياة شعوب غربي إفريقيا عامة، وفي مالي بصفة خاصة.

فالاقتراض اللغوي بين العربية واللغات الإفريقية، كان وليد احتكاك الأفارقة بالعرب، بعد انتشار الإسلام في إفريقيا، وعليه، فالبحث عن الاقتراض اللغوي بين العربية واللغات الإفريقية، هو في الحقيقة بحث عن الحضارة الإسلامية في إفريقيا، والبحوث في الحضارة، جزء من كيان العلوم الحضارية للإسلام.

ومن جهة أخرى، تمتاز اللغة البمانية بمكانتها في غربي إفريقيا بصفة عامة، وفي مالي، وبوركينا فاسو، وكوت دي فوار (ساحل العاج) بصفة خاصة، الأمر الذي تسبب في حدوث جدل واسع، حول اعتبار البمانية لغة أم لهجة؛ إذ تعتبر من اللغات المحكية في الاستعمالات الشعبية، ناهيك عن استعمالها في المناسبات الرسمية، مما يشير إلى أنها من اللغات المغمورة عالميا. وبما أن البمانية لغة غالبية المسلمين في غربي إفريقيا، فقد انتشرت بها العلوم الإسلامية، في أرجاء كثيرة من الغرب الإفريقي.

وفي هذا السياق، طرحنا مجموعة من الأسئلة، التي سنحاول الإجابة عليها في هذه الورقة، وهي: ما فصيلة اللغة البمانية؟ وما أبعادها الجغرافية؟ وما أشهر لهجاتها وأماكن انتشارها؟ ما مكانة اللغة البمانية بين اللغات المحكية في غربي إفريقيا بصفة عامة، وفي مالي بصفة خاصة؟ وما مكانتها من حيث الرسمنة والشعبية؟

ما علاقة اللغة البمانية باللغة العربية؟ ومتى حدث الاحتكاك بينهما؟ وما عوامل الاحتكاك بين اللغتين؟

ما أبعاد الاقتراض بين البمانية والعربية في جوانب مختلفة، كالاقتصادية، والدينية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها؟

أولا- أبعاد العلاقات العربية باللغة البامانية

أ- البعد التاريخي بين العربية واللغة البامانية

يذهب المؤرخون الى أن بني أمية، أرسلوا جيشا إسلاميا لفتح بلاد السودان^(١)، واستقرت ذرية من هذا الجيش في بلاد مملكة غانا، وهؤلاء الجيوش، حملوا معهم الإسلام إلى أهالي المملكة، ويمكن اعتبار ذلك، هو أول وهلة دخول الإسلام في غربي إفريقيا، من ثم توالى الحركات التجارية من عناصر العرب والبربر، ومن خلال هذه الحركات والنشاطات، توغل المد الإسلامي إلى الأدغال البعيدة في إفريقيا.

وما يزال العرب في الحركات التجارية والهجرات، حتى استوطن بعض العرب قرب عاصمة حضارة مملكة غانا الوثنية، التي كانت عاصمتها: واغادو، وقد خصص سكان المملكة لهؤلاء العرب والمسلمين حومة خاصة يصلون فيها؛ وعرفت هذه الحومة بـ كومبي صالح، تحريفاً لكومبي صل أي كومبي التي يُصلّى فيها^(٢).

ومن هذا المنطلق، أصبح الإسلام يتغلغل شيئاً فشيئاً إلى أقصى ربوع إفريقيا، إلى حين وصل المرابطون إلى غانا في القرن التاسع الميلادي، فأسلم أهاليها على نطاق واسع، بعد أن كان بعض أهالي غانا قد أسلموا قبل الفتح الإسلامي لها. ويشير بعض المؤرخين، إلى أن ملك غانا المسمى (بولاتانا)، قد أسلم قبل هذه الفترة، هو وابن تكلان، حوالي ٨٣٧م^(٣). وقد توالى بعد هذا الفتح الإسلامي لغرب إفريقيا، جهود نشر الدعوة بشكل منظم؛ إذ بعد أن تثبتت وتعزز الإسلام فيها، حدث من هناك اختراق إسلامي قوي نحو الجنوب، وتكثف انتشار أثر اللغة العربية والحضارة الإسلامية. وتعتبر امبراطورية غانا، أول حضارة إفريقية في غربي إفريقيا، وهي التي سقطت على يد المرابطين^(٤)، وكل من أتت بعدها، عرفت الإسلام بصيغة أو بأخرى، مثل مملكة مالي المشهورة وغيرها، بل اتخذت بعض الممالك الشريعة الإسلامية قانوناً في إدارة البلد، مثل: سلطنة ماسينا، وواسلون، ومملكة الصونغاي، مما أسهم في انتشار اللغة العربية في أرجاء مالي^(٥). فأصبح عدد مهم من اللغات الإفريقية، تحاكي العربية، وتتأثر بها، فلا تخلو لغة في غرب إفريقيا إلا وقد اقتضت بعض الكلمات العربية، وربما يكثر الاقتراض من لغة منها إلى أخرى، على حسب مجاورتها للعرب جغرافياً، أو على حسب أقدميتها لاعتناق الإسلام، وكان الاقتراض يتم في المجال الاجتماعي والديني والسياسي والاقتصادي...

ب- البعد الجغرافي للغة البامانية

تعد اللغة البامانية من بين اللغات الإفريقية الأكثر انتشاراً جغرافياً؛ حيث تغطي مساحة واسعة عبر البلدان الإفريقية. وقد قسم العلماء اللسانيون اللغات البشرية إلى فصائل أو أسر لغوية، وإن اختلفت معاييرهم في التقسيم اللغوي، بناء على تقسيم جوزيف غرينبيرج الأمريكي، الذي له الفضل الأسبق في تقسيم اللغات الإفريقية، فقد أدرج اللغة البامانية (البمبرية) ضمن اللغات النيجرية الكونغولية، فرع لغات الماندي (الماندينقو،

البمبرا... إلخ^(٦)، ويعتبر هذا التقسيم من أشهر التقسيمات المتداولة في تناول اللغات الإفريقية، وهذه اللغة تعددت تسمياتها من بقعة جغرافية إلى أخرى، تبعاً لاختلاف لهجاتها في المناطق، وعلى هذا النحو:

١- فتارة تسمى بـ (بمبرا) أو بـ (بامنا)، وينتشر هذا المصطلح في أكثر من مناطق مالي، كإقليم سيقو (Segou)، وإقليم سان، وإقليم كوليورو، وخاصة مناطق بليدوغو، وجيتومو، وبانا، وكارتا، وإقليم سيكاسو، وإقليم بوغوني، وإقليم سيكاسو، وإقليم كوتبالا، إضافة إلى أنها هي اللغة المتداولة في العاصمة المالية باماكو، مع بعض الأجزاء التابعة للجمهورية الإسلامية الموريتانية.

٢- وتارة تسمى بلغة (ماننكا)، وبعض المناطق المالية تستخدم هذا المصطلح، ويعنون نفس اللغة أيضاً، وخاصة بعض المناطق التابعة لإقليم كوليورو كانغابا، وسيبي، وواسولون، وكيتا، إضافة إلى بعض المناطق في جمهورية غينيا كوناكري.

٣- وتارة تعرف بلغة (جولا)، وتنتشر هذه التسمية في كوت دي فوار (ساحل العاج)، وبوركينا فاسو، وتعتبر جولا هي اللغة الثانية في كل هذه البلدان؛ ففي بوركينا هي اللغة الشعبية الثانية بعد لغة موسي، وهي اللغة الشعبية الأولى بعد الفرنسية الرسمية في كوت دي فوار، وتجدر الإشارة إلى أن كلمة (جولا) ترجع إلى المهاجرين الأوائل، الذين نزحوا من شمال غربي إفريقيا، إلى جهة الجنوب، خاصة الذين نزحوا من مالي إلى ساحل العاج وبوركينا فاسو، للتجارة؛ إذ تسمى التاجر بـ (جولا)، وكان هؤلاء التجار يسمي بعضهم بعضاً (جولا)، فأصبحت مصطلحاً شائعاً، تطلق على كل من يتكلم بهذه اللغة، بغض النظر عن أصوله الانتماية.

٤- وتارة تعرف بلغة (مانديكو)، وهي اللغة السائدة في جمهورية غينيا كوناكري، وبعض المناطق التابعة لساحل العاج، وسيراليون، وغينيا بساو، والسنغال، خاصة في منطقة كزمانس، وغامبيا، وليبيريا، وغانا، والنيجر^(٧).

٥- وتارة تعرف بلغة (انكو)، فلماً تعددت تسميات هذه اللغة، طبقاً لاختلاف المناطق الجغرافية، وأصبح الكل يفتخر بتسميتها، ولا يقبل انتسابها إلى الأخرى، اخترع العلامة سليمان كانتي تسمية (انكو)، وهي كلمة مركبة من لفظتين، أو مورفيمين هما: (ان N=) التي تعني ضمير المتكلم (أنا)، أو ضمير رفع متحرك (ت)، والمورفيم الثاني (كو=K) ، وهي أداة تعبير عن ذلك الضمير، فالمعنى الأقرب إلى المقصود بالعربية يوافق (قلت^(٨))؛ إذ هو التعبير الذي تشترك فيه كل اللغات أو اللهجات، وهو مؤسس حركة إحياء اللغة الإفريقية في غربي إفريقيا، واخترع أبجدية فريدة لكتابة اللغات الإفريقية سماها رموز كتابة انكو^(٩).

ولما كانت الدراسات اللسانية الحديثة، تنفر عن الخوض في الجذور التاريخية للغة ما؛ إذ تعتبر ذلك أمراً

ميتافيزيقيا، وأمرا خارجا عن المحتوى اللغوي، وبعيدا عن البحث في نشأة لغة بامنا، فيمكن الإشارة إلى البعد الجغرافي لها، فيصف القلقشندي حدود لغة بامنا، في غرب البحر المحيط، وفي شرق بلاد البورنو (نيجيريا حاليا)، وفي شمال جبال البربر، وفي جنوب صنهاجة، والبعض يصفها بمالي الحالية، وأعلى السنغال الشرقي، وشمال غينيا، وكذلك شمال كل من فولتا العليا (بوركينا فاسو)، والداهومي (بينين)، والجنوب الأقصى من جمهورية موريتانيا^(١٠).

ولما كان الإسلام من الديانات التي تعتمد على لغة معينة في تعاملاته التعبدية، فقد كان إتقان بعض من اللغة العربية، مدخلا أساسيا لاعتناقه كدين، مثل أداء الشهاداتتين. ويلزم على كل مسلم أداء خمس صلوات في اليوم، وهي تكون باللغة العربية من البداية إلى النهاية، ويلزم قيام الصلاة بتلاوة آيات من القرآن الكريم، مما يلزم على كل من يعتنق الإسلام تعلم اللغة العربية، على قدر أداء الفريضة الواجبة.

وبما أن الإسلام دين حياة؛ بحيث يوجه معتنقه إلى كيفية إدارة الحياة اليومية، كالمعاملات التجارية والاقتصادية، والمعاملات الاجتماعية، وكيفية قيادة المجتمع، فلا يمكن معرفة مجريات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إلا بمعرفة جزء يسير من الفقه الإسلامي، مما يؤدي في النهاية إلى أن يقتصر من اللغة العربية تلك بعض المصطلحات، والكلمة ذات البعد الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وعليه يمكن القول: لا يوجد جانب من حياة الشعب الإفريقي، إلا وقد اخترقه الاقتراض اللغوي العربي الإفريقي.

ثانيا- أبعاد الاقتراض اللغوي بين اللغتين: البمانية والعربية

أ- بعض الاقتراض اللغوي للكلمات الاجتماعية والدينية

تعتبر الديانة الإسلامية مدخلا أساسيا، وبوابة اللغة العربية على لغات معتنقي الإسلام، بل الإسلام هو المدخل الأول لاحتكاك اللغات الإفريقية باللغة العربية.

أما ما يتعلق بالقضايا الدينية، فأغلبها مقتبسة من المصطلحات الدينية الإسلامية، يستوي في ذلك أتباع الديانات السماوية غير الإسلامية كالمسيحية، في تبنيهم للمصطلحات العربية في حياتهم الدينية. إذ إن بعض المفاهيم الدينية، أيا ما كان نوعها، فإنها لا تفهم إلا عبر الوسطة العربية، وكثير من المسيحيين يستعينون بالكلمات العربية، مثل: الصلاة، والزكاة، والصدقة؛ حيث إن الصلاة تسمى (Sali)، والزكاة تُنطق بشيء من التحريف؛ إذ ينطق حرف (ز) بحرف (ج)، وعليه ينطق (جَكا)، أما الصدقة، فتتق بشيء من التحريف أيضا؛ إذ بحسب اللهجات، يوجد التبديل بين (د) و(ر) علما أن حرف (ص) لا يوجد في اللغة البمانية، فتتق ب (س)؛ وعليه تنطق صَدَقَة بـ (سَرَك)، ولما كان العرض بشكل الجدول أوضح بيانا، فإننا سنعرض بعض الكلمات في الجدول الآتي:

الكلمات المقترضة في المجال الاجتماعي: (١١)

الكلمة العربية	دلالة الكلمة	اللاتينية	الكلمة المقترضة	ر. س
الصدقة	ما يتصدق به المرء إحسانا	Saraka, sadak	سَدَكْ، أو سرك	٠١
الحقوق	حقوق المرء	hake	حقي	٠٢
الحر	الحر	Hôrôn	حورو	٠٣
الأدب	القيم أو الأدب	Dambe	دامبي	٠٤
الدولة	البهجة أو الاستيلاء	Dawula	دَوُلْ	٠٥
الحرمة	الحرمة	Lahoroma	لَحْرُوم	٠٦
الحُرِيَّة	الحُرِيَّة	Horonya	حُرُونِيَا	٠٧
شهر الحرم	نسبة إلى الإسلام ^(١٢)	Sulamaya	سُلَامِيَا	٠٨
العدل	العدالة	Ladiri	لادري	٠٩
الحاج	الحاج	Laji	لاجي	١٠
العادة	العادة أو العرف	Lada	لادا	١١
المسكين	المسكين او الفقير	misikine	مسكيني	١٢
الكافر	العنيد او غير المسلم	Kafiri	كَاْفِرِ	١٣
الطالب	تلميذ الكتاتيب	Talibe	تالبي	١٤
الجمعة	يوم الجمعة	Juma	جوم	١٥

الكلمات المقترضة في المجال الديني: (١٣)

الكلمة العربية	دلالة الكلمة	اللاتينية	الكلمات المقترضة	ر. ت
الله (سبحانه)	رب العالمين	Alla	آلا	٠١
الجنة	جزاء المؤمنين	aljine	أَلْجِينِي	٠٢
البالغ	الشخص البالغ	Baliku	بالكو	
إمام المسجد	الإمام	Alimami	أَلِّمَامِ	٠٣

ر. ت	الكلمات المقترضة	اللاتينية	دلالة الكلمة	الكلمة العربية
٠٤	مِسْدِي أو مِسْرِي	Missidi # missiri	المسجد	المسجد
٠٥	زَاوِيَا	Zawiya	مكان ذكر الصوفية	مكان ذكر التيجانية
٠٦	أَمِين	Amina	أقبل الله الدعوة	أمين
٠٧	نَبِي	Nabi	رسول الله	النبي
٠٨	وَلَجُو	Waliju	وَلِيُّ الله	الولي
٠٩	تالبي	Talibe	طالب علم	الطالب
١٠	فجر	Fajiri	وقت صلاة الفجر	الفجر
١١	حيجي	Hiji	الركن الخامس في الإسلام	الحج
١٢	حرام	Haramu	ممنوع في الإسلام	الحرام
١٣	حلال	Halala	الحلال في الإسلام	الحلال
١٤	حِجَاب	Hijabu	الحجاب	الحجاب
١٥	جَنَاب	Janaba	غسل الجنابة	الجنابة

ب- الاقتراض اللغوي للكلمات السياسية والاقتصادية

تعتبر السياسة والاقتصاد جزءاً أساسياً في حياة الشعوب والمجتمعات، بل إن السياسة والاقتصاد، مظهر من مظاهر التأثير والتأثر في حياة المجتمعات؛ إذ تتجلى مظاهر الاقتراض اللغوي، بحسب القوة التي تتم السيطرة بها على المجتمع؛ فالحضارة الإسلامية عندما جاءت إلى المنطقة، أسهمت في تقوية السلطات المحلية، إذ اعتمدت على القيادات المحلية، كمرجع أو مصدر لإدارة شؤون البلاد، بحيث كانوا يعانون من المرجعية لأحكامهم، فأصبحت الكلمات السياسية والاقتصادية، متوغلة في النظام اللغوي للبمانية، بل أصبحت بعض الكلمات المقترضة، لا يعرف جذورها أصلاً، لعمق تاريخ اقتراضها، وتناسقها مع النظام الصوتي للغة البمانية، بل حتى كلمة المال يسمى بتسمية عربية؛ إذ كان الرحالة يأتون بالودع من المحيط إلى المنطقة، فكان الودع هو بمثابة العملة المعدنية اليوم، فكان يسمى المال بصفة عامة بالودع، فحرفت بالبمانية ودي أو واري على التبدل الصوتي بين اللام والداد والراء بين لهجة أهالي بامنا، ولهجة أهالي ماندي.

قائمة ببعض المفردات السياسية والاقتصادية المقترضة^(١٤):
الكلمات السياسية^(١٥):

ر. ت	الكلمة البمانية	اللاتينية	دلالة الكلمة	الكلمة العربية
٠١	شَرِيًّا	Charya	القانون	الشرعية
٠٢	حَقِي	hake	الحقوق	الحق
٠٣	وَاجِبٍ	Wajibi	الواجب	واجب
٠٤	أَلْكَادِي	Alkadi	القاضي	القاضي
٠٥	بَلَاؤُ	balawu	البلاء	البلاء
٠٦	بِتَاكِي	Bataki	البطاقة، أو الرسالة	البطاقة
٠٧	دَرَجٍ	Daraja	الدرجة	الدرجة
٠٨	دَوْلٍ	dawula	الاستيلاء، الغلبة	الدولة
٠٩	فَتْنِي	fitine	الفتنة	الفتنة
١٠	حورونيا	hôrônya	الحرية	الحرية
١١	الخليفة	Kalifa	الخليفة	الخليفة
١٢	لَيْدُو	Layidu	العهد	العهد
١٣	لَادِرِي	ladiriya	العدالة	العدالة
١٤	لَالِمُ	Lalimu	العالم	العالم
١٥	موري	Môri	المرابط	المرابط

الكلمات المقترضة في مجال الاقتصاد^(١٦):

٠١	وَرِي أَوْ وِدِي	wari#wadi	المال	الودع
٠٢	كَسَبٍ	Kassaby	الأموال	الكسب
٠٣	سَرَكَاتٍ	Sarakati	الصدقات	الصدقات
٠٤	حُكْمُ	Hukumu	أَلْحُكْمُ	الحكم

٠١	وَرِي أَوْ وِدِي	wari#wadi	المال	الودع
٠٥	قَدَرَا	Kadara	قدر الأشياء	القدر
٠٦	مَارَا	Mara	إمارة	أَمَرَ
٠٧	رِبَا	Riba	زيادة على الأموال المديون	الربا
٠٨	مُتَوَكَالِي	Mutukali	مُتَقَال من الذهب	المُتَقَال
٠٩	مَرِفَا	Marifa	مدفع آلة قتال	المدفع
١٠	سُوقُ	Suku	مكان البيع والشراء	السوق
١١	جِيد	Jidi	الزيادة والنمو	زِيد
١٢	سَرَدَ	Sarada	وضع البضائع قطعة قطعة	سَرَدَ
١٣	دُورُومِي	dôrômε	الفلوس	الدرهم
١٤	دِيمِي	dεmε	المساعدة	الدعم
١٥	نَفَقَاتٍ	Nafakati	النفقات	النفقات

خاتمة

تعدُّ ظاهرة الاقتراض بين اللغات سنة طبيعية، قديماً وحديثاً؛ واللغة البامنية لا تخلو من هذه الظاهرة، وأسباب الاقتراض تدور بين عدة منافذ، ومنها: المجاورة، أو الاحتكاك الثقافي، أو الاستعماري الاحتلالي، أو الفتحي، أو التأثير الثقافي العلمي، واللغة العربية تركت بصماتها من عدة منافذ، ومنها: الاحتكاك الثقافي، وذلك باحتكاك الثقافة العربية الإسلامية بالثقافة الإفريقية، والفتح من خلال فتح بعض الممالك الإفريقية. والإسلام دخل في الحضارة الإفريقية بطريقة سلمية في أغلب الأحيان، وعليه، فقد تأثرت كل لغات غربي إفريقيا بالعربية، واقتضت منها، على اختلاف درجة الاقتراض اللغوي، وتتفاوت اللغات بحسب مجاورتها للعربية، أو اعتناقها الديانة الإسلامية.

وتتجلى الكلمات المقترضة في المصطلحات الدينية، التي يقلُّ مقابلها في الثقافة الإفريقية، وفي الثقافة عموماً؛ إذ كانت اللغة العربية المصدر الثقافي الوحيد لشعوب غربي إفريقيا؛ وكان أبناء إفريقيا يتنافسون على التناقص بالعربية.

توصلت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج، ومنها:

- تداخل الحضارة العربية بالحضارة الإفريقية، يعود إلى أمد بعيد، وقد يرجع إلى ما قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.
- تعتبر الديانة الإسلامية أول ديانة انتشرت في غربي إفريقيا، وتعتمد على التعاليم والتثاقف.
- الحضارة العربية الإسلامية، امتزجت مع الحضارة الإفريقية، وأسست حضارات إسلامية عملاقة في إفريقيا، واعتمدت على المصادر العربية الإسلامية كمرجع وحيد في التشريع القانوني، وقيادة الدولة، مما أسهم في اقتراض بعض الكلمات العربية في السياسة والاقتصاد.
- لا يزال الاقتراض اللغوي مستمرا من العربية إلى البمانية؛ فالحضارة الإسلامية هي مرجع لدى كثير من شعوب غرب إفريقيا.

الهوامش والإحالات

- (١) المبروك الهادي الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب العربي، (بيروت: دار المتقى للطباعة والنشر، ٢٠٠١م)، ١٩.
- (٢) الشيخ مامادي كيتا، أجرى المقابلة الباحث، باماكو، (١٩، ديسمبر، ٢٠٢٤م).
- (٣) عبد القادر كيجيرا، موسوعة تاريخ مالي، (باماكو: مؤسسة كجيرا للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م)، ١٨.
- (٤) إبراهيم علي طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠م)، ٥١.
- (٥) عبد القادر كيجيرا، موسوعة تاريخ مالي، ١٨.
- (٦) يوسف الخليفة أوبوكر، اللغات في إفريقيا مقدمة تعريقية، (الخرطوم: منشورات جامعة إفريقيا العالمية، ٢٠٠٦)، ٢.
- (٧) نوح أمادو سانو، «التقابل بين اللغة العربية ولغة انكو على مستوى الجملة البسيطة»، بحث تخرج، الجامعة الإسلامية، النيجر، ٢٠٠٤م، ١٦.
- (٨) نوح أمادو سانو، التقابل بين اللغة العربية ولغة انكو على مستوى الجملة البسيطة، ١٦.
- (٩) الشيخ مامادي كيتا، أجرى المقابلة الباحث، باماكو، (١٩، ديسمبر، ٢٠٢٤م).
- (١٠) نوح أمادو سانو، ١٦.
- (١١) الشيخ مامادي كيتا، أجرى المقابلة الباحث، باماكو، (١٩، ديسمبر، ٢٠٢٤م).
- (١٢) نسبة إلى الإسلام، ولكن أخذ بعدًا اجتماعيًا آخر، وهو الصلح أو المصالحة.
- (١٣) الشيخ أحمد التجاني تراوري، "أثر العلاقة العربية البنمية على التنوع اللغوي في مدينة سيقو"، (رسالة ماجستير، جامعة الآداب والعلوم الإنسانية، باماكو، ٢٠١٦م)، ٧٩.
- (١٤) الشيخ مامادي كيتا، أجرى المقابلة الباحث، باماكو، (١٩، ديسمبر، ٢٠٢٤م).
- (١٥) الشيخ أحمد التجاني تراوري، "أثر العلاقة العربية البنمية على التنوع اللغوي في مدينة سيقو"، ٧٩.
- (١٦) الشيخ أحمد التجاني تراوري، ٨٠.

تقارير

العلاقات الاقتصادية الروسية - الإفريقية: الفرص والتحديات في ظل التنافس الدولي

د. جيهان عبد السلام عباس، أستاذ الاقتصاد المساعد، كلية الدراسات الإفريقية العليا، جامعة القاهرة، القاهرة.

مقدمة

تُعد العلاقات الروسية - الإفريقية من أبرز التحولات الجيوسياسية، التي شهدتها النظام الدولي في العقدین الأخيرین؛ إذ تسعى موسكو إلى استعادة حضورها التاريخي في القارة السمراء، من خلال مقارنة تجمع بين الاقتصاد والسياسة والأمن، مع إدراك روسيا، أن القارة الإفريقية تمثل مجالاً حيويًا لتحقيق التوازن في علاقاتها الدولية، ونافذة لتعويض تراجع نفوذها في أوروبا بعد العقوبات الغربية. ومن هذا المنطلق، تزايد اهتمام الكرملين بتعزيز التعاون الاقتصادي، وتوسيع التبادل التجاري، وتنويع الاستثمارات في مجالات الطاقة والبنية التحتية والتعدين، إلى جانب توطيد الشراكات العسكرية والأمنية.

وتجدر الإشارة إلى إنَّ الانخراط الروسي في إفريقيا ليس جديدًا، فقد دعم الاتحاد السوفيتي إعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي أكد استقلال الدول المستعمرة عام ١٩٦٠م، وأسهم في تمويل حركات التحرير في جنوب إفريقيا، وأنجولا، وموزمبيق، وأماكن أخرى؛ إذ شهدت العلاقات الروسية - الإفريقية خلال السنوات الأخيرة عودة ملحوظة، بعد عقود من التراجع الذي أعقب انهيار الاتحاد السوفيتي في التسعينيات، مع إدراك موسكو أن القارة الإفريقية، بما تمتلكه من ثروات طبيعية هائلة، وأسواق استهلاكية واسعة، وموقع جغرافي إستراتيجي، تمثل مجالاً حيويًا لتعزيز حضورها الاقتصادي والسياسي على الساحة الدولية.

وتكتسب هذه العودة أهمية خاصة، في ظل احتدام المنافسة بين القوى الكبرى، مثل: الصين، والولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، حيث تسعى كل قوة لترسيخ نفوذها عبر التجارة، والاستثمار، والطاقة، والتعاون الأمني. وفي هذا السياق، باتت روسيا تعتمد على أدوات متعددة، لتعميق شراكاتها الاقتصادية مع الدول الإفريقية، بدءاً من تصدير الأسلحة، والتعاون العسكري، مروراً بتعزيز الاستثمارات في قطاعات الطاقة والتعدين، وصولاً إلى فتح أسواق جديدة أمام

منتجاتها الغذائية والصناعية. ومن ثمّ، فإن دراسة طبيعة هذه العلاقات وأبعادها، تكشف ليس فقط عن دوافع موسكو الإستراتيجية، بل أيضا عن الفرص والتحديات التي تواجه إفريقيا في تفاعلها مع شريك دولي، يعيد صياغة مكانته على الخريطة العالمية.

ومن هذا المنطلق، يهدف هذا المقال إلى تحليل طبيعة العلاقات الاقتصادية بين روسيا وإفريقيا واتجاهاتها، وذلك من خلال استعراض دوافع موسكو لتعزيز حضورها الاقتصادي في القارة، في ضوء التحولات الجيوسياسية الراهنة، وكذلك تقييم فرص التعاون والتحديات، التي تواجه الشراكة الروسية - الإفريقية. كما يسعى المقال إلى تحديد مجالات الاستثمار، والتبادل التجاري، والطاقة، والبنية التحتية، التي تمثل ركائز هذا التعاون، مع مناقشة انعكاسات هذه العلاقات على مسار التنمية الاقتصادية في إفريقيا، ودورها في إعادة تشكيل موازين القوى الاقتصادية العالمية، وذلك من خلال المحاور الآتية:

أولا- دوافع روسيا لتعزيز العلاقات الاقتصادية مع إفريقيا:

شهد العقدان الأخيران عودة تدريجية وملحوظة لروسيا إلى الساحة الإفريقية، وذلك من خلال تعزيز التبادل التجاري، وتوقيع اتفاقيات تعاون، وتنظيم قمم روسية - إفريقية، وهو ما يعكس رغبة موسكو في إعادة بناء نفوذها في القارة، كجزء من إستراتيجيتها، لموازنة النفوذ الغربي والصيني. ويمكن تلخيص دوافع روسيا في تعزيز وجودها الاقتصادي في إفريقيا في المحاور الآتية:

- **الوصول إلى الموارد الطبيعية وقطاع الطاقة:** تمتلك إفريقيا احتياطات هائلة من الطاقة (النفط، والغاز، واليورانيوم) والمعادن الإستراتيجية: (الكوبالت، الليثيوم، الذهب). وهذه الموارد تشكّل نقاط جذب لكافة القوى الدولية، وروسيا تحاول أن تحصل على موقع متقدم في هذا المجال، عبر عقود التعدين كما في (مالي، والنيجر، وسيراليون، وإفريقيا الوسطى). كما تسعى روسيا لتأمين احتياجاتها من المعادن الثمينة مثل: الكوبالت، والذهب، والألماس، واليورانيوم، في دول مثل: الكونغو، وزامبيا، وغيرهما. كذلك تستثمر في النفط والغاز، ويتمثل ذلك في توقيع عقود مع شركات مثل: غاز بروج (Gazprom)، ولوكويل (Lukoil)، وروسنيفت (Rosneft).
- **تصدير الأسلحة وتعزيز التعاون الأمني:** السلاح الروسي يُعد من الأدوات المهمة للنفوذ في عدة دول إفريقية؛ إذ يشكل تصدير السلاح جزءا ملموسا من العلاقات، يليه الاتفاقات الأمنية والمساعدات العسكرية.^(١) ففي عام ٢٠٢٣م، اشترت الدول الإفريقية أكثر من ٣٠٪ من الأسلحة التي تصدّرها روسيا لذلك العام، عبر عقود بلغت قيمتها أكثر من ٢,٥ مليار دولار.^(٢) ويظهر تقرير من معهد

استوكهولم العالمي لدراسات السلام (Stockholm International Peace Research Institute "SIPRI") أن حصة الدول الإفريقية من صادرات روسيا العسكرية الكبرى، وصلت إلى نحو ٤٠٪ من إجمالي واردات الأسلحة الضخمة للدول الإفريقية، خلال الفترة ٢٠١٨ و ٢٠٢٢، متجاوزة بذلك الولايات المتحدة والصين.^(٣)

• **إستراتيجية دبلوماسية لرفع النفوذ الدولي والموقف في المنظمات الدولية:** تنظر روسيا لإفريقيا ككتلة أصوات مهمة في الأمم المتحدة، وغيرها من الهيئات الدولية، وتستخدم علاقاتها الإفريقية لتعزيز موقعها في النظام الدولي متعدد الأقطاب، إذ تُعدّ إفريقيا أكبر كتلة تصويتية في الأمم المتحدة، حيث تضم ٥٤ عضواً من أصل ١٩٣ عضواً مصوّتاً. ولم يكن من المستغرب، أن يسارع الدبلوماسيون الغربيون، والأوكرانيون، والروس، إلى حشد الدعم من الدول الإفريقية في بداية الحرب. يضاف إلى ذلك، أن دعم انضمام الدول الإفريقية إلى مجموعة البريكس مثل: (جنوب إفريقيا، ومصر، وإثيوبيا، ونيجيريا)، يُساعدها في توسيع قاعدة هذا النظام، عبر شركاء سياسيين واقتصاديين خارج القطب الغربي، وهذا الوجود يعزّز مكانة موسكو كوسيط سياسي واقتصادي مؤثر في إفريقيا.

كما تجدر الإشارة هنا، إلى أن روسيا، تسعى إلى أن تحل محل قوى عظمى في بعض الدول الإفريقية، ففي نوفمبر عام ٢٠٢٤م، طلبت دولتان، كانتا تُظهران بوادر تقارب متزايد مع روسيا، وهما: تشاد والسنغال من فرنسا سحب قواتها وقواعدها، وتلتها كوت ديفوار سريعاً في ديسمبر عام ٢٠٢٤م، ليصل عدد دول غربي إفريقيا التي قدّمت مثل هذه الطلبات، إلى ست دول خلال السنوات الخمس الماضية.^(٤) ويُمثل انسحاب الولايات المتحدة من النيجر - بعد طرد فرنسا من السنغال، ومالي، وبوركينا فاسو - انهياراً، للمواقع الغربية في منطقة الساحل. ومع تراجع الغرب، تملأ روسيا الفراغ بسرعة، مُدمجة نفسها في الهياكل الأمنية، ومُوسّعة نفوذها خارج حدودها. ويشير نفوذ موسكو المتزايد في بوركينا فاسو، ومالي، والنيجر - تحالف دول الساحل ("AES" Alliance des États du Sahel) المُشكّل حديثاً - إلى مسار واضح.^(٥) يضاف إلى ذلك، أن روسيا بتدخلها في الفراغ الأمني الذي خلفته القوى الغربية، تهدف إلى ترسيخ مكانتها كقوة مهيمنة في جهود مكافحة الإرهاب الإقليمية، وتُبرز هذه التدخلات طموح روسيا الأوسع لتعزيز حضورها ونفوذها في المناطق الحيوية لديناميكيات الأمن العالمي. وعلى سبيل المثال في مالي، كان دور روسيا بارزاً بشكل خاص؛ فقد طلبت حكومة مالي الدعم العسكري الروسي، في خضم الصراع الدائر مع الجماعات المتطرفة، ورداً على ذلك، زوّدت روسيا القوات المسلحة المالية بالمعدات العسكرية والتدريب، لتعزيز قدرتها على مواجهة المتمردين، والحفاظ على الاستقرار.^(٦)

تحويل العقوبات الغربية إلى فرص اقتصادية جديدة: اتجهت موسكو إلى إعادة توجيه إستراتيجيتها الاقتصادية نحو الجنوب العالمي، وبخاصة إفريقيا، باعتبارها سوقا بديلة، وبيئة واعدة، لتوسيع التجارة والاستثمار. فقد دفعت العقوبات الغربية المفروضة على روسيا إلى البحث عن شركاء خارج المنظومة الغربية، مما فتح أمامها فرصا جديدة لتعزيز حضورها في قطاعات الطاقة، والزراعة، والتعدين، والبنية التحتية في القارة. كما استفادت الدول الإفريقية من هذا التحول في الحصول على مصادر تمويل، واستيراد الحبوب والأسمدة بأسعار تنافسية، ونقل التكنولوجيا في مجالات الطاقة النووية والتعدين. وبذلك، تحولت العقوبات - التي كان يُفترض أن تقيد الاقتصاد الروسي - إلى دافع لتقوية روابطه مع إفريقيا، وتنويع علاقاته الاقتصادية عالميا، في إطار ما يمكن وصفه بسياسة «الانفتاح نحو الجنوب».^(٧)

يضاف إلى ذلك، أنه ومع تصدر جولة التعريفات الجمركية الأخيرة، التي فرضها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، عناوين وسائل الإعلام على أوسع نطاق، تعمل إفريقيا بهدوء على إعادة توطين منتجاتها، وتكثيفها، وإعادة توجيه أوجه التآزر في التجارة البينية الإفريقية. وفي الوقت نفسه، تطرق إفريقيا أبواب الدول الأجنبية والشركاء الخارجيين، برغبات حقيقية، وأموال طائلة، لتعزيز التجارة عبر القارة. وتكتسب هذه الخطوات الرامية إلى تحسين العلاقات التجارية زخما متزايدا، وتقود الصين وروسيا هذا التوجه؛ إذ تكرر روسيا بنشاط انتقاداتها المناهضة للغرب، وتروج لخطابها الداعي إلى خلق أدوات جديدة، للتعاون التجاري والاستثماري مع إفريقيا.

ثانيا - مجالات التعاون الاقتصادي بين روسيا وإفريقيا:

هناك عدد من مجالات التعاون المهمة بين روسيا وإفريقيا، وتتمثل في الآتي:

١- التجارة: تنتهج روسيا سياسة تقليل الفجوة التجارية، عبر تعميق تواجدها في أسواق الغذاء والطاقة والمواد الخام في إفريقيا، خصوصا مع الضغوط والعقوبات الغربي، حيث بلغت قيمة التبادل التجاري بين روسيا ودول القارة، وفقا لبيانات هيئة الجمارك الفيدرالية الروسية، حوالي ٥,٢٤ مليار دولار في عام ٢٠٢٤م، مقارنة ب ٢,٢١ مليار دولار عام ٢٠٢٣م، (أي: بزيادة قدرها ٦,٢٢٪) و ١٤ مليارا عام ٢٠٢٠، وهو ما يمثل زيادة كبيرة، مقارنة بالسنوات السابقة.

وتُظهر بيانات مركز التصدير الروسي، أن الصادرات الرئيسية شملت: الآلات، والحبوب، والوقود الهيدروكربوني، وهي موارد أساس للعديد من الاقتصادات الإفريقية. ومن بين الشركاء التجاريين الرئيسيين لروسيا في إفريقيا: مصر، والجزائر، والمغرب، حيث تمثل مصر وحدها ٢٨٪ من إجمالي صادرات روسيا إلى القارة. كذلك نيجيريا، وأوغندا، وجنوب إفريقيا، وتونس، وليبيا، والكاميرون، والسودان، وتوجو.^(٨)

جدول رقم (١) الدول الإفريقية التي تمثل أهم الشركاء التجاريين لروسيا لعام ٢٠٢٤ م

الشركاء التجاريون	حجم التجارة (مليار دولار)
مصر	١٨,٤
الجزائر	٩٩,٢
السنغال	٢٢,١
المغرب	٢١,١
نيجيريا	٨٨,٠
أوغندا	٤١,٠
جنوب إفريقيا	٣٤,٠
تونس	٣٢,٠
الكاميرون	٣١,٠
السودان	٣١,٠
توجو	٢٩,٠

Source: "Russia Africa Trade Reached US\$24.5 Billion In 2024," *Russia's Pivot to Asia*, March 4, 2025, <https://tinyurl.com/bdxtndzz>

أما عن الصادرات الروسية إلى إفريقيا، فقد ارتفعت بنسبة ٤٣٪ عام ٢٠٢٣ م، مقارنة بعام ٢٠٢٢ م^(٩) ومعظمها صادرات زراعية، تتجاوز ما قيمته ٧ مليارات دولار، وتعتبر صادرات القمح والشعير والذرة، هي الأعلى؛ إذ تمثل نحو ٨٧٪ من قيمة الصادرات الزراعية الروسية للقارة^(١٠). هذا فضلا عن صادرات الأسمدة، والمنتجات الكيماوية الزراعية (أسمدة الفوسفات والنيروجين). كذلك تصدير المشتقات النفطية، الفحم، والغاز المسال، وخاصة إلى دول شمالي إفريقيا.

ويُعد النفط أحد أهم صادرات روسيا إلى إفريقيا، والتي تزايدت بعد غزو أوكرانيا؛ فقد أرسلت روسيا ٢١٤,٠٠٠ برميل يوميا من المنتجات البترولية المكررة إلى إفريقيا في ديسمبر عام ٢٠٢٢ م، أي ما يقارب ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في ديسمبر عام ٢٠٢١ م^(١١).

شكل رقم (١): صادرات روسيا من النفط إلى إفريقيا خلال الفترة (٢٠١٧ - ٢٠٢٣)
ألف برميل



Source: Tom Wilson, "Russia's growing trade in arms, oil and African politics", *Financial Times*, February 14, 2023, <https://2h.ae/dvxp>

هذا بالإضافة إلى صادرات الأسلحة والمعدات العسكرية؛ إذ تعتبر روسيا من أبرز موردي السلاح للقارة، حيث وقّعت اتفاقيات دفاعية وتعاون عسكري، مع أكثر من ٢٠ دولة إفريقية. وصُنّفت روسيا أكبر مورد أسلحة لإفريقيا عام ٢٠٢٠م، وقد أظهر تحليل أجراه معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام (Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI)، أن حوالي ٣٠٪ من إجمالي الأسلحة المُصدّرة إلى إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، جاءت من روسيا بين عامي ٢٠١٦ و ٢٠٢٠م، وشهد هذا زيادة بنسبة ٢٣٪ في حجم شحنات الأسلحة الروسية، خلال فترة السنوات الخمس السابقة (٢٠٢٠-٢٠٢٤)، مع تخلف الصين (٢٠٪) وفرنسا (٩,٥٪) والولايات المتحدة (٥,٤٪) عن الركب.^(١٢)

وتشمل هذه الواردات الدبابات، والطائرات المقاتلة، والسفن الحربية، والمروحيات، والصواريخ، والأسلحة الصغيرة. وتسيطر مبيعات الأسلحة الروسية على نحو ٤١٪ من إجمالي الأسلحة التي تستوردها القارة الإفريقية، مقارنةً بمبيعات دول مثل: الولايات المتحدة (١٦٪)، وفرنسا (١٦٪)، والصين (١٠٪)، وألمانيا (٦٪)، ودول أخرى (٥٪). وقد وعدت موسكو بإنشاء المزيد من المرافق المشتركة، لإنتاج أو صيانة الأسلحة في القارة، لكنها لم تُوفِّ بوعودها بنقل أي قدرات تكنولوجية.

وأكبر المشترين للسلاح في القارة، هم: الجزائر، وأنجولا، وبوركينا فاسو، ومصر، وإثيوبيا، والمغرب، وأوغندا. وفي العامين الماضيين ٢٠٢٣ \ ٢٠٢٤م فقط، وقّعت شركة روسية مملوكة للدولة في مجال الطيران والدفاع،

وهي: شركة (روسوبورون إكسبورت Rosoboron eksport)، عقودا بقيمة تزيد عن ٣ مليارات دولار مع دول إفريقية، لمزيد من التعاون في مجال الدفاع والأمن. ويتركز تعاون روسيا بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة، مع دول الساحل، وغربي إفريقيا التي تشهد تراجع النفوذ الفرنسي في المنطقة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أصبحت منطقة الساحل محورا للمبادرات الأمنية والدبلوماسية الروسية، بهدف معالجة عدم الاستقرار الإقليمي، وتعزيز النفوذ الجيوسياسي لروسيا. وفي السنوات الأخيرة، رسخت روسيا مكانتها كشريك أممي أساس لدول الساحل، التي تُكافح التمرد، ويتجلى هذا التعاون في تقديم روسيا للمساعدات العسكرية، بما في ذلك إمدادات الأسلحة، وبرامج التدريب، إلى دول مثل: مالي، وبوركينا فاسو،^(١٣) كما تحقق روسيا مكاسب في إفريقيا الناطقة بالبرتغالية؛ حيث أعربت البرتغال عن قلقها إزاء تزايد نفوذها. وقد وقعت جميع الدول الست الناطقة بالبرتغالية في إفريقيا اتفاقيات عسكرية مع روسيا.^(١٤) يضاف إلى ذلك دول الجنوب الإفريقي، التي تمثل جزءا مهما من إستراتيجية روسيا في إفريقيا؛ فالأولى هي مصدر رئيس للأسلحة لدول الجنوب الإفريقي، وأنظمة الأسلحة الروسية مستخدمة في دول مثل أنجولا وزيمبابوي.^(١٥) كما أن جنوب إفريقيا شريك مهم ضمن مجموعة البريكس، مما يوفر منصة إستراتيجية لروسيا، للدخول والتأثير في السياسات الإفريقية.

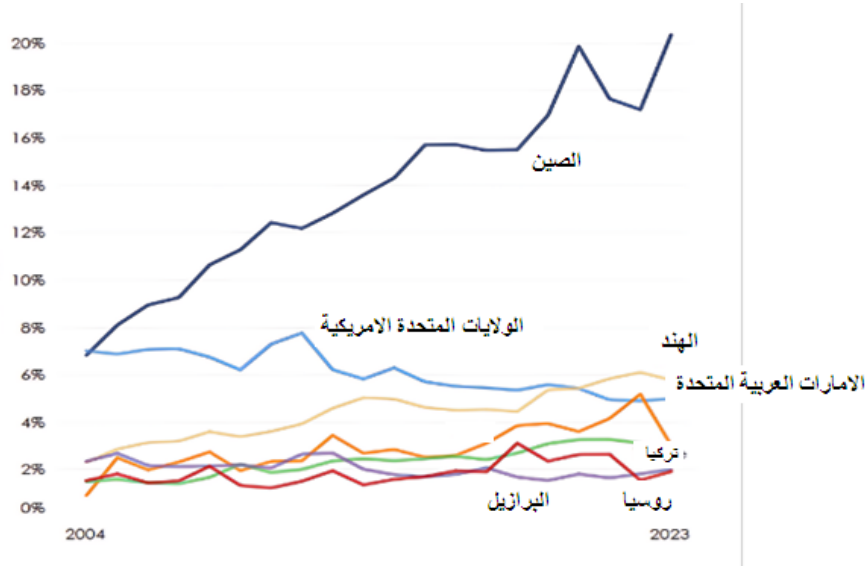
وتُعد مشتريات الأسلحة من روسيا جذابة للعديد من الدول الإفريقية، ليس فقط لأنها أرخص من الأسلحة الغربية، ولكن أيضا، لأنها تأتي دون أي شروط مسبقة، مثل تلك التي تتعلق بالحوكمة، أو حقوق الإنسان. وعندما رفضت إدارة الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما، والحكومات الأمريكية المتعاقبة، بيع طائرات مقاتلة وطائرات هليكوبتر هجومية إلى نيجيريا، على أساس مخاوف تتعلق بحقوق الإنسان، تدخلت روسيا لتسويق قدراتها الدفاعية بنشاط.^(١٦)

أما عن الواردات الروسية من إفريقيا، فهي تستورد معادن إستراتيجية مثل: الكوبالت، والمنغنيز، والبلاتين، والذهب من دول إفريقية (وخاصة من الكونغو الديمقراطية، وجنوب إفريقيا، وزيمبابوي). إضافة إلى المنتجات الزراعية الإفريقية، مثل: الفواكه الاستوائية، والكاكاو، والقهوة، والشاي. لكن قيمتها تظل أقل بكثير، مقارنة بما تصدّره روسيا من الحبوب. ويشكّل القمح والحبوب ما يقارب ٣٠٪ من واردات إفريقيا من روسيا، وتستوردها دولٌ مثل: الجزائر، ومصر، وكينيا، ونيجيريا، وتنزانيا، وجنوب إفريقيا، والسودان. وتشكّل المعادن، مثل: الوقود والكيماويات، والغاز، ٢٠٪ أخرى من صادرات روسيا إلى القارة.^(١٧)

ولا يزال حجم التجارة ضئيلا نسبيا، مقارنة بشركاء تجاريين آخرين. ففي عام ٢٠٢٣م، مثّلت واردات إفريقيا من روسيا أقل من ٢٪ من إجمالي واردات القارة، بينما مثّلت دول الاتحاد الأوروبي السبعة والعشرين والصين ٢٥٪ و١٨٪ من السوق على التوالي. وتمثل الصادرات من إفريقيا إلى روسيا حصة

أصغر من السوق (أقل من ١٪ في عام ٢٠٢٣ مقابل ٣٣٪ للاتحاد الأوروبي و١٢,١٨٪ للصين). وتبلغ حصة الولايات المتحدة حوالي ٥٪ في كل من الصادرات والواردات.^(١٨)

شكل رقم (٢) نسبة الواردات الإفريقية من الشركاء التجاريين العالميين خلال الفترة (٢٠٢٣-٢٠٢٤)



Source: Denys Reva, "Russia's growing influence in Africa calls for more balanced partnerships," Institute for Security Studies, June 26, 2024, <https://2h.ae/ouPAL>

الاستثمارات: تمثل الاستثمارات الروسية إجمالاً، ما يقدر بنحو ١٪ من إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر في إفريقيا، والبالغة نحو ٩٧ مليار دولار لعام ٢٠٢٤ م،^(١٩) وهي نسبة أقل بكثير من الاستثمارات القادمة من أوروبا، وأمريكا الشمالية، والدول الآسيوية،^(٢٠) وركزت روسيا استثماراتها بشكل كبير على استخراج الموارد ومشروعات الطاقة.^(٢١) وفيما يأتي أبرز القطاعات:

- **الاستثمار في البنى التحتية والموانئ واللوجستيات:** أعلنت روسيا عن خطط لإنشاء مراكز لوجستية، وبنى تحتية للموانئ، لدعم الربط التجاري. وهذه الاستثمارات تهدف إلى تعزيز قدرات التصدير، وتسهيل استيراد المواد الخام، وربط الأسواق الإفريقية مباشرة بالمنتجات الروسية.^(٢٢)

والأمثلة على ذلك عديدة، إذ وقعت موسكو قراراً مبدئياً لبناء خط أنابيب للوقود، يربط ميناء بوانتي نوار (Pointe-Noire) بالعاصمة برازاويل، وسيطر عليه التمويل الروسي بنسبة ٩٠٪.^(٢٣) كما طرحت شركة

روسية لوجستية (Delo Group) مقترحا لإنشاء سكة حديد، تربط شرق إفريقيا وغربها، ضمن جهود تطوير النقل عبر القارة. وأكدت روسيا أنها تخطط لإنشاء مراكز لوجستية في الجزائر والسنغال، بهدف تطوير القدرات اللوجستية والنقل البحري والنهري.^(٢٤) كذلك تعمل روسيا ومصر على تعزيز التعاون اللوجستي، والبنى التحتية المرتبطة بممر قناة السويس، لتعزيز الربط بين إفريقيا وآسيا مروراً بالقارة.^(٢٥) بالإضافة إلى شركة (A7 African Cargo Lines LLC) الروسية، التي تأسست في أبريل عام ٢٠٢٥م، لتشغيل خدمات لوجستية، وشحن بحري، تربط روسيا بدول غربي إفريقيا، ومنها مشروع خط شحن بحري مباشر بين ميناء نوفوروسيسك في (روسيا)، وميناء لاجوس في (نيجيريا).^(٢٦)

- **الطاقة والمشروعات النووية:** مثل استثمارات شركة روساتوم (Rosatom) الروسية في بناء مشاريع للطاقة النووية في مصر (محطة الضبعة)، وكذلك الاستثمارات في الحقول النفطية والغاز الطبيعي، مثال: شركة لوكويل (Lukoil) التي توسّعت في استكشاف النفط والغاز قبالة السواحل في غربي إفريقيا، ومشروع محطة طاقة شمسية في مالي، تديره شركة نوفاويند الروسية (NovaWind) ، بقدرة ٢٠٠ ميغاواط تقريباً.^(٢٧)

- **الاستثمار الزراعي:** ويتمثل في مشاركات روسية في الزراعة واسعة النطاق، لتأمين إنتاج محاصيل إستراتيجية، مثل الحبوب وغيرها، ضمن مشروعات مشتركة مع دول إفريقية مثل: شركة روستسل ماش (Rostselmash) الروسية لتصنيع الماكينات الزراعية، والتي توسّعت في إفريقيا، حيث صرّح رئيسها بأن الشركة تزوّد حوالي عشرة دول إفريقية بماكينات الحصاد، وتشمل مصر، والسودان، وزيمبابوي، وجنوب إفريقيا، وهذه الخطوة تمثّل استثماراً روسياً مباشراً في تصدير التكنولوجيا الزراعية، ودعم قدرات الإنتاج في إفريقيا،^(٢٨) كذلك شركة روساجرو (Rusagro) الروسية في قطاع الحبوب، والتي تستهدف شرقي وغربي إفريقيا، لتوريد الحبوب والقمح، ضمن خططها التوسعية عام ٢٠٢٤م. وشركة فوزاجرو (PhosAgro) الروسية، والتي تعتبر مُورداً رئيساً للأسمدة الفوسفاتية إلى إفريقيا، حيث بلغت صادراتها إلى القارة نحو ٨,٦ مليون طن في عام ٢٠٢٤، وتغطي أكثر من ٢١ دولة إفريقية.^(٢٩)

- **التعدين:** وأبرزها مشروع روسي / مشارك في مالي، لإنشاء مصفاة ذهب بتمويل روسي، لتصنيع الذهب محلياً، كذلك استثمارات شركات روسية في استكشاف واستخراج المعادن والموارد الطبيعية، في دول مثل: أنغولا، وغانا، وغيرهما.^(٣٠) وفي عام ٢٠١٥م، ساعد بنك VTB شركة روستيك Roastik الروسية المملوكة للدولة، في مساعيها للاستثمار في منجمين للنحاس والكوبالت، في جمهورية الكونغو الديمقراطية، مملوكين لشركة التعدين الحكومية الكونغولية «جيكامين». وبعد أربع سنوات، بدأ

مشروع مشترك بين «جيكامين» وشركة «سي إن إم سي CNMC» الصينية المملوكة، للدولة الإنتاج في أحد الموقعين، وهو منجم «ديزيوا». (٣٢)

٢- **المساعدات:** تعتبر المساعدات الروسية المباشرة شحيحة نسبياً، ورمزية في الغالب، وتأتي عادةً في شكل إعفاء من الديون، أو مساهمات في الأزمات الإنسانية، وغالباً ما تكون عينية. ففي مارس عام ٢٠٢٤، قدمت روسيا ٥٠ ألف طن من القمح مجاناً إلى جمهورية إفريقيا الوسطى، كجزء من مساعدتها الإنسانية. كما نفذت وزارة الطوارئ الروسية عمليات إنسانية على مدى ست سنوات (منذ عام ٢٠١٧)، قدّمت خلالها أكثر من ١٦ ألف طن من الغذاء إلى ١٧ دولة إفريقية. (٣٣)

ثالثاً- آليات تعزيز التعاون الاقتصادي بين روسيا وإفريقيا:

أعدت روسيا تأكيد مكانتها كشريك رئيس للدول الإفريقية، من خلال الزيارات رفيعة المستوى، والاتفاقيات الثنائية ومتعددة الأطراف، والدبلوماسية العامة، لترسخ مكانتها كبديل فعال للشركاء الغربيين والصينيين. (٣٤) وتظهر أهم تلك الآليات فيما يأتي:

١- **القمة الروسية الإفريقية بسوتشي عام ٢٠١٩م:** وقد كانت هذه القمة بمثابة منصة، لتأكيد رغبة روسيا وإفريقيا في رفع مستوى الشراكة، إلى شراكة تشمل السياسة، والاقتصاد، والأمن، والثقافة. وفيها فتحت صفحة جديدة للعلاقات الإفريقية الروسية، حيث وعد فيها الروسي فلاديمير بوتين بمضاعفة حجم التبادل التجاري مع الدول الإفريقية في غضون خمس سنوات، من ٢٠ مليار دولار عام ٢٠١٩م، إلى ٤٠ مليار دولار على الأقل، سعياً منه لكسب صداقات جديدة. (٣٥) وأعلنت روسيا ودول إفريقية مختلفة عن مشاريع واتفاقيات، تُقدّر قيمتها بمليارات الدولارات، أي، وُفّرت بوادر استثمارية في مجالات: النفط، والغاز، والطاقة النووية، والتعدين، والإنشاءات.

٢- **القمة الروسية الإفريقية الثانية لعام ٢٠٢٣م:** عُقدت في سانت بطرسبرغ، في الفترة ٢٧-٢٨ يوليو ٢٠٢٣م. وأولت القمة اهتماماً لموضوعات مثل: الأمن الغذائي، والأسمدة، والبنية التحتية، والتعاون في الزراعة، والطاقة، والتكنولوجيات الحديثة، والنقل اللوجستي. القمة كانت أيضاً في سياق التوترات الدولية، خاصة النزاع الأوكراني، الأمر الذي أثار على المواقف من بعض الدول الإفريقية، بشأن الحضور والمشاركة.

٣- **خطة العمل الشراكة:** وفي إطار أعمال القمة، تم الإعلان عن وثيقة عمل رسمية معروفة باسم (خطة

العمل الشراكة روسيا - إفريقيا ٢٠٢٣-٢٠٢٦) (Russia-Africa Partnership Forum Action Plan 2023-)

(2026)، تتضمن حوالي ١٨١ بنداً، تغطي قطاعات متنوعة.

٤- المؤتمر الوزاري الأول لمندى الشراكة الروسية - الإفريقية: ويمثل إطاراً مؤسسياً لتعزيز التعاون الروسي- الإفريقي بشكل منتظم. وقد انعقد في سوتشي، خلال الفترة ٩ - ١٠ نوفمبر عام ٢٠٢٤م، ويعتبر أول اجتماع وزاري يتبع قمة روسية - إفريقية التي عُقدت في سانت بطرسبرج عام ٢٠٢٣م، ويُعد جزءاً من إطار الشراكة الذي تم الاتفاق عليه لتقوية التعاون في مختلف المجالات. وتضمن البرنامج ١٩ جلسة موضوعية، وورش عمل ركّزت على مجالات متعددة مثل: الأمن، والاقتصاد، والتعاون التقني، والتحول الرقمي، والصحة، والتعليم، وبناء القدرات، والأمن المعلوماتي. فضلاً عن التأكيد على رغبة الطرفين في استخدام عملات دول صديقة للتسوية المالية، بدلا من الدولار الأمريكي، مع هدف بلوغ ٩٠٪ بحلول عام ٢٠٣٠م. وتعزيز التعاون التقني والعلمي، وتحسين القدرات في الصحة والتعليم.^(٣٦) وفي يونيو عام ٢٠٢٥م، عُقد اجتماع لمجلس وزراء خارجية الاتحاد الروسي، وأكد على أولوية العلاقات الشاملة مع القارة الإفريقية، بما يتماشى مع مفهوم السياسة الخارجية للاتحاد الروسي الذي أقره الرئيس فلاديمير بوتين عام ٢٠٢٣.^(٣٧)

- القمة الروسية- الإفريقية المنتظرة في عام ٢٠٢٦م: وتتمحور المهام الرئيسة لها، حول تطوير التعاون الروسي الإفريقي في جميع المجالات، وأهمها الحفاظ على السيادة الاقتصادية الإفريقية. فضلاً عن المتابعة والتنفيذ لخطة العمل المشتركة (Action Plan 2023-2026) التي أُقرت في القمة الماضية.^(٣٨)

رابعا- انعكاسات العلاقات الروسية - الإفريقية على الاقتصاد الإفريقي:

يمثل الوجود الروسي في إفريقيا فرصة مهمة للعديد من الدول الإفريقية، لتحقيق العديد من المزايا الاقتصادية والتنموية والجيوسياسية؛ حيث تستفيد إفريقيا من دعم موسكو في المحافل الدولية، لقضايا التنمية وتخفيف الديون، وهو ما يمنح القارة مساحة أكبر للمناورة، وتحقيق مصالحها ضمن نظام دولي متعدد الأقطاب. وتتمثل أهم مزايا تلك العلاقات فيما يأتي:

- **تنوع الشركاء الاقتصاديين:** أسهمت روسيا في تقليل اعتماد إفريقيا المفرط على الشركاء التقليديين، مثل الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة، والصين، مما منح الدول الإفريقية هامشاً أوسع للمناورة الاقتصادية والسياسية.^(٣٩)
- **نقل التكنولوجيا والخبرة الفنية:** والتعاون في مجالات الطاقة النووية (كما في مصر، ونيجيريا، وجنوب إفريقيا)، كذلك التعدين والزراعة، مما ساعد في رفع كفاءة الموارد الإنتاجية الإفريقية. كما أسهمت الشركات الروسية في تطوير مشروعات بنية تحتية، ومرافق نقل وتخزين، مما حسّن من قدرات بعض الدول اللوجستية.^(٤٠)

- **الاستثمار في الأمن الغذائي والطاقة:** أصبحت روسيا موردا رئيسا للحبوب والأسمدة والمنتجات البترولية إلى إفريقيا، وهو ما دعم الأمن الغذائي، وحقق من آثار التضخم في عدد من الدول الإفريقية، بعد أزمة أوكرانيا. كما استفادت بعض الدول مثل: زيمبابوي، ومالي، من المساعدات الغذائية الروسية المجانية.
- **تعزيز القدرات الدفاعية والاستقرار السياسي:** من خلال تصدير الأسلحة والتعاون العسكري، عززت روسيا قدرة بعض الأنظمة الإفريقية على مواجهة الجماعات المتمردة والإرهابية، وهو ما وفر بيئة أكثر استقرارا للنشاط الاقتصادي.
- كما تواجه إفريقيا في علاقتها مع روسيا عدة تحديات، تؤثر بشكل نسبي على جدوى المزايا السابق الإشارة إليها، وتتمثل فيما يأتي:
- **اختلال هيكل التجارة:** تظل الصادرات الإفريقية إلى روسيا محدودة، وتعتمد في الغالب على المواد الخام، مثل: (الذهب، والكاكاو، والمعادن)، مقابل استيراد الأسلحة والمنتجات الصناعية والغذائية، مما يُعمق العجز التجاري، ويحد من فرص نقل الخبرات الصناعية أو التكنولوجية إلى إفريقيا، وبالتالي يظل النمو محدود القيمة المضافة.
- **تراجع الشفافية وضعف الحوكمة:** بعض الاستثمارات الروسية، خاصة في مجالات التعدين، والطاقة، تفتقر إلى الشفافية، وتخضع لعقود غامضة، ما يثير مخاوف من استنزاف الموارد، دون عائد تنموي ملموس.^(٤١) وغالبا ما تُدار هذه المشاريع عبر اتفاقات ثنائية مغلقة، لا تُعلن تفاصيلها المالية أو القانونية، مما يثير تساؤلات حول مدى توافقها مع معايير الحوكمة الرشيدة والمساءلة العامة. كما أن بعض الشركات الروسية، مثل «فاغنر» سابقا، وشركات التعدين التابعة لها، ارتبطت بتقارير عن الفساد، واستغلال الموارد الطبيعية، في مقابل دعم سياسي أو أمني للنخب الحاكمة، لا سيما في دول مثل جمهورية إفريقيا الوسطى، ومالي، والسودان.
- ويؤدي غياب الشفافية إلى إضعاف ثقة المواطنين المحليين في هذه المشاريع، ويحد من قدرتها على تحقيق تنمية مستدامة، تعود بالنفع الحقيقي على المجتمعات الإفريقية. كما أنه يُصعب على الحكومات الإفريقية مراقبة الأداء المالي والتقني للمشروعات الروسية، مما يجعلها عرضة لمخاطر مالية وقانونية طويلة الأجل، وهو ما يعكس الحاجة إلى إصلاحات مؤسسية، وضمانات رقابية أكثر صرامة.^(٤٢)
- **البُعد الجيوسياسي:** تمثل إفريقيا أحد المحاور الرئيسية في سياسة موسكو الخارجية، لتوسيع نفوذها خارج الإطار الأوروبي، خصوصا بعد العقوبات الغربية، التي تلت الحرب في أوكرانيا؛ إذ تسعى روسيا إلى تأسيس موطئ قدم دائم في القارة، عبر الشراكات الاقتصادية والعسكرية والثقافية؛ وبالتالي، فإن انخراط روسيا في القارة يرتبط أحيانا بمصالح سياسية وأمنية، أكثر من اقتصادية، ما يجعل بعض

الدول الإفريقية رهينة للتوازنات الدولية بين موسكو والغرب. ومع تراجع الغرب، تملأ روسيا الفراغ بسرعة، مُدمجةً نفسها في الهياكل الأمنية، ومُوسَّعةً نفوذها خارج حدودها. ولا يقتصر الأمر على النفوذ السياسي فحسب؛ فروسيا هي المورد الرئيسي للأسلحة إلى إفريقيا.^(٤٣)

- **ضعف التوزيع القطاعي للاستثمارات:** تركزت أغلب الاستثمارات الروسية في مجالات الطاقة والتعدين، مع غياب نسبي للاستثمار في قطاعات التعليم، والصحة، والتكنولوجيا، وهو ما يحد من أثرها التنموي طويل الأجل.^(٤٤)

خاتمة

تتسم العلاقات بين روسيا وإفريقيا بطابعها الإستراتيجي المتعدد الأبعاد؛ إذ لم يكن لروسيا أي وجود استعماري رسمي في القارة من قبل، وهو ما منحها قدرا من القبول لدى العديد من الدول الإفريقية. وتجمع هذه العلاقات بين التعاون الاقتصادي والدبلوماسي، والتنسيق في مجالات الأمن والطاقة، والتكنولوجيا. وترى موسكو في إفريقيا شريكا واعدة لتعزيز نفوذها الدولي، خاصة في ظل تزايد المنافسة العالمية على موارد وأسواق القارة، بينما تسعى الدول الإفريقية إلى تنويع شركائها الاقتصاديين وتقليل الاعتماد على القوى الغربية. ويمكن القول: إن العلاقات الروسية - الإفريقية، تمثل فرصة إستراتيجية لتعزيز النمو الإفريقي، وتنويع الشركاء الاقتصاديين، بما يحقق المصالح المتبادلة للطرفين؛ إذ تستفيد إفريقيا من الخبرات الروسية في مجالات الطاقة والدفاع، بينما تجد روسيا في القارة سوقا واعدة ومصدرا مهما للموارد والدعم السياسي في المحافل الدولية. وهكذا أصبحت الشراكة الروسية - الإفريقية إحدى أدوات موسكو، لتعزيز نفوذها العالمي، وإعادة صياغة توازن القوى في مواجهة الغرب والصين داخل القارة. ولكن رغم ما تحققه هذه العلاقات من فرص، فإنها ما تزال تواجه تحديات تتعلق بتحقيق التنمية المستدامة وضمان توازن المصالح بين الجانبين. ولتحويل هذه العلاقات إلى شراكة تنموية حقيقية، فإنه ينبغي على القارة الإفريقية، أن تتعامل مع روسيا بقدر أكبر من الوعي الإستراتيجي، من خلال التركيز على المشروعات الإنتاجية المشتركة، ونقل التكنولوجيا والمعرفة، وتطوير آليات تمويل شفافة ومستدامة، إلى جانب توافق إستراتيجي يخدم أولويات التنمية الإفريقية. **وخلاصة القول:** فإن الوجود الاقتصادي الروسي في إفريقيا، يمثل مزيجا من الفرص والتحديات؛ فبينما تسعى موسكو إلى استعادة مكانتها في القارة، فإن البيئة التنافسية الشديدة، والتحديات التمويلية والسياسية، تفرض عليها ضرورة تبني مقاربة أكثر شمولاً واستدامة. وتمتلك إفريقيا، من جانبها، فرصة حقيقية، لتحقيق تنمية متوازنة، وتنويع في الشراكات الاقتصادية، إذا ما أحسنت توظيف هذا التعاون، بما يخدم مصالحها الوطنية، ويسهم في تعزيز التكامل الإقليمي والتنمية المشتركة.

- (1) "Russia in Africa: What's behind Moscow's push into the continent?," *BBC News*, May 7, 2020, <https://2h.ae/pcwm>
- (2) "FACTBOX: How Russia cultivated ties with African nations," (TASS) Russian News Agency, January 23, 2023, <https://2h.ae/uyqm>
- (3) Mathieu Droin and Tina Dolbaia, "Russia is still Progressing in Africa, What's the limit?," Center for Strategic & International Studies, August 15, 2023, <https://2h.ae/bUtR>
- (4) Defense Analysis Team, "The New Scramble for Africa: How Russia and China Are Reshaping the Continent," *The Defense info*, August 31, 2025, <https://2h.ae/NZZjh>
- (5) Zineb Riboua, "The Rise of Russia's African Empire," Hudson Institute, April 22, 2025, <https://tinyurl.com/mvtvucje>
- (6) Seun Bamidele and Nicholas Idris Erameh, "Moscow's African relations: Unveiling Russia's strategy in Africa and its impact on global politics," *Security Defense Quarterly Journal*, 51: 3, March 2025, <https://2h.ae/CMCie>
- (7) Abhishek Mishra, "Russia's Low-Risk, High-Reward Strategy for its Return to Africa," ORF research and analyses, October 12, 2023, <https://2h.ae/NEddZ>
- (8) "Russia Africa Trade Reached US\$24.5 Billion In 2024," *Russia's Pivot to Asia*, March 4, 2025, <https://tinyurl.com/bdxtndzz>
- (9) "Trade between Russia and Africa Grows 37% in 2023", *Ecofin Agency*, November 18, 2024, <https://2h.ae/gKbfu>
- (10) "Russia boosts agricultural exports to Africa 19% to over \$7 bln in 2024", *Interfax Information Group*, March 10, 2025, <https://2h.ae/AOro>
- (11) Tom Wilson, "Russia's growing trade in arms, oil and African politics", *Financial Times*, February 14, 2023, <https://2h.ae/dvxp>
- (12) Isaac Kaledzi, "Where do Russia's ties with Africa stand?," *Deutsche Welle*, July 25, 2023, <https://2h.ae/jEXc>
- (13) Seun Bamidele and Nicholas Idris Erameh, "Moscow's African relations: Unveiling Russia's strategy in Africa and its impact on global politics".
- (14) Denys Reva, "Russia's growing influence in Africa calls for more balanced partnerships," *Institute for Security Studies*, June 26, 2024, <https://2h.ae/ouPAL>
- (15) Theo Neethling, "Russia's Focus in Africa: Energy, Metals and Weapons," *Italian Institute for International Political Studies*, October 31, 2019, <https://2h.ae/ouPAL>
- (16) Ronak Gopaldas, "Will the Invasion of Ukraine Change Russia-Africa Relations?," *The Carnegie Endowment for International Peace*, April 26, 2023, <https://2h.ae/AEcGD>
- (17) Ronak Gopaldas, "Will the Invasion of Ukraine Change Russia-Africa Relations?"
- (18) "Russian trade with Africa in a snapshot", *European Parliamentary Research Service*, 2025, <https://2h.ae/xuVf>
And Mark Banchereau, "What to know about Russia's growing influence in Africa," *PBS News*, June 6, 2024, <https://2h.ae/ltDV>
- (19) "Africa: Foreign Investment Hit Record High in 2024," *UN Trade and Development (UNCTAD)*, June 19, 2025, <https://2h.ae/YeKvX>

-
- (20) Joseph Siegle, "Decoding Russia's Economic Engagements in Africa," Africa Center for Strategic Studies, January 6, 2023, <https://2h.ae/IDyV>
 - (21) Ronak Gopaldas, "Will the Invasion of Ukraine Change Russia-Africa Relations?"
 - (22) "Russia Plans to Invest in Infrastructure Projects in Africa," *Sputnik Africa*, May 14, 2025, <https://2h.ae/PgjYi>
 - (23) "Russia clears fuel pipeline construction in Congo," *Reuters*, September 17, 2024, <https://2h.ae/dQyYT>
 - (24) "Russian holding Delo proposes to build a railway through Africa," African Initiative, September 17, 2024, <https://2h.ae/GHbYb>
 - (25) Chimauchem Nwosu, "Suez Synergy: Russia, Egypt Forge Strategic Path for Global South Cooperation," *Sputnik Africa*, 2025, <https://2h.ae/udvgb>
 - (26) Kester Kenn Klomegah, "A7 African Cargo Lines Connecting West Africa with Russia – OpEd," Eurasia Review, April 28, 2025, <https://2h.ae/nKAUx>
 - (27) Victor J. Bassey, "These Russian companies are expanding their presence in Africa's energy sector," Energy in Africa, April 11, 2025, <https://2h.ae/rTuAs>
 - (28) Ekaterina Shilova, "Russian Agricultural Machinery Manufacturer Expanding Its Reach in Africa," *Sputnik Africa*, February 10, 2025, <https://2h.ae/OytyE>
 - (29) Ekaterina Shilova, "Russian Agricultural Machinery Manufacturer Expanding Its Reach in Africa".
 - (30) Kester Kenn Klomegah, "A7 African Cargo Lines Connecting West Africa with Russia – OpEd".
 - (31) Victor J. Bassey, "These Russian companies are expanding their presence in Africa's energy sector".
 - (32) "Russia's growing trade in arms, oil and African politics," *Financial Times*, 2025, <https://2h.ae/dvxp>
 - (33) "Russian Emergencies Ministry delivers 16,000 metric tons of food to Africa over six years," Russian News Agency, February 28, 2023, <https://2h.ae/tXESI>
 - (34) Ronak Gopaldas, "Will the Invasion of Ukraine Change Russia-Africa Relations?"
 - (35) "Second Summit Russia–Africa Economic and Humanitarian Forum," The Roscongress Foundation, 2023, <https://2h.ae/vmlGt>
 - (36) "First Russia-Africa Partnership Forum's Ministerial Conference Begins in Russia's Sochi", *Sputnik Africa*, November 9, 2024, <https://2h.ae/LooLc>
 - (37) Kester Kenn Klomegah, "Russia Enhancing its Economic and Investment ties in Africa," Modern Diplomacy, June 14, 2025, <https://2h.ae/Crler>
 - (38) "Russia - Africa summit to be held in 2-3 years on African continent — Lavrov," Russian News Agency, September 14, 2024, <https://2h.ae/XQGIg>
 - (39) Joseph Siegle, "Decoding Russia's Economic Engagements in Africa".
 - (40) "The promises and challenges of Russia-Africa economic exchanges," Fatshimetrie, November 14, 2024, <https://2h.ae/Vtdpr>
 - (41) Robert E. Hamilton, "The Dragon and the Bear in Africa: Stress-Testing Chinese-Russian Relations," Foreign Policy Research Institute, November 2023, <https://2h.ae/wEWg>
 - (42) Miłosz Bartosiewicz, "Controlled chaos: Russia's Africa policy," OSW Commentary, August 23, 2023, <https://2h.ae/TsXd>
 - (43) Zineb Riboua, "The Rise of Russia's African Empire".
 - (44) Joseph Siegle, "Decoding Russia's Economic Engagements in Africa".

تهديد مركّب: العلاقة بين التنظيمات الإرهابية والجريمة المنظمة بالساحل الإفريقي

تقى النجار، باحثة متخصصة في قضايا الإرهاب، القاهرة.

تشهد منطقة الساحل الإفريقي تنامي العديد من التهديدات الأمنية المركّبة؛ فثمة تشابك بين الأزمات الأمنية والسياسية والاقتصادية، ما يجعلها بيئة خصبة، لتصاعد نشاط التنظيمات الإرهابية، وشبكات الجريمة المنظمة العابرة للحدود الوطنية. ومع التحديات التي تواجهها الدول في المنطقة؛ حيث ضعف مؤسساتها الوطنية، بجانب تنامي الخلافات الإثنية، فضلا عن هشاشة الحدود البيئية، فقد برز تهديد مركّب، متعلق بانخراط التنظيمات الإرهابية في أنشطة الجريمة المنظمة، بما يشكل تحولا بارزا في طبيعة التهديدات الأمنية في المنطقة، ويفضي إلى العديد من التداعيات الواسعة، التي تفاقم المشهد الأمني المضطرب بالفعل. ومن ثمّ، تهدف هذه الورقة إلى تفكيك هذا المشهد المتشابك، عبر استعراض دوافع التنظيمات الإرهابية للانخراط في أنماط الجريمة المنظمة العابرة للحدود، مع ذكر نماذج عدة لتوضيح تلك العلاقة، فضلا عن تفسير التداعيات التي تترتب على هذا النمط من التفاعل، وذلك من خلال المحاور الآتية:

أولا- دوافع رئيسة

ثمة دوافع رئيسة، تقف خلف انخراط التنظيمات الإرهابية، في أنشطة الجريمة المنظمة العابرة للحدود، ويمكن تناولها على النحو الآتي:

١- **التمويل:** تنخرط التنظيمات الإرهابية في منطقة الساحل، في العديد من شبكات الجريمة المنظمة عبر الحدود، بسبب احتياجاتها التمويلية؛ حيث تتورط تلك التنظيمات في أنواع متعددة من الاقتصاديات غير المشروعة، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الاتجار بالمخدرات، والأسلحة، والبشر، وسرقة الماشية، والوقود، والصناعات الاستخراجية، عبر مسارات متنوعة ومتغيرة باستمرار، طبقا للمناطق الخاضعة لسيطرتها.^(١)

وفضلا عن ذلك، تقدم التنظيمات الإرهابية خدمات أمنية لشبكات الجريمة المنظمة، حيث تضمن مرورا

أمنًا للسلع والبشر، إلى شبكات الجريمة المنظمة عبر الحدود، مقابل دفع ضريبة، وعادةً ما تكون ٢,٥٪ من القيمة الإجمالية للبضائع، ولكنها قد تصل أحياناً إلى ١٠٪.^(٢)

وبمراجعة عدد من الأدبيات، التي اهتمت بدراسة وتحليل العلاقة بين الإرهاب والجريمة المنظمة، العابرة للحدود الوطنية، فثمة أربعة أنماط رئيسية، تصف العلاقات المتباينة التي تربط بينهما، ويتعلق أولها بالانخراط المباشر، أي: تورط التنظيمات الإرهابية بشكل مباشر في الأنشطة الإجرامية، وينصرف ثانيها إلى التعايش، حيث بقاؤهما في النطاق الجغرافي ذاته، لممارسة النشاط العملياتي لكل منهما، مع وجود اتفاقيات حول تقاسم مناطق السيطرة والنفوذ، ويشير ثالثها إلى التعاون، بما يعني تدشين علاقات تعاون بينهما من أجل تحقيق مصالح متبادلة، ويدور رابعها حول الاندماج، حيث اندماج كلا الكيانين بالكامل في كيان هجين، يجمع بين صفات الإجرام والإرهاب.^(٣)

وعلى الرغم من تعدد أنماط العلاقات التي تجمع بينهما، إلا أن التمويل يُعد الدافع الرئيس في الارتباط بين الإرهاب والجريمة المنظمة، وذلك على خلفية أن المحرك الأساس لاستمرار أي فاعل عنيف من دون الدول، هو قدرته على توليد الأموال اللازمة، لبناء وتعزيز ودعم القدرات اللوجستية والتنظيمية له.

٢- الوصول إلى الموارد: تستخدم التنظيمات الإرهابية شبكات الجريمة المنظمة العابرة للحدود، وذلك بهدف الوصول إلى الموارد التي تحتاجها لمواصلة عملياتها. ويعد وصول تلك التنظيمات للأسلحة غير المشروعة، أبرز مثال على ذلك الطرح. وبصفة عامة، تأتي الأسلحة غير المشروعة المتداولة في منطقة القرن الإفريقي، ومنطقة غربي إفريقيا، من مصادر مختلفة، وأولها مخزون الأسلحة الذي تحصلت عليه التنظيمات الإرهابية من الجيوش الوطنية، بعد الهجوم على قواعدها العسكرية، وثانيها مخزون الأسلحة المسروقة من الترسانة الليبية، عقب سقوط حكومة معمر القذافي.^(٤)

وتشير الأبحاث، إلى أن الأسلحة المباعة للتنظيمات الإرهابية في غربي إفريقيا، يتم تداولها بين كافة الفواعل العنيفة من دون الدول في المنطقة.^(٥) وبالإضافة إلى ذلك، تقدم تلك التنظيمات الأسلحة للمجتمعات التي تسعى إلى بناء علاقة معها، أو كجزء من «الحماية» التي توفرها لهذه المجتمعات.^(٦) وفي هذا السياق، أفادت تقارير مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة، بأنه على الرغم من قيام التنظيمات الإرهابية بممارسة دور نشط في تجارة الأسلحة، فإنها لا تحقق مكاسب مالية كبيرة منها، وإنما تحصل على فوائد غير مباشرة من وراء هذا الدور.^(٧)

كما تستخدم التنظيمات الإرهابية شبكات تابعة للجريمة المنظمة العابرة للحدود، للوصول إلى المواد الكيميائية التي تستخدمها في عملياتها، ويُعد قطاع الصناعات الاستخراجية، وخاصة تعدين الذهب، مثالا

على ذلك، نظرا لاعتماده على مواد تدخل ضمن المكونات الأساسية لصناعة المتفجرات. وقد كشفت عمليات نفذها الإنترنتبول في الفترة ما بين عامي ٢٠٢٠ و٢٠٢٢م، عن ضبط مئات الكيلوغرامات من المتفجرات في عهدة تنظيمات إرهابية، كانت موجهة في الأساس إلى قطاع التعدين.^(٨)

ثانيا - نماذج متعددة

هناك عدد من التنظيمات الإرهابية في منطقة الساحل، انخرطت في أنشطة الجريمة المنظمة العابرة للحدود، ويمكن استعراض أبرزها، وعلى النحو الآتي:

١- جماعة نصرة الإسلام والمسلمين

انخرطت جماعة «نصرة الإسلام والمسلمين» في عدد من الاقتصادات غير المشروعة، مثل: الاختطاف مقابل الفدية، وسرقة الماشية، وسرقة الوقود، وتعددين الذهب، حيث تشير التقديرات إلى أن الإيرادات السنوية للجماعة، بلغت في عام ٢٠١٧م، ما يتراوح بين ١٨ و٣٥ مليون دولار، فيما يُقدر أن الاختطاف مقابل الفدية وحده، يُمثل ما يصل إلى ٤٠٪ من مصادر تمويلها.^(٩)

وقد زادت الجماعة من انخراطها في عمليات الاختطاف في بوركينا فاسو منذ عام ٢٠١٧م، حيث احتاجت إلى زيادة إيراداتها لتمويل القتال العنيف ضد تنظيم «داعش» في منطقة الساحل شمالي مالي، وضد القوات المسلحة المالية وسط مالي.^(١٠) وتعد أحدث عمليات الخطف، ما قامت به الجماعة من اختطاف اثنين من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة، وقد تم التوصل لاتفاق لتحريرهم، مقابل الحصول على فدية ضخمة تقدر بنحو ٥٠ مليون دولار.^(١١)

وإلى جانب الفوائد الاقتصادية التي تتحقق للجماعة من عملية الاختطاف، فإن قيامها باختطاف أفراد بارزين، أسهم في تحسين وضعها التفاوضي، أثناء مفاوضاتها مع الحكومة الانتقالية المالية عام ٢٠٢٠م، ففي إطار عملية تبادل رئيسة للسجناء، أفرجت الجماعة عن أربع راهن، وهم: «سومايلا سيسييه» (أحد أبرز رموز المعارضة في مالي)، وعاملة الإغاثة الفرنسية «صوفي بيترونين»، بالإضافة إلى رهينتين إيطاليتين هما: «بييرلويجي ماكالي»، و«نيكولا شياكيو»، مقابل إطلاق سراح نحو ٢٠٠ إرهابي تابع لها، وقد ذهبت بعض التحليلات، إلى أنها حصلت على ٣٠ مليون يورو أثناء عملية التبادل.^(١٢)

كما لعبت سرقة الماشية دورا مهما في تمويل الجماعة؛ ففي مقاطعة يوارو (الواقعة في منطقة موبتي بمالي) وحدها، قدرت المبادرة العالمية لمكافحة الجريمة المنظمة العابرة للحدود الوطنية، أنها حققت إيرادات بلغت ٤٤٠ مليون فرنك إفريقي (٧٣٩,٢٠٠ دولار أمريكي) من سرقة الماشية في عام ٢٠٢١.^(١٣)

كذا تلجأ الجماعة إلى سرقة شاحنات الوقود أيضا؛ حيث تُعد صهاريج الوقود سعة ١٤,٠٠٠ لتر، من أكثر أنواع المركبات، عرضة للاختطاف من قبل الجماعة. لكن ثمة مصادر أشارت إلى أنها تحصل على الوقود، عبر التنسيق مع عصابات تهريب وقود أكثر تنظيماً؛ فعلى سبيل المثال، اختطف عناصر الجماعة ١٤ ناقلة وقود، على محوري ماتياكوالي وكاننتشاري شرقي بوركينافاسو، في يونيو عام ٢٠٢٢م. وقد استبعد العديد من المراقبين، بأن يكون الحادث عملية اختطاف تقليدية، بل من المرجح أن يكون عملية تسليم وقود مخطط لها بين عصابات التهريب وعناصر الجماعة.^(١٤)

أما فيما يتعلق بتعدين الذهب، فثمة صعوبة في تقدير حجم الأموال التي تجنيها من التعدين، وتجارة الذهب غير المشروعة، ومع ذلك فيعتقد أن الذهب مصدر أساس لتمويلها، إذ تحصل على الإيرادات من قطاع الذهب، سواء بشكل مباشر من خلال ممارسة السيطرة على مواقع تعدين الذهب الحرفي، أو بشكل غير مباشر، من خلال سيطرتها على المجتمعات المحلية، أو طرق النقل من مواقع المناجم وإليها، عبر فرضها إتاوات مقابل توفيرها الحماية.^(١٥)

٢- تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي

انخرط تنظيم «القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي» في نمطين أساسيين، من أنشطة الجريمة المنظمة العابرة للحدود، وهما اختطاف الأجانب مقابل للهدية، وتوفير الحماية والأمن لقوافل المخدرات، مقابل نسبة مئوية. وتتفاوت التقديرات المتعلقة بحجم الإيرادات التي يحققها التنظيم من عمليات الاختطاف، لكن تشير الأرقام إلى أنه في الفترة الممتدة من ٢٠٠٣ إلى ٢٠١٢، حقق ما يقرب من ٨٩ مليون دولار، مع التركيز على مواطني الدول الأوروبية.^(١٦)

كذا يشارك التنظيم في تهريب المخدرات؛ حيث يحصل على «عمولة» مقابل المخدرات التي تمر عبر «أراضيه»، أو مقابل توفيره الحماية للشحنات المهربة في المناطق الجغرافية الوعرة في منطقة الساحل.^(١٧) وتُوفّر الأموال المُحصّلة من تلك الأنشطة، تمويل الأهداف الدعوية والتجنيديّة للتنظيمات الإرهابية، فضلا عن استخدامها في شراء الأسلحة، والأدوية، والأغذية، والمركبات.^(١٨)

وعلى الرغم من غياب تقديرات واضحة، تعكس مدى استفادة التنظيم مالياً من تجارة الأسلحة، من خلال الشراء والنهب، وربما المقايضة، فإن الأدلة تشير إلى أنه جمع ترسانة ضخمة من الأسلحة الثقيلة، مثل صواريخ سام المضادة للطائرات، والدبابات، ونقلها إلى منطقة الساحل،^(١٩) ثم نُقلت في مرحله لاحقة إلى جماعات مثل «أنصار الدين»، و«بوكو حرام»، وحركة «التوحيد والجهاد في غرب إفريقيا»، ما مكنها من شن هجمات موسعة.^(٢٠)

٣- بوكو حرام

جنت «بوكو حرام» مصادر تمويلها من معاملات إجرامية متعددة، بما في ذلك الخطف مقابل الفدية، والاتجار بالبشر، وسرقة الماشية، وتجارة الأسلحة؛ فقد بدأت في توظيف تكتيك الخطف، منذ عام ٢٠١٢م، مع إصدار زعيمها آنذاك «أبو بكر شيكاو» رسالة فيديو، يهدد فيها بخطف زوجات المسؤولين الحكوميين، ردا على قيام الحكومة النيجيرية بسجن زوجات أعضاء الجماعة.^(٢١) وفي أبريل عام ٢٠١٣م، تلقت فدية قدرها ٣ ملايين دولار من عائلة فرنسية، مقابل الإفراج عن أجنبي، وعدت هذه الحادثة من ضمن حوادث اختطاف عدة، قامت بها مقابل حصولها على فدية.^(٢٢)

وعلى صعيد موازٍ، مارست الجماعة تكتيك الاختطاف بغرض الاتجار بالبشر؛ حيث اختطفت نحو ٢٧٦ فتاة من المدرسة الثانوية في شيبوك عام ٢٠١٤م، كما اختطفت ١١٠ فتيات آخر، من المدرسة الثانوية في دابشي عام ٢٠١٨م، بغرض تزويجهن قسرا، واستغلالهن في العبودية الجنسية.^(٢٣) كما أجبرت النساء على تنفيذ عمليات انتحارية؛ ففي الفترة ما بين أبريل عام ٢٠١١ ويونيو عام ٢٠١٧م، نفذت الجماعة ما لا يقل عن ٤٣٤ هجوما انتحاريا، منها ٢٤٤ هجوما تم تنفيذها من قبل النساء.^(٢٤)

وكذا انخرطت في عمليات سرقة الماشية، وفرض إتاوات على الرعاة، وقام أعضاؤها بالاستيلاء على الماشية المخصصة للبيع في المجتمعات المحلية؛ فعلى سبيل المثال، أفادت التقارير أنه في ٩ سبتمبر عام ٢٠١٤م، استولت «بوكو حرام» على حوالي ٧٠٠٠ بقرة من تشاد، كانت متجهة إلى مدينة «مايدجوري» في ولاية بورنو.^(٢٥) وقد أفادت تقارير أممية صادرة في فبراير عام ٢٠٢٥م، أنها تفرض إتاوات بمقدار ٤ إلى ٥ أبقار لكل ١٢٠ بقرة، بينما يتلزم على الرعاة، دفع مبلغ يتراوح بين ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ نيرة لكل قطيع من البقر، ومبلغ يتراوح بين ٢٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ نيرة لكل قطيع من الغنم أو الماعز، للسماح لها بالوصول إلى المراعي، وهذه الرسوم ليست ثابتة وإنما متغيرة، ويمكن تعديلها حسب الحاجة إلى الأموال.^(٢٦)

وقد أسهمت الحدود النيجيرية غير المحكّمة، في انخراط «بوكو حرام» في تجارة الأسلحة أيضا؛ حيث أصبح تهريب الأسلحة ممكنا بفضل سهولة اختراق الحدود، وقد كشفت هيئة الهجرة النيجيرية في عام ٢٠١٤م، عن وجود أكثر من ١٤٠٠ طريق حدودي غير شرعي في البلاد.^(٢٧)

ومع استمرار نشاط «بوكو حرام» في تهريب الأسلحة، فقد اعترضت قوات الأمن مئات الأسلحة، بما في ذلك قاذفات آر بي جي، وقاذفات صواريخ، وصواريخ مضادة للطائرات، وبنادق AK-٤٧ في مواقع مختلفة شمال شرقي نيجيريا. وقد تنوعت الأساليب التي استخدمتها الجماعة في تهريب الأسلحة إلى نيجيريا، حيث تُخفي الأسلحة، وتُنقل عبر الحدود، بمساعدة الرعاة الرحل، ويُعتقد أن هذه الأسلحة وصلت إلى نيجيريا من ليبيا ومالي.^(٢٨)

ثالثا - تداعيات واسعة

في ضوء ما تقدم، ثمة تداعيات واسعة لانخراط التنظيمات الإرهابية، في أنشطة الجريمة المنظمة العابرة للحدود على منطقة الساحل، ويمكن استعراضها على النحو الآتي:

١- عرقلة جهود مكافحة الإرهاب

يوفر انخراط التنظيمات الإرهابية في أنشطة الجريمة المنظمة العابرة للحدود موارد اقتصادية، ويُعاد استثمار الأموال التي يتم الحصول عليها من الأسواق غير المشروعة - بشكل مباشر وغير مباشر - في الأسلحة والمركبات،^(٢٩) وبالتالي تعزز تلك الأموال من قدرة التنظيمات الإرهابية على الصمود اقتصاديا، عبر تنويع مصادر الدخل، وهذا على صعيد، وعلى صعيدٍ آخر، تؤدي العلاقة بين كل من التنظيمات الإرهابية والجريمة المنظمة، إلى ترسيخ العنف؛ حيث يشكل الاتجار بالأسلحة النارية، أساسا لنسبة كبيرة من العنف، المنتشر في جميع أنحاء منطقة الساحل. ويرتبط الاتجار بالأسلحة النارية ارتباطا وثيقا بتجارة الذهب غير المشروعة، وكذا يرتبط أيضا بالجرائم العنيفة، مثل: الاختطاف مقابل الفدية، وسرقة الماشية، وهو ما يغذي ديناميكيات الصراع في المنطقة، ويزيد من معدلات العنف المترفعة بالفعل.^(٣٠) وبالتالي ينعكس هذا التفاعل بشكل مباشر، على جهود مكافحة الإرهاب، سواء على صعيد تعزيز الصمود المالي للتنظيمات الإرهابية، أو توسيع نطاقات انتشار العنف.

٢- تقويض جهود التنمية

يقوض انخراط التنظيمات الإرهابية في أنشطة الجريمة المنظمة المجتمعات المحلية، من ممارسة حقوقها في الوصول إلى الموارد الاقتصادية، بما في ذلك ملكية الأراضي، أو الموارد الطبيعية. كما يقلل بشكل مباشر من موارد الدولة، التي يمكن استخدامها للحماية الاجتماعية؛ حيث يحرم تهريب البضائع - مثل الذهب والوقود - دول الساحل من عائدات ضريبية كبيرة، مما يحدُّ من الموارد المتاحة لتمويل أنظمة الرعاية الاجتماعية، ودفع عجلة التنمية الاقتصادية.

فعلى سبيل المثال، قَدَّرت لجنة برلمانية في بوركينا فاسو، أن تهريب الذهب، يُكَلِّف خسارة مالية تزيد عن ٤٩٠ مليون دولار أمريكي سنويا، وهو ما يتجاوز الإنفاق المخصص لقطاع الصحة العامة في بوركينا فاسو في عام ٢٠٢٣م، (٢٩٤,٥ مليار فرنك إفريقي، أي ما يعادل حوالي ٤٧٩ مليون دولار أمريكي). وفي النيجر، قَدَّرت الهيئة العليا لمكافحة الفساد والجرائم ذات الصلة (HALCIA)، أن تهريب الوقود بين عامي ٢٠١٧ و ٢٠١٨م، يُكَلِّف خسارة مالية تزيد عن ١٥,٨ مليون دولار أمريكي.^(٣١) ومن ثم،

تفصي سيطرة التنظيمات الإرهابية على الموارد، بغرض التجارة غير المشروعة، إلى تعثر جهود التنمية في دول الساحل.

٣- تنامي العنف الجنسي

ينعكس انخراط التنظيمات الإرهابية في أنشطة الجريمة المنظمة إلى تنامي معدلات العنف الجنسي؛ حيث استهدفت التنظيمات الإرهابية النساء والفتيات بالاختطاف، ومن ثم العنف الجنسي، وأبرز الأمثلة على هذا، جماعة «بوكو حرام» في منطقة الساحل؛ ففي حملتها الإرهابية ضد الدولة النيجيرية، وظفت العنف الجنسي كتكتيك إرهابي، حيث تم العثور على غالبية النساء اللواتي تم إنقاذهن، أو الهاريات من الجماعة وهنَّ حوامل، وهو ما تم اعتباره جزءاً من خطة ممنهجة من قبل «بوكو حرام»، لتوسيع أيديولوجيتها وتمردھا.^(٣٢)

ويمكن تفسير توظيف التنظيمات الإرهابية لتكتيك العنف الجنسي، على خلفية أن استخدام هذا التكتيك ليس له تأثير على النساء فقط، بل يمتد تأثيره إلى المجتمع كله، مما يسمح للتنظيمات بتحقيق الهيمنة والنفوذ، كما أنه يحقق (البروباجنده) الدعائية للتنظيمات الإرهابية؛ إذ إن ممارسة أشكال مروعة من العنف، تجذب انتباه وسائل الإعلام.^(٣٣)

٤- ارتفاع معدلات اللجوء والنزوح

تعتمد المجتمعات في جميع أنحاء منطقة الساحل على الزراعة والرعي، وخلال السنوات الماضية، أدت التغيرات في النظام البيئي إلى تفاقم أزمة ندرة الغذاء، والتنافس على الموارد، مما عرّض الملايين لخطر انعدام الأمن الغذائي. وتزامن ذلك مع تصاعد الهجمات التي تشنها التنظيمات الإرهابية والمليشيات المسلحة، وانعدام الأمن، ما أدى إلى نزوح جماعي في جميع أنحاء المنطقة. وقد بلغ عدد النازحين قسراً في منطقة الساحل ٤,٧ مليون شخص في يناير عام ٢٠٢٤م، بما في ذلك ١,٧ مليون لاجئ وطالب لجوء.^(٣٤) ومن ثم، يفاقم انخراط التنظيمات الإرهابية في أنشطة الجريمة المنظمة، ولا سيما الاستيلاء على الموارد الطبيعية، من الأوضاع الإنسانية المتدهورة بالفعل في منطقة الساحل، حيث يزيد من انعدام الأمن الغذائي، ويسهم في تنامي معدلات اللجوء والنزوح. وبصفة عامة، فإن تدفق النازحين يزيد من الضغط على الأراضي والموارد الطبيعية، كما يُحتمل أن يُثير توترات بين أفراد المجتمع المضيف، حيث تؤثر أزمة النزوح في منطقة الساحل بالفعل على الدول المجاورة، مثل: موريتانيا وتشاد، وتهدد بالامتداد إلى بنين، وكوت ديفوار، وغانا، وتوغو.

ومجمل القول، فإن انخراط التنظيمات الإرهابية في أنشطة الجريمة المنظمة، يسهم في تنامي التهديدات الأمنية في منطقة الساحل، حيث يترتب على هذا التهديد المركب تداعيات معقدة، تزيد من حالة الاضطراب في المنطقة، وبالتالي، فإن مواجهة هذا النمط من التهديدات، تتطلب مقاربة شاملة متعددة الأبعاد، ولا تقتصر على البعد الأمني، بل تمتد لتشمل آليات تجفيف منابع التمويل والتجنيد، وذلك عبر أطر فاعلة، تعالج الأسباب الجذرية والمحفزات الرئيسية، بما يقوض الشبكات المتنامية بين الإرهاب والجريمة المنظمة، في منطقة الساحل الإفريقي.

- (1) United Nations Office on Drugs and Crime (UNODC), *Transnational Organized Crime in West Africa: A Threat Assessment*, (Vienna, UNODC, 2013), <https://tinyurl.com/32e6kyv6>
- (2) Marcena Hunter, *Beyond Blood: Gold, conflict and criminality in West Africa*, (Geneva, Global Initiative Against Transnational Organized Crime, 2022), <https://tinyurl.com/4b8wn69a>
- (٣) لمزيد من التفاصيل حول أنماط العلاقة بين التنظيمات الإرهابية والجريمة العابرة للحدود انظر: Marcena Hunter, *Beyond Blood: Gold, conflict and criminality in West Africa*, Tamara Makarenko, "The Crime-Terror Continuum: Tracing the Interplay between Transnational Organized Crime and Terrorism," *Global Crime*, 6:1, February 2004, 130:131, and Frank Madsen, *Transnational Organized Crime*, (New York: Routledge, 2009), 67.
- إيمان رجب، «تطور العلاقة بين الإرهاب والجريمة المنظمة العابرة للحدود»، مجلة اتجاهات استراتيجية، (دبي: مركز تريند للبحوث والاستشارات، ٢٠٢٢م)، العدد: ١٢، <https://tinyurl.com/ypwpu5ey>
- (4) Waziri Adisa, "Transnational organized crime, terrorist financing and boko haram insurgency in Nigeria," *Journal of Terrorism Studies*, 3:1, September 2021, <https://scholarhub.ui.ac.id/jts/vol3/iss1/1/>
- (5) "Nigeria's herder-farmer conflict: domestic, regional, and transcontinental weapon sources," *Conflict Armament Research*, June 2020, <https://tinyurl.com/3m3pt3mu>
- (6) Theo Clement and Hans-Jakob Schindler, "Interlinkage of terrorism and transnational organized crime in West Africa," Konrad-Adenauer-Stiftung, 2023, <https://tinyurl.com/46yutcau>
- (7) United Nations Office on Drugs and Crime (UNODC), *Firearms Trafficking in the Sahel: Transnational Organized Crime Threat Assessment — Sahel*, (New York: UNODC, 2022), <https://tinyurl.com/3eydter8>
- (8) Hunter, "Beyond Blood: Gold, conflict and criminality in West Africa".
- (9) Christian Nellemann et al., "World Atlas of Illicit Flows," INTERPOL and the Global Initiative Against Transnational Organized crime, 2018, <https://globalinitiative.net/analysis/world-atlas-of-illicit-flows/>
- (10) Héni Nsaibia et al., "Non-state armed groups and illicit economies in West Africa, Jama'at Nusrat al-Islam wal-Muslimin (JNIM)," *Global Initiative against Transnational Organized*, October 2023, <https://tinyurl.com/3ze7uvh4>
- (11) "Deal reached to free UAE hostages in Mali, sources say," *Reuters*, October 31, 2025, <https://tinyurl.com/34uy5cyu>
- (12) "Release of hostages in Mali a 'victory' for transition government," *Radio France Internationale (RFI)*, October 9, 2020, <https://tinyurl.com/4b3y9p4r>
- (13) Flore Berger, "Locked Horns: Cattle rustling and Mali's war economy," *Global Initiative against Transnational Organized*, March 2023, <https://tinyurl.com/5n88kddh>
- (14) Héni Nsaibia et al., "Non-state armed groups and illicit economies in West Africa, Jama'at Nusrat al-Islam wal-Muslimin (JNIM)".
- (15) "Concerns Over the Use of Proceeds from the Exploitation, Trade, and Trafficking of Natural Resources for the Purposes of Terrorism Financing," United Nations Security Council Counter-Terrorism Committee Executive Directorate (CTED), June 2022, <https://tinyurl.com/3eat3hrf>

-
- (16) “Kidnappings for Ransom: A Source for Terrorism Funding,” *CSS Analysis in Security Policy*, 141, October 2013, <https://tinyurl.com/n82x6m7h>
 - (17) José Luengo-Cabrera and Anouk Moser, “Transatlantic drug trafficking – via Africa,” *European Union Institute for Security Studies (EUISS)*, 3, January 19, 2016, <https://tinyurl.com/yby7aw78>
 - (18) Serigne Bamba Gaye, “Connections between Jihadist groups and smuggling and illegal trafficking rings in the Sahel,” *Friedrich-Ebert-Stiftung*, 2018, <https://tinyurl.com/bd6k87cs>
 - (19) “Illicit Financial Flows: The Economy of Illicit Trade in West Africa,” *OECD Development Co-operation Directorate*, 2018, <https://tinyurl.com/5n7s7bzm>
 - (20) Waziri Adisa, “Transnational organized crime, terrorist financing and Boko Haram insurgency in Nigeria”.
 - (21) Jacob Zenn and Elizabeth Pearson, “Women, Gender and the evolving tactics of Boko Haram,” *Journal of Terrorism Research*, 5:1, February 2014, <https://tinyurl.com/b5v7z2pb>
 - (22) Waziri Adisa, “Transnational organized crime, terrorist financing and Boko Haram insurgency in Nigeria”.
 - (23) Anne-Marie de Brouwer et al., “Prosecuting the Nexus between Terrorism, Conflict-related Sexual Violence and Trafficking in Human Beings before National Legal Mechanisms,” *Journal of International Criminal Justice*, 18, 2020, <https://tinyurl.com/4re3tmt7>
 - (24) Jeannine Ella Abatan, “The role of women in West Africa’s violent extremist groups,” *Institute for Security Studies*, October 14, 2018, <https://tinyurl.com/yc64uuzk>
 - (25) Waziri Adisa, “Transnational organized crime, terrorist financing and Boko Haram insurgency in Nigeria”.
 - (26) “Thirty-fifth report of the Analytical Support and Sanctions Monitoring Team submitted pursuant to resolution 2734 (2024) concerning ISIL (Da’esh), Al-Qaida and associated individuals and entities,” *United Nations Security Council*, February 6, 2025, <https://www.ecoi.net/en/document/2122781.html>
 - (27) Taiwo George, “Nigeria has over 1,400 illegal border routes, Immigration CG reveals,” *The Cable*, April 24, 2014, <https://tinyurl.com/56dkpe4c>
 - (28) Freedom C. Onuoha, “Porous Borders and Boko Haram’s Arms Smuggling Operations in Nigeria,” *Aljazeera*, September 8, 2013, <https://tinyurl.com/26shjr7b>
 - (29) “Impact of Transnational Organized Crime on Stability and Development in the Sahel Transnational Organized Crime Threat Assessment — Sahel,” *United Nations Office on Drugs and Crime*, 2024, <https://tinyurl.com/5ea54zsh>
 - (30) “Pastoralism and Security in West Africa and the Sahel: Towards Peaceful Coexistence,” *UNOWAS Study*, August 2018, <https://tinyurl.com/sj79arth>
 - (31) Impact of Transnational Organized Crime on Stability and Development in the Sahel Transnational Organized Crime Threat Assessment — Sahel”.
 - (32) Anne-Marie de Brouwer et al., “Prosecuting the Nexus between Terrorism, Conflict-related Sexual Violence and Trafficking in Human Beings before National Legal Mechanisms”.
 - (33) Christophe Paulussen, “ISIS and Sexual Terrorism: Scope, Challenges and the (Mis) Use of the Label,” *The International Centre for Counter-Terrorism (ICCT)*, January 27, 2021, <https://tinyurl.com/yrtsk6c4>
 - (34) “UNHCR projected global resettlement needs 2025,” *United Nations High Commissioner for Refugees*, 2025, <https://tinyurl.com/4jhabc2u>

سلام ما بعد الحرب في إثيوبيا : سياقات وتداعيات هجوم قوات التيغراي على إقليم عفر

عبد القادر محمد علي، باحث متخصص بشؤون القرن الإفريقي، تورنتو.

مثل الهجوم الذي قامت به القوات التابعة للجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، على إقليم عفر المجاور، تجليا جديدا للطبيعة المركبة للأزمة التي تعيشها إثيوبيا؛ حيث تتداخل فيها طبقات من الصراعات، تبدأ من الفصائل المتنافسة داخل المنطقة الواحدة، وانتهاء بالدور الخارجي، مروراً بالطبيعة المتفجرة للعلاقات بين بعض الأقاليم الإثيوبية المتجاورة. ورغم التوترات المستمرة التي ميزت المناخ السياسي، الذي تدور في فلكه العلاقة بين الحكومة الفيدرالية والجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، منذ توقيع اتفاقية بريتوريا، التي أسكتت البنادق في شمالي إثيوبيا، في الثاني من نوفمبر عام ٢٠٢٢م، فإن هذا الهجوم وتداعياته، كان المرة الأولى التي تنطلق فيها أجراس الإنذار بهذه القوة، المنذرة بانتهاء الاتفاقية، وبأفاق قاتمة للبلاد، التي تقف حرقاً على مفترق طرق تاريخي. وسنحاول في هذه الورقة البحثية، الوقوف على هذا الحدث المهم، وتوضيح سياقاته، والعوامل والملايسات التي أدت إليه، وطرح مقترحات لمعالجته، وذلك من خلال النقاط الآتية:

١- ما الذي حدث؟

في مساء ٥ نوفمبر، اقتحمت قوات تابعة للجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، حدود إقليم عفر المجاور، وتوغلت بشكل محدود في المنطقة الثانية شمالي الإقليم المذكور، وتمكنت من السيطرة على بعض القرى هناك في منطقة ماغالي، وتم في هذه العملية استخدام الأسلحة الثقيلة من مدافع هاون، وراجمات صواريخ. استهدفت هذه العملية بشكل رئيس المعسكرات التابعة لقوات سلام تيغراي، المتمركزة في إقليم عفر، وأدت الاشتباكات إلى فرار آلاف المدنيين إلى عمق الإقليم، خوفاً من التداعيات المحتملة، ولا سيما أن إقليم عفر، شهد بعض أعنف جولات القتال في حرب تيغراي (٢٠٢٠-٢٠٢٢)، وما تزال الذاكرة الشعبية محتفظة بمأسيتها.

استمرت العملية يومين، وأدت إلى تدمير معسكرات قوات سلام تيغراي في المنطقة، وتشتيت مقاتليها، ثم انسحبت القوات المهاجمة، حيث تعرضت لضربات بطائرات دون طيار في أثناء انسحابها.^(١)

٢- ما وراء البيانات:

على المستوى الرسمي، تكشف ردود أفعال الأطراف المعنية، والبيانات الصادرة عنهم، أهمية هذا الحدث، كأخطر خرق للترتيبات الأمنية، التي نصت عليها اتفاقية بريتوريا؛ حيث أصدر مكتب الاتصال الحكومي في إقليم عفر بيانا، أكد فيه عبور قوات مقاتلة للحدود الإدارية، قادمة من إقليم تيغراي، وتوغلها في عمق منطقة ماغالي.

الرواية العفرية شددت على الطبيعة العدوانية لهذا التحرك، حيث أكدت استخدام الأسلحة الثقيلة لقصف التجمعات السكنية والرعية، مشيرة إلى أن وجهاء وزعماء العشائر العفرية، ناشدوا القوات المهاجمة الانسحاب حقنا للدماء، وهو ما قوبل برفض قاطع، حيث أسفرت هذه العملية عن سقوط ست قرى في يد المهاجمين، معتبرة ما حدث انتهاكا لاتفاقية بريتوريا، وأن الجبهة تواصل استفزاز المناطق المجاورة.^(٢) كشف الرد القادم من جانب التيغراي، عن تطابق في تفسير الحدث والموقف، حيث أصدر كل من «الإدارة المؤقتة لتيغراي»، برئاسة الجنرال تاديسي وريدي، وقيادة «الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي»، بقيادة دبرصيون غيري ميكائيل، بيانات نفي قاطعة، لتورط التيغراي في هذا الهجوم.

اتهمت قيادة الجبهة الحكومة الفيدرالية، باستهداف قوات تيغراي بطائرة مسيرة، على حدود تيغراي وعفر، في «استجابة» لنداء أطلقتته قوات سلام تيغراي، طالبة الدعم الحكومي، وربط ذلك كله بانتقال الحكومة من الانتهاك اللفظي لاتفاق بريتوريا، إلى الانتهاك العملي.^(٣)

أما الإدارة المؤقتة، وهي الكيان المعترف به فيدراليا لإدارة الإقليم، فوصفت الاتهامات العفرية بأنها «لا أساس لها من الصحة تماماً»، وأن القوات النظامية لتيغراي، لم تنتهك الحدود مع عفر، وأن هناك جهات تعمل على تشكيل وتسليح جماعات في إقليم عفر، لإثارة الصراع بين شعبي الإقليمين، مع التحذير الشديد من محاولات «لاستغلال التحديات القائمة كفرصة لزعزعة استقرار تيغراي، أو إعادة إشعال الصراع، أو تحويل المنطقة إلى ساحة معركة من جديد».^(٤)

ويكشف هذان البيانا عن خطورة هذا الحدث، ومحاولة الطرفين التنصل من المسؤولية عنه، وإلقاء التبعة على طرف ثالث، سواء أكان الحكومة الفيدرالية وقيادة إقليم عفر، أم قوة سلام تيغراي. وفي المقابل، ظلت الحكومة الفيدرالية الغائب الأبرز عن هذه البيانات، حيث لم تصدر بيانا يبين موقفها من هذا الحدث، ولم تصدر بيانا في الرد على ما اتهمتها به الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، من انتهاك لاتفاق بريتوريا.

هذا الصمت الحكومي، يمكن عزوه إلى رغبة أديس أبابا في تجنب أي تصعيد، متعلق بملف قوات سلام تيغراي، وما قد يثار من تحقيقات حول دعمها لهذه المليشيات، وهو ما يعني خرقها لاتفاقية بريتوريا، التي تنص على حصر السلاح في يد الدولة، ونزع سلاح المليشيات. ومن جهة أخرى، يوحي هذا الصمت، بأن ضربات الطائرات المسيرة، قد نُفذت جزئياً داخل إقليم تيغراي، ما يعني بدوره خرقاً لاتفاقيات بريتوريا، التي نصت على الوقف الفوري والكامل للعدايات بين الطرفين، ولذلك تلجأ الحكومة إلى إحاطة موقفها بالغموض الكامل، من خلال الامتناع عن التعليق على الحدث بالمثل.

٣- سياقات مهمة لفهم هذا الحدث:

لا يمكن قراءة هذا الحدث بمعزل عن عدد من السياقات التي تبرزه، لا بكونه مجرد مناوشات حدودية عابرة، بل باعتباره رأس جبل الجليد، لأزمة سياسية وعسكرية أعمق، تضرب بجذورها في الانقسام الحاد داخل البيت الداخلي للتيغراي، وإستراتيجيات الحكومة الفيدرالية في أديس أبابا، لإدارة الصراع عبر الوكلاء، وعودة شبخ الحرب بالوكالة مع إريتريا.

أ- السياق الأول هو سياق الانقسام داخل التيغراي:

عقب توقيع اتفاق بريتوريا، بدأ شرخ يظهر للعلن، بين رئيس الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي دبرصيون غبري ميكائيل، ورئيس الإدارة المؤقتة لتيغراي غيتاتشو ردا، وما بدأ كخلافات حول تطبيق الاتفاق، تحول بحلول أواخر عام ٢٠٢٤م، وطوال عام ٢٠٢٥م، إلى عداء مفتوح، وقطيعة سياسية بين الطرفين. اتهمت قيادة الحزب غيتاتشو بالارتداء في أحضان أديس أبابا، والفسل في تأمين عودة غرب تيغراي، والتخاذل في المطالبة بانسحاب القوات الإريترية. وفي المقابل، صور فصيل غيتاتشو الحرس القديم في الحزب على أنهم فاسدون، ومعرقلون للسلام، ويسعون للحفاظ على احتكار السلطة والموارد، حتى لو كان ذلك على حساب تعافي الإقليم المدمر.

وقد أدت هذه الصراعات، إلى إخراج عدد من قادة الجبهة المعروفين من الجسم التنظيمي لها، وعلى رأسهم غيتاتشو ردا، والجنرال صادق غبري تنسي، (٥) وإلى انقسام الجبهة إلى جناحين رئيسيين: الجناح الأكبر بقيادة دبرصيون غبري ميكائيل، وجناح آخر أصغر، بقيادة ردا وصادقان.

وبينما ظلت قوات الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، وقوات دفاع تيغراي، تحت قيادة دبرصيون، فقد برزت في المقابل «قوة سلام تيغراي» المحسوبة على ردا وصادقان في منتصف عام ٢٠٢٥م، متخذة من إقليم عفر قاعدة خلفية لعملياتها، وتتألف هذه القوة بشكل أساس، من ضباط وجنود سابقين في قوات دفاع تيغراي،

ومسؤولين سابقين انشقوا عن القيادة المركزية في مقلي، نتيجة خلافات سياسية، أو شعور بالتهميش.^(٦) يقود هذه المجموعة العميد غبري غزابهير بيني، المعروف بلقبه الحركي «ويدي أنتيرو»، وهو قائد سابق في قوات دفاع تيغراي، مما يمنحه مصداقية عسكرية، ومعرفة دقيقة بتكتيكات ونقاط ضعف خصومه السابقين، وقد عبر في العديد من المناسبات، عن مظالم عميقة تجاه قيادة الجبهة الحالية، مشيراً إلى قمع المعارضة الداخلية، واحتكار القرار، واضطهاد الأصوات الناقدة لسياسات الحزب.^(٧) وقد شهدت الأشهر الماضية عدة مناوشات بين الطرفين، ومحاولة فاشلة لقوات سلام تيغراي، للتوغل في إقليم تيغراي، وقبل هجوم قوات دبرصيون على إقليم عفر ببضعة أيام، وقعت اشتباكات بين مقاتلي المجموعتين، على خلفية محاولة قوات سلام تيغراي استهداف رئيس إقليم تيغراي الجنرال تاديسي وردي، أثناء قيامه بجولة في بعض مناطق الإقليم، حيث كان هذا الهجوم محركاً أساساً، للرد الذي قامت به قوات دفاع تيغراي.

ب - السياق الثاني هو سياق التوتر بين الجبهة والحكومة الفيدرالية:

اتسمت العلاقة بين الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي والحكومة الفيدرالية، بانعدام الثقة العميق، والصراع السياسي المستمر، والاتهامات المتبادلة، بانتهاك أو إعاقة تنفيذ بنود اتفاقية بريتوريا. هذا التوتر تجلى بشكل واضح في الرسائل المنفصلتين، اللتين أرسلتهما إلى الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش، كل من الخارجية الإثيوبية، والجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، حيث اتهمت أديس أبابا الحكومة الإريترية بتسليح وتمويل ميليشيات «فانو» في منطقة أمهرة، وزعمت أن هناك تحالفاً جديداً بين أسمره، وفصيل من جبهة تيغراي، لشن حرب بالوكالة ضد إثيوبيا.^(٨)

وهو ما ردت عليه الجبهة، بنفي وجود أي تحالف عسكري مع إريتريا، ودعوة المجتمع الدولي للتدخل لضمان التنفيذ الكامل لاتفاق بريتوريا للسلام، محذرة من تراجع التزام الحكومة الفيدرالية ببنود الاتفاق.^(٩) ميدانياً، لم تكن الأوضاع أقل خطورة؛ حيث سبق الهجوم على عفر، بقيام الجيش الفيدرالي الإثيوبي، بحشد قواته في مناطق داخل تيغراي كماي عيني، وأما بادري، وتكيزي، قادمة من قواعدهما في إقليم أمهرة، في حين استمرت الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي في حشد قواتها ومناصريها، ما دفع العديد من المراقبين إلى التخوف من احتمال قرب اندلاع حرب جديدة بين الطرفين.^(١٠)

وفي ظل هذه الأجواء، فلربما تحركت قيادة الجبهة باتجاه عفر، لتخوفها من أن يشكل وجود قوات سلام تيغراي على مقربة منها خطراً، كقوة مساندة للجيش الفيدرالي في حال هجومه على قوات دفاع تيغراي، فبادرت هي إلى التخلص منها في ضربة استباقية، وتأمين خاضعتها بشكل كامل، ولا سيما أن منطقة

ماغالي، لا تبعد كثيرا عن مقلي عاصمة الإقليم، التي قد تلوح قوات غيتاتشو بالزحف عليها، حال اندلاع الحرب بين الجبهة والحكومة الفيدرالية.

ج- السياق الثالث هو سياق التوتر الإثيوبي الإريتري:

بدأ الصدع بين أديس أبابا وأسمرة منذ توقيع اتفاق بريتوريا، على خلفية مجموعة من الملفات، ومنها مصير الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، وتزايدت حدته وخطورته مع المطالب الإثيوبية المعلنة، بالحصول على منفذ بحري سيادي، وما تم خلالها من الادعاء بأحقية أيلولة ميناء عصب الإريتري إلى إثيوبيا، وسحب اعتراف إثيوبيا باستقلال إريتريا.

ضمن هذا المناخ، عملت إريتريا على توثيق علاقاتها مع قوى إثيوبية مسلحة، كميليشيات فانو الأمهرية، وجناح دبيرصيون في الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، وفي المقابل، طورت إثيوبيا علاقاتها بالعديد من قوى المعارضة الإريترية، المسلحة منها والسلمية.

وفي هذا السياق، تؤكد العديد من المصادر، وجود تنسيق بين أسمرة والقوى الإثيوبية المسلحة المذكورة ميدانيا، حيث تفسر بعض المصادر وجود الأسلحة الثقيلة المستخدمة في الهجوم على إقليم عفر، بأنه نتيجة للإمداد الإريتري، حيث كان من المفترض أن تكون الجبهة قد سلمت أسلحتها الثقيلة، بموجب بنود اتفاقية بريتوريا.^(١١)

كما تربط بعض القراءات بين هذه العملية المفاجئة، وبين صراع المحاور الإقليمية، التي تصطف إلى جانب كل من إريتريا وإثيوبيا، حيث تم هذا الهجوم بعد أيام فقط من نهاية زيارة مطولة للرئيس الإريتري أسياس أفورقي، إلى العاصمة المصرية القاهرة، حيث أكدت الأخيرة دعمها لسيادة ووحدة الأراضي الإريترية.

ع- من الراحون ومن الخاسرون من هذه الخطوة؟

أول الراحين هو الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، حيث استطاعت تحقيق مجموعة من الأهداف، وعلى رأسها تدمير معسكرات قوات سلام تيغراي، وإظهار عجزها في مواجهة قوات دفاع تيغراي، والأخطر هو محاولة إحداث شرخ بين الحكومة الفيدرالية وحلفائها، حيث لم تتدخل الحكومة لصد المهاجمين إلا في وقت متأخر، واستهدفتهم وهم منسحبون، ماجعل بعض المراقبين يشيرون إلى أنها عجزت عن حماية حلفائها في الوقت المناسب. ومن جانب آخر، استطاعت الجبهة بهذه العملية التخلص من أي تهديد مستقبلي، كان من الممكن لهذه القوات أن تشكله، ونزعت هذا السلاح من يد الحكومة الفيدرالية على المدى المتوسط على الأقل، كما أنها رفعت من معنويات قواتها ومناصريها.

والرابح الثاني هو إريتريا؛ حيث إن كل ما سبق يصب في مصلحتها، كما أنها أرسلت رسالة واضحة للحكومة الإثيوبية، أنها قادرة على خلط الأوراق في الداخل الإثيوبي.

وفي المقابل، يبدو أن الخاسر الأول هو معسكر غيتاتشو ردا، والجنرال صادق، اللذان تم تدمير معسكراتهما، وتشتيت القوات التي كانا يجتهدان لبنائها طوال الفترة الماضية، وكان من المتوقع تزايد حجمها وقوتها، مع الأنباء عن تزايد أعداد منتسبيها، لكن هذه الضربة، كشفت عن محدودية الغطاء العسكري الحكومي، وبالتالي أبرزت التساؤلات حول جدية الحكومة في دعمها ميدانيا.

أما الخاسر الثاني، فهو رئيس الوزراء الإثيوبي أبي أحمد، لأن القوة التغيراوية المضادة، التي كان يؤمل منها مع الأيام، أن تشكل قوة مؤثرة في موازين الصراع داخل تيغراي، قد تلقت ضربة شديدة القوة، كما أدت هذه العملية إلى خلق شكوك حول فعالية المخططات الإثيوبية المعلنة لاحتلال عصب، عبر الهجوم انطلاقا من إقليم عفر، في حين أن ظهر هذه القوات، سيكون هدفا لحلفاء إريتريا.

والخاسر الثالث هو حاكم إقليم عفر أول عربا، حيث ستزداد ضغوط السكان المحليين على إدارته، وعلى الحكومة الفيدرالية، لإخراج قوات سلام تيغراي من أراضيهم، وتجنبيهم ويلات حروب التيغراي البينية، وبرز التملل المحلي من هذه القوات منذ بدء نشاطاتها منتصف عام ٢٠٢٥ م، حيث يرفض السكان تحمل تبعات أي اشتباك بينها وبين قوات دفاع تيغراي على أراضيهم، ويطالبون بنقل هذه القوات إلى داخل إقليم تيغراي.

خلاصة وتوصيات:

- كشفت مجريات هجوم قوات الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي على إقليم عفر، عن مجموعة من المعطيات، وهي:
- ١- هشاشة السلام المبني على اتفاقية بريتوريا، وأن ديناميات الصراع الداخلي، سواء على مستوى المركز والإقليم، أو القوى المتصارعة داخل الإقليم الواحد، قادرة على تفجير الصراعات، والعودة بالبلاد إلى نقطة الاحتراب من جديد.
 - ٢- أن جميع الأطراف مستعدة للمخاطرة بجولة قادمة من القتال، في دلالة بينة على حالة عدم الثقة العميقة بينها، وانسداد الأفق السياسي في البلاد، ويظهر هذا بجلاء في انتهاك الطرفين لبنود اتفاقية بريتوريا؛ فالجبهة ما تزال تمتلك أسلحة ثقيلة، والحكومة الفيدرالية تدعم أطرافا مسلحة، ومستعدة لاستخدام طائراتها المسيرة لمهاجمة قوات الجبهة، وهي كلها تمثل مخالفات صريحة لاتفاقية بريتوريا وبنودها، التي تنص على تسليم الجبهة أسلحتها، وحصر السلاح بيد الدولة، والتوقف عن الأعمال العدائية.
 - ٣- خطورة أي توتر على الأوضاع الإنسانية، حيث أدت اشتباكات اليومين إلى تشريد سكان القرى الستة من

- مناطق سكناهم، وهو مؤشر بالغ الوضوح، على مدى الضرر الذي قد تحدثه أي اشتباكات أوسع نطاقاً. ولتجنب هذه التداعيات الخطرة، يوصي الباحث بالآتي:
- ١- تنشيط دور وسطاء وضامني اتفاقية بريتوريا، حيث كان من الملاحظ عدم صدور بيانات رسمية من أي طرف منهم حول الهجوم على إقليم عفر، رغم خطورة تداعياته المحتملة في حينها.
 - ٢- حاجة القوى الإثيوبية إلى تجنب سياسة حافة الهاوية لخطورتها، في ظل الوضع المحتقن، حيث قد يؤدي أي خطأ في الحسابات، أو أي رد فعل غير متوقع، إلى جر البلاد إلى مواجهات عسكرية جديدة.
 - ٣- ضرورة توافق القوى الإثيوبية، مدعومة بالاتحاد الإفريقي، والقوى الدولية المعنية بالمنطقة، إلى آليات تضمن الالتزام بالحلول السلمية المبنية على اتفاقية بريتوريا.
 - ٤- الحاجة إلى إيجاد حلول دبلوماسية للمطلب الإثيوبي بالوصول إلى البحر، عبر اتفاقيات سلمية، تضمن المصالح الاقتصادية الإثيوبية، ولا تمس بالسيادة الإريترية، ما سيخفف من الاحتقان والتوتر في العلاقات بين أديس أبابا وأسمرة، ومنعكساته السلبية، الناتجة عن اعتماد حروب الوكالة من قبل إريتريا، والتهديد والتصعيد المستمرين من قبل إثيوبيا.
 - ٥- ربط المساعدات الخارجية لإثيوبيا بالتوصل إلى حلول لأزماتها الداخلية.

الهوامش والإحالات

- ١) توصل الباحث إلى هذه المعلومات بالتواصل مع مصادر من داخل إقليم عفر في (٦، نوفمبر، ٢٠٢٥م).
 - ٢) «إقليم العفر الإثيوبي يعلن عن تعرضه لهجوم من قوات تابعة لجبهة تيغراي»، الراصد الإثيوبي (٦، نوفمبر، ٢٠٢٥م)،
<https://www.ethiomonitor.net/18623/>
 - 3) “Drone Strike Violates Pretoria Peace Deal: TPLF Seeks Intervention,” *Tigray Online*, November 7, 2025,
<https://tinyurl.com/577y9s5b>
 - 4) “Official Statement of the Interim Administration of Tigray,” *Tigray Online*, November 7, 2025,
<https://tinyurl.com/33ceycp5>
 - 5) Dahilon Yassin Mohamoda, “Red Sea Reckonings: Ethiopia, Eritrea, and the Unraveling of Pretoria,” *Ethiopia Insight*, July 16, 2025,
<https://tinyurl.com/33ceycp5>
 - 6) “The Political Decay of Tigray,” *Martin Plaut*, November 11, 2025,
<https://tinyurl.com/38v7uv3v>
 - 7) “Following clashes between the Tigray Defence Forces and “Free Land” militants on Wednesday, the Ethiopian government reportedly launched a drone strike on a Tigray military base,” *Martin Plaut*, November 11, 2025,
<https://tinyurl.com/ffswyyv3>
 - 8) “Tensions worsen as Addis accuses Asmara of proxy war,” *Africa Confidential*, October 13, 2025,
<https://tinyurl.com/44bk4jzt>
 - 9) “TPLF rejects claims of alliance with Eritrea, calls cross-border ties a step toward peace,” *Eritrea Focus*, October 9, 2025,
<https://tinyurl.com/ek9ea9b2>
- ١٠) هذه المعلومات توصل إليها الباحث بالتواصل مع مصادر داخل إقليم تيغراي.
- ١١) مكالمة مع مسؤول في إقليم عفر، (٦ نوفمبر، ٢٠٢٥م).

التقارب بين إريتريا والتيجراي: الخلفيات والدوافع والسيناريوهات المستقبلية

حسن إدريس طويل، كاتب إريتري مقيم بالقاهرة.

مقدمة

تَبَدَّى جليا عند مفترق الجغرافيا السياسية للقرن الإفريقي، وخاصة في مثلث أديس أبابا، ومقلي، وأسمرا، حيث تتشابك المصالح، وتتنافر الطموحات بين دول الإقليم، التي تجمعها الحدود وروابط الدم، وتُفَرِّقها حسابات الربح والخسارة، وفي قلب هذا المشهد المتسارع المتغير، تطفو على السطح علاقة ثلاثية شديدة الحساسية، تشوبها توترات متواترة، بين إريتريا، وإقليم تيغراي، والحكومة الفيدرالية الإثيوبية، فهي تتأرجح بين الهدوء النسبي الحذر، والتقارب المؤقت، والعداء السافر أحيانا؛ فبعد حروب طاحنة أنهكت الأطراف، وأعدت التموضع، بدأت إشارات خافتة تلمح في افق التقارب بين أسمرا والجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، التي تحكم إقليم تيغراي، الأمر الذي يُثير تساؤلات حول الدوافع الحقيقية: هل هي تكتيكية أو إستراتيجية؟ وما أبعادها التي تلقي بظلالها على الإقليم؟

شهدت الحدود الإريترية وإقليم تيغراي في الفترة الماضية، تواصلا شعبيا كثيفا، بضوء أخضر من السلطات الرسمية، وهو ما عرف بـ (ظُمْدُو) التي تعني التعاون، ويُشير المصطلح إلى شراكة تجمع بين القدرات، لمعالجة التهديدات المشتركة، لضمان البقاء، وتحقيق خطط التنمية. هذه التحولات السياسية المتقلبة المربكة، لا يمكن قراءة منتهى ورؤيتها، بمعزل عن الخطاب المتجدد، الصادر من قبل حكومة أديس أبابا حول الادعاء بـ «الحق التاريخي»، في الوصول إلى البحر الأحمر، واستعادة ميناء عصب الإريترية، والذي يحمل في طياته شحنات من العُبن القوية والمتصاعدة. وفي المقابل، تُراقب إريتريا التطورات بعين الريبة والحذر، مدركة أن أي تبدل في موازين القوى داخل شمالي اثيوبيا خاصة، قد ينعكس مباشرة على أمنها القومي، وهكذا يتشكل مشهد إقليمي معقد، تُزاح فيه القطع على رقعة مضطربة، يمكن لأي خطوة سياسية تفتقر الى مقتضيات الحكمة، أن تفتح الباب على مصراعيه أمام نزاع جديد، يعصف باستقرار القرن الإفريقي وأمنه برمته.

أولا- دوافع التقارب والمتغيرات السياسية

تتوالى التساؤلات حول الدوافع الحقيقية، وراء ما يُعرف بـ«ظمُدُو»، وهو مشروع التعاون المزعوم، بين الحكومة الإريترية وشعب تيغراي، الذي تديره الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي. وتشير بعض المؤشرات، إلى احتمال أن يكون هذا التقارب محدودا، أو تكتيكيا في طبيعة مقصده، فيما يظل تقييم أبعاده الإستراتيجية، والأهداف طويلة المدى، محل جدل ونقاش بين المحللين. كما يطرح توقيت هذا الحراك السياسي أسئلة إضافية، حول مدى ارتباطه بالمتغيرات الإقليمية، والديناميات الداخلية في شمالي إثيوبيا، وما إذا كان يمثل خطوة مرحلية لمعالجة تهديدات مشتركة، أو محاولة لإعادة ترتيب موازين القوى في المنطقة.

وتشير بعض المؤشرات، إلى أن حكومتي إقليم تيغراي وإريتريا، قد ترى في تعزيز التعاون بينهما مخرجا تكتيكيا، في مواجهة سياسات رئيس الوزراء الإثيوبي أبي أحمد، التي قد تتجاوز مصالح الطرفين في بعض الملفات الإقليمية. وقد لوحظت تطورات في العلاقة بين الطرفين، بعد فترة من التوتر العلني؛ حيث أُعيد فتح بعض المعابر الحدودية بين إريتريا وإقليم تيغراي، وجرى تنظيم احتفالات محلية محدودة في المدن والبلدات المحاذية، ما يشير إلى حراك شعبي، يلمح إلى إمكانية تعزيز التعاون بين السكان، وإن لم يُعتمد رسميا كتحالف سياسي.^(١)

ولقد أطلق الرئيس الإريترى في خطاباته الأخيرة مصطلحا، يُعرف باسم «ظمُدُو»، ويُفهم منه التعاون أو المشاركة، إلا أن هذا المفهوم، لا يزال محل جدل بين المراقبين، ويظهر بشكل أساس في التداول الشعبي، ووسائل التواصل الاجتماعي بين شباب إريتريا وتيغراي، خاصة أولئك الذين يتبنون توجهات داعمة لعلاقات أسمر مع سلطات تيغراي. ويُشير استخدام المصطلح، إلى فكرة شراكة محتملة، تجمع القدرات والإمكانات، لمعالجة تهديدات مشتركة محتملة، قادمة من أديس أبابا، إضافة إلى إمكانية استخدامه في برامج التنمية المحلية، غير أن هذه المبادرات لا تزال محدودة النطاق، وذات طابع مدني رمزي.

وفي هذا السياق، ظهرت بعض التحركات المدنية المؤيدة لمفهوم «ظمُدُو»، مثل الاحتفال المشترك بين أهالي تيغراي وإريتريا في يونيو عام ٢٠٢٥م، والتي يمكن اعتبارها مؤشرا على رغبة شعوب المنطقة، في تعزيز التواصل والتقارب، مع التأكيد على أن هذه المبادرات، لم تتحول بعد إلى سياسات رسمية معتمدة، من قبل أي من الطرفين.^(٢)

وافق جناح دبرصيون بالجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، الذي يسيطر على إدارة الإقليم، على فتح بعض المعابر الحدودية مع إريتريا، باتجاه منطقة راما، في خطوة يراها بعض المحللين مؤشرا على مشاركة محدودة، فيما يعرف بمفهوم التعاون «ظمُدُو»، الذي تبناه ناشطون من كلا الجانبين. وقد حظي هذا التحرك بتجاوب شعبي نسبي، في صفوف السكان المحليين في تيغراي، بينما أعربت قوى المعارضة

الإريترية في المهجر عن استنكارها، معتبرة أن المبادرة قد تستخدم لتعزيز سلطات معينة، على حساب التعددية، أو الحكم المحلي.

وتتزامن هذه التطورات مع تصاعد التوترات بين إثيوبيا وإريتريا، نتيجة النزاعات الإقليمية، وعدم الاستقرار المستمر في إقليم تيغراي، ويثير هذا السياق مخاوف من احتمال تجدد الصراع العنيف في القرن الإفريقي، نظرا للبعد الإستراتيجي للمنطقة؛ فقد أدت الحرب الأخيرة بين قوات دفاع تيغراي، والجيش الإثيوبي، المدعوم من مليشيات أمهرا، والقوات الإريترية خلال الفترة ٢٠٢٠-٢٠٢٢م، إلى سقوط آلاف القتلى من كلا الطرفين، إلى جانب نزوح واسع النطاق، وتدمير البنية التحتية، وتهديد الأمن الغذائي في الإقليم.^(٣)

ويُذكر أن مشاركة الجيش الإريتري في الحرب الأهلية لدعم الجيش الإثيوبي، لم تدرج ضمن اتفاقية السلام المعروفة باسم اتفاقية بريتوريا، التي وُقعت في نوفمبر عام ٢٠٢٢م، بين الحكومة الإثيوبية، وسلطة إقليم تيغراي، برعاية أمريكية، وهو ما يعدُّ أحد العوامل، التي أسهمت في توتر العلاقات بين أديس أبابا وأسمرا؛ إذ فسّرت الأخيرة على أنه تجاوز لطموحاتها، ومصالحها الإستراتيجية في المنطقة.

وفي هذا السياق، أعاد رئيس الوزراء الإثيوبي أبي أحمد التأكيد على موقف إثيوبيا، بشأن السيادة، وحق استخدام الموانئ البحرية، مشيرا إلى أن حدود إثيوبيا مع الدول المجاورة، ليست واضحة بشكل كامل، وحذر من احتمال اندلاع صراع جديد في حال استمرار التوترات، وهو ما يعد أحد العوامل، التي قد تزيد من حدة التوتر بين إثيوبيا وإريتريا، وتؤثر على استقرار القرن الإفريقي.^(٤)

ثانيا- طموحات متقاطعة

يرتبط العداء القديم المتجدد بين إثيوبيا وإريتريا جزئيا، بالاضطرابات السياسية في القرن الإفريقي ككل؛ وبما جرى في شمالي إثيوبيا، في إقليمي أمهرا وتيغراي، من أزمة وصراع داخلي، فضلا عن استضافة أديس أبابا لما يعرف بالحراك الأزرق الإريتري، والدعم المقدم لتنظيم عفر البحر الأحمر الإريتري، واللذين يسعيان لتغيير النظام في أسمرا، عبر العمل العسكري.

ويعتمد تقارب دولة إريتريا وحكومة إقليم تيغراي بشكل كبير، على المتغيرات في الداخل الإثيوبي، والبعد الإقليمي. ويعد التواصل الشعبي الكثيف بين أسمرا وإقليم تيغراي، الذي عرف بالتعاون «ظمْدُو» والذي يشير إلى شراكة تجمع بين القدرات، لمعالجة التهديدات المشتركة القادمة من أديس أبابا، لضمان البقاء، وتحقيق خطط التنمية، فضلا عن الترشق بالاتهامات بين النظام في الدولتين، بدعم الجهات المناوئة لهما. هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تدهور سريع في العلاقة بين أديس أبابا وأسمرا.

ويعتمد تجدد الصراع بين أديس أبابا وأسمرا بشكل كبير، على تفسير كلٍ من الحكومتين، للمخاطر

والمكاسب المحتملة، في ظل مشهد إقليمي متغير. وقد أبدت قوى اقليمية، اهتماما خاصا باستغلال الصراع في المنطقة، لتعزيز نفوذها في البحر الأحمر. وتأتي طموحات بعض منها بدعم الأطراف، أحد المعالم المؤدية لصب الزيت في نيران الخلافات. ويكمن جوهر الوضع الحالي في طموح إثيوبيا، للوصول لمنفذ على البحر الأحمر، والذي يُنظر إليه من قبل أسمرأ على أنه تهديد لسيادة إريتريا، واستقرارها الإقليمي. ويرجح بعض المراقبين، أن هناك خطرا من انتشار عدوى العنف، وامتدادها لتشمل الإقليم. إذ تفيد التقارير بأن حكومة أديس أبابا، تتهم النظام الإريترى بدعم المليشيات المتمردة في اقليمي أمهرا، وارومو. كما تواجه الحكومة الإثيوبية اتهامات من أسمرأ، بدعم جماعات المعارضة الإريترية، مثل الثورة الزرقاء، وهي حركة تقتصر إلى حد كبير على إريترى الشتات، والتي عقدت مؤتمرها الاخير في أديس أبابا، بدعوة ودعم من الحكومة الإثيوبية. وكذلك زيارة رئيس المجلس الوطني الإريترى المعارض لأديس أبابا، وقد ينتج عنه تجدد الصراع في إقليم تيغراي هذه المرة، بدعم حكومة إريتريا لعدو الامس - حكومة إقليم تيغراي - والتي لها حلفاء داخل إثيوبيا (مليشات الفانو الامهرية، و«أونق شين» الجناح العسكري لجبهة تحرير أرومو) أزمة اقتصادية وإنسانية، تمتد تداعياتها لتشمل كل دول القرن الإفريقي، كذلك قد تستفيد الجماعات «الجهادية» من هذه الأزمة،^(٥) مما يساعد في تمددها في الاقليم، وتولد حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، في جميع أنحاء إفريقيا، والذي سيمتد خط امتدادها من منطقة الساحل إلى القرن الإفريقي. وستُفاقم الحرب أزمة اللاجئين في المنطقة، وتزيد من تدفقات الهجرة... وربما يظل التوتر مستقرا دون انفجار مباشر، مع تواجد قوات إريترية في مناطق شمال تيغراي، لدعم فصيل دبرصيون الحاكم لإقليم تيغراي، لتحافظ إريتريا على نفوذها دون مواجهات مباشرة، وفتح المنافذ البحرية لإدخال المساعدة والدعم لحكومة إقليم تيغراي.^(٦)

ثالثا- أجراس نذر الحرب

ترتبط الانقسامات السياسية العميقة داخل قيادة إقليم تيغراي، بالتوترات الإقليمية المتزايدة في القرن الإفريقي، ولا سيما تلك المتعلقة بطموح إثيوبيا، في الحصول على منفذ بحري دائم، ما يزيد من مخاطر تجدد العنف، وعدم الاستقرار الإقليمي. وتشير المصادر إلى وجود انقسامات داخلية، في الجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، منذ أوائل عام ٢٠٢٥م، حيث سيطر جناح بقيادة: دبرصيون جبري ميكائيل على أجزاء من الإقليم، بعد مواجهات مع قيادة الإدارة المؤقتة المعينة من الحكومة الفيدرالية، وهو ما أدى إلى تصاعد التوترات المحلية في المقلي ومناطق أخرى بالإقليم.^(٧)

ويلاحظ أن التواصل الشعبي المكثف بين أسمرأ وإقليم تيغراي، فيما يُعرف بـ«ظمُؤ»، يشير إلى محاولات لتنسيق الجهود بين الأطراف، لمواجهة التهديدات المشتركة من الحكومة الفيدرالية في أديس أبابا، وتحقيق

بعض برامج التنمية المحلية. ومع ذلك، تبقى طبيعة هذه الشراكة محل جدل، ولا يمكن التأكيد حتى الآن على وجود تحالف رسمي، أو دعم عسكري معلن من الجانب الإريتري لفصيل دبرصيون، حيث تشير التقارير المتاحة، إلى أن هذه العلاقات ما زالت في طور المراقبة والتحقق.^(٨) من جانبها، تعكس التصريحات الرسمية للحكومة الإثيوبية، بما في ذلك خطاب رئيس أركان قوات الدفاع الوطني الإثيوبية، والمقابلات الصحفية لمسؤولي الحكومة، قلقاً واضحاً من النشاطات العسكرية والسياسية للجبهة الشعبية لتحرير تيغراي، واعتبار أي تجاوز للإجراءات الدستورية، تهديداً للأمن الوطني. وفي المقابل، يشدد الرئيس الإريتري أسياس أفورقي في خطابه، على أهمية الطول الإقليمية، لتعزيز الاستقرار في البحر الأحمر، معتبراً أن تكامل الدول الإقليمية هو الطريق الأمثل لضمان أمن الملاحة، ومصالح الدول في المنطقة.^(٩) وبناء على ما سبق، يمكن القول: إن الوضع الراهن في إقليم تيغراي والقرن الإفريقي، يتسم بدرجة عالية من التعقيد، حيث تتداخل الانقسامات الداخلية مع الصراعات الإقليمية، ويُنظر إلى المنافذ البحرية والنفوذ الإقليمي، على أنها عوامل قد تؤدي إلى تصعيد محتمل، ومن ثم، فإن أي تحليل أكاديمي، أو دراسة ميدانية، يجب أن تميز بين ما هو مثبت من أحداث محلية وسياسية، وما هو مجرد ادعاءات أو احتمالات، مع عرض السيناريوهات المحتملة، دون افتراضات قطعية.

رابعاً- السيناريوهات المحتملة: حرب إقليمية أو احتواء دبلوماسي

تشير التحليلات الراهنة، إلى وجود احتمالين رئيسين لتطور الأوضاع في القرن الإفريقي، لا سيما فيما يتعلق بالتوترات بين الحكومة الفيدرالية الإثيوبية، وإقليم تيغراي، ودولة إريتريا، في سياق النزاعات المستمرة حول الحدود والمنافذ البحرية، والسيادة الإقليمية.

١- الاحتمال الأول: تصعيد عسكري إقليمي، وهو أسوأ سيناريو

يتمثل هذا السيناريو في تصاعد الأزمة الحالية، إلى مواجهة عسكرية واسعة النطاق، قد تعيد تشكيل الواقع الإستراتيجي للقرن الإفريقي. وتشير بعض المؤشرات، مثل تحركات عسكرية على الحدود الشمالية لإقليم تيغراي، وإعادة تعبئة القوات الإثيوبية والإريترية، إلى احتمال تصعيد الصراع إلى مواجهة إقليمية شاملة. ويضاف إلى ذلك، نشاط بعض الفصائل المحلية، بما في ذلك قوات دفاع تيغراي، وفصائل داخل إريتريا، التي قد تستغل حالة التوتر، لتأكيد النفوذ الإقليمي. كما يُشير تواصل التعاون الشعبي بين أسمرأ وإقليم تيغراي، في إطار ما يعرف بـ «ظمْدو»، إلى وجود ديناميات جديدة، قد تؤدي إلى اشتباكات محدودة، قد تكون خاطفة، لكنها كافية لتوليد حالة من الجمود الإستراتيجي، يعقبها فترة من عدم الاستقرار.

٢- الاحتمال الثاني: احتواء دبلوماسي وتطبيع تدريجي، وهو السيناريو الأفضل

في المقابل، يشير السيناريو الأكثر تفاؤلاً، إلى إمكانية احتواء الأزمة، من خلال تحكيم العقل، والجلوس إلى طاولة الحوار، مع إدراك جميع الأطراف لأهمية تحقيق توازنات إستراتيجية جديدة. ويشمل هذا السيناريو الحكومة الفيدرالية الإثيوبية، وسلطات إقليم تيغراي، ودولة إريتريا، مع دور نشط للوسطاء الإقليميين والدوليين، مثل الاتحاد الإفريقي، ومؤسسات الأمم المتحدة، لدفع الأطراف نحو خفض التصعيد، وتهيئة بيئة للتسوية السياسية والمصالحة.

ويهدف هذا السيناريو إلى إنشاء آليات مشتركة لإدارة المخاطر، واحتواء التوترات، وتنسيق الجهود التنموية التي تعزز الاستقرار في المنطقة. كما يتطلب تفعيل قنوات التواصل المدني بين شعوب المنطقة، لتقوية الثقة المتبادلة، وتقليل احتمال وقوع صدمات عسكرية مستقبلية. وفي حال تحقق هذا السيناريو، فإنه يمكن أن يؤدي إلى تطبيع محدود للعلاقات، وإعادة الاستقرار النسبي إلى منطقة القرن الإفريقي، بما يتيح للأطراف التركيز على التنمية الاقتصادية، وتأمين الممرات البحرية الحيوية.

خاتمة

تتداخل رواسب النزاع، مع الطموحات الجيوسياسية في هذا المشهد الشائك، ويبقى التقارب بين إريتريا وتيغراي متسبباً خفياً، في رقعة نزاعات القرن الإفريقي. وإذا اجتمعت هذه العوامل، مع خطاب إثيوبي حاد حول ميناء عصب، فإن احتمال اندلاع صدام ليس بعيداً، وما لم تتم إدارة الوضع بذكاء دبلوماسي، فقد يشتعل الفجر القادم بوميضٍ عسكري، لا تحمد عقباه.

ويرى بعض المراقبين، أن التقارب بين إريتريا وإقليم تيغراي، لا يبدو حقيقياً، بقدر ما هو تحركٌ تكتيكي من طرف إريتريا، يُستخدم فيه الانقسام الداخلي في تيغراي، لتحقيق نفوذٍ إقليمي؛ فتقارب إريتريا مع حكومة تيغراي تكتيكي، لتعزيز التموضع في مواجهة الحكومة الفدرالية، ويُشكّل وسيلة للضغط على أديس أبابا. وليس هو بالضرورة، خياراً سياسياً إستراتيجياً واضح العالم، أو تحالفاً معلناً، وقد يكون محاولة لمدّ جسور، وترتيب أوراق اللعب السياسي، ضمن مناخ عدم الثقة المتبادل بينهما. فيما تبحث حكومة إقليم تيغراي عن موطئ قدم، لاستعادة نفوذها في الحكومة الفيدرالية، وتراهن في ذات الوقت على أن العلاقة مع إريتريا، تقود لتكون ورقة تفاوض رابحة، لتعزيز دورها في السلطة. وتشير تحليلات أغلب المراقبين، إلى أن خطر اندلاع صدام مسلح بين إثيوبيا وإريتريا في ازدياد، نتيجة تراكم ملفات النزاع العالقة، وتصاعد الخطاب العدائي، وخاصة الخطأ التاريخي، بادعاء فقدان «ميناء عصب» من قبل رجال السلطة في أديس أبابا، وتبادل التراشق بالاتهامات. فالمخرج الحقيقي لهذه الأزمة، هو العمل على تعزيز

آليات السلام، عبر دعم مسار دبلوماسي متعدد الأطراف، وإشراك الإتحاد الإفريقي، والأمم المتحدة، والقوى الإقليمية لتيسير حوار شامل بين إثيوبيا وإريتريا وتيغراي. ويتم ذلك بالضغط على الأطراف، لتفعيل اتفاقات الجزائر وبريتوريا، بكل البنود المتعلقة بإحلال الاستقرار في المنطقة، والدعوة لتصفير الأزمة الداخلية في إثيوبيا، متمثلة في القوات التي تقاتل الحكومة الفيدرالية، وهي: مليشيات الفانو الأمهرية، و«أونق شين» الجناح العسكري لجبهة تحرير الأرومو، بشروط شفافة، تضمن السلام والاستقرار.

- (1) Yonas Nigussie, “Strategic Reversals: Abiy’s Miscalculation and the Tigray–Eritrea Realignment,” Ethiopia Insight, August 20, 2025, <https://tinyurl.com/49kretuy>
- (2) “Ethiopia: Tensions in Tigray Could Spark War Between Ethiopia and Eritrea - Disaster Must Be Avoided,” Chatham House, March 15, 2025, <https://allafrica.com/stories/202503200015.html>
- (3) “Prime Minister Abiy Ahmed Responds to Questions Raised by MPs in a Session at the House of People’s Representatives,” Ethiopian Embassy, July 3, 2025, <https://tinyurl.com/yc29h2kj>
- (4) “Ethiopia’s Tigray Conflict: A Complex Web of Regional Tensions and Strategic Interests,” Horn Review, March 15, 2025, <https://tinyurl.com/3zmx5fht>
- (5) “Ethiopia accuses Eritrea and TPLF of colluding to “wage war,” involvement in recent attack on Woldiya city in Amhara region,” Addis Standard, October 7, 2025, <https://tinyurl.com/au9rsjen>
- (6) “Ethiopia: Tensions in Tigray Could Spark War Between Ethiopia and Eritrea - Disaster Must Be Avoided,” Chatham House, March 15, 2025, <https://tinyurl.com/3zmx5fht>
- (7) John Reece, “Africa File Special Edition: Tigray Threatens to Spark the Next Eritrean-Ethiopian War and Plunge the Horn of Africa into Crisis,” Critical Threats, March 13, 2025, <https://tinyurl.com/3335cu6y>
- (8) Ahmed Soliman, “De-escalation is needed to prevent Ethiopia and Eritrea from going to war,” Chatham House, November 25, 2025, <https://tinyurl.com/ycxjvxwu>
- (9) “Speech by Foreign Minister Gedion Timothewos at the Foreign Policy Forum on Developments in the Horn of Africa,” A Week in the Horn, November 25, 2025, <https://tinyurl.com/25d4cucy>

الإقصاء السياسي والاجتماعي كمحددات لانتشار التنظيمات الإرهابية في إفريقيا

د. حسن كلي ورتي، محاضر في العلوم السياسية والعلاقات الدولية،
كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، نجامينا.

مقدمة

يعد الإقصاء والتهميش من الظواهر البنيوية المتجذرة في العديد من المجتمعات، ولا سيما في المجتمعات الإفريقية، التي تعاني تاريخيا من اختلالات في توزيع الموارد، وضعف في البنى الاجتماعية والاقتصادية. غير أن خطورة هذه الظواهر قد تضاعفت في العقود الأخيرة بفعل تأثيرات العولمة، والثورة العلمية والتقنية، والتطور الهائل في تكنولوجيا الإعلام والاتصال والمواصلات، وما رافقها من طفرة رقمية غير مسبوقة؛ فقد أسهمت هذه التحولات في تسريع انتقال مظاهر الهشاشة المجتمعية، وتوسيع نطاق تأثيرها، وتعقيد أشكالها، بحيث لم يعد أثر الإقصاء والتهميش محصورا داخل حدود الدول، بل بات يمتد ليشمل المجالات الإقليمية والدولية، مهددا السلم الاجتماعي والوطني، بل والاستقرار والسلم والأمن الدوليين.

وفي ظل هذا السياق العالمي المتحول، شهدت المنظومة الدولية خلال العقود الأخيرة تزايدا ملحوظا في موجات التطرف العنيف، وهو نمط من التطرف، يتجاوز الطابع الفكري أو الخطابى، ليأخذ شكلا عمليا وسلوكيا، يتجسد في أعمال عنف موجهة ضد فئات متعددة من المجتمع. هذا النوع من التطرف، يستند إلى منظومة معقدة من الدوافع والحوافز؛ فبعضها ذو طابع عرقي، أو ديني، أو أيديولوجي، بينما يرتبط بعضها الآخر بخصائص الأفراد النفسية والاجتماعية، وخبراتهم المتراكمة. إلا أن نمو هذه الظاهرة وتطورها، لا يمكن فهمه بمعزل عن السياقات البنيوية، التي تنتجها؛ إذ تتشكل الجماعات المتطرفة، والأفراد المنخرطون فيها، داخل بيئات تتسم بالحرمان، والإقصاء، والتهميش، والاختلالات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وتعد هذه الظروف عاملا حاسما في تغذية التطرف العنيف، وإعادة إنتاجه.

تنبع أهمية هذه الدراسة، من كونها تتناول أحد أكثر العوامل إشكالية، في تفسير ظاهرة التطرف العنيف داخل القارة الإفريقية، وهو الإقصاء والتهميش، الذي تعاني منه فئات

واسعة من المجتمعات؛ فبرغم تعدد المقاربات في تحليل الإرهاب، يظل فهم الجذور البنيوية المرتبطة بالحرمان الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، ضرورة أساسية لصياغة سياسات فعّالة، للوقاية والمكافحة. إذ تُظهر التجارب الإفريقية، أن تآكل العدالة الاجتماعية، وضعف المشاركة السياسية، وغياب تكافؤ الفرص في التعليم والعمل والخدمات، تخلق بيئات خصبة من النقمة، تستغلها الجماعات المتطرفة لتجنيد الأفراد، عبر تغذية مشاعر الغبن والإحباط، وفقدان الثقة في مؤسسات الدولة. ومن هنا تسعى الدراسة إلى إبراز العلاقة الجدلية بين الإقصاء الاجتماعي، وتنامي الإرهاب، مع التركيز على خصوصية السياقات الإفريقية، بما يسهم في تطوير رؤى أكثر شمولية لصانعي السياسات والباحثين، لفهم الظاهرة ومعالجتها من جذورها.

أولاً- التصور النظري لفهم التهميش والإقصاء الاجتماعي

١- مفهوم الإقصاء الاجتماعي

يبدو أن الاستعمال الحديث لمصطلح الإقصاء الاجتماعي، نشأ في فرنسا، حيث جرت العادة على استعماله في الإشارة إلى الأفراد، الذين تخطاهم النظام البسماركي للضمان الاجتماعي، وكان المستبعدون اجتماعياً، هم الذين استبعدتهم الدولة بصورة رسمية.^(١)

ويعد مفهوم الإقصاء الاجتماعي من التحديات الدقيقة، التي يصعب الاتفاق حول مؤشرات، والعناصر المكونة له، ويمكن القول: إن أول ظهور للمفهوم، يعود إلى نشر «روني لونوار» كتابه المعنون «المقصيون أو المستبعدون» سنة ١٩٧٤م، للتنبيه، ودقّ ناقوس الخطر، بسبب عجز اقتصاد في كامل ازدهاره، عن إدماج بعض الجماعات الاجتماعية، مثل المعاقين.^(٢)

وسرعان ما سلط كتاب لونوار الضوء على واقع كان هامشياً، ليصبح «متموقعا» في قلب النقاشات، التي اختلفت في تسميته، وفي تحديد أسسه وآلياته، فتم اقتراح مفهوم «اللاتكيف الاجتماعي»، ليشير إلى أولئك الأفراد على هامش المجتمع المتقدم، والذين يسمون «اللامتكيفين الاجتماعيين».

ويميل الأمريكيون إلى استعمال مصطلحات أخرى، غير مصطلح الإقصاء الاجتماعي، ومنها مصطلح «التغويت» نسبة إلى «الغيتو» والتهميش والطبقة الدنيا، على أنها تتألف من أجيال عديدة من البشر، الذين ينتمون إلى أقليات إثنية، ويعيشون في أحياء مقصورة عليهم، يتلقون فيها خدمات الرعاية الأجنبية، وقد حيل بينهم وبين الاتصال بأغلبية المجتمع، كما أنهم يمثلون خطراً على هذا المجتمع.^(٣)

٢- المفاهيم ذات الصلة

نشير في هذا الصدد إلى عدد من المفاهيم، ذات الصلة بمفهوم الاقصاء الاجتماعي، كمفهوم التهميش الاجتماعي، والعزلة الاجتماعية، وأخيرا الاستبعاد.

أ- مفهوم الاستبعاد الاجتماعي:

نشأ مفهوم الاستبعاد الاجتماعي في الثمانينيات، كرد فعل على محدودية مقاربات الفقر التقليدية، التي ركزت على الدخل، بوصفه المؤشر الوحيد لقياس الرفاه. ويستخدم المفهوم للدلالة على عمليات ممنهجة، يُستبعد من خلالها أفراد أو جماعات من فرص وموارد أساسية، مثل: السكن الملائم، والعمل، والتعليم، والمشاركة السياسية، مما يعيق اندماجهم في المجتمع. ويرتبط هذا الاستبعاد غالبا بسلمات اجتماعية، مثل: الأصل العرقي، أو الجغرافي، أو العمر، أو الانتماء الطبقي.^(٤) ويشير بعض الباحثين، إلى أن الاستبعاد الاجتماعي، هو العمليات التي من خلالها يمنع أفراد وجماعات كاملة من الناس منهجيا، من الحقوق، والفرص، والموارد، والخدمات، والتي عادة ما تتوفر لأعضاء جماعات مختلفة، والتي تعتبر من الأساسيات للاندماج الاجتماعي، كالسكن، والعمل، والرعاية الصحية، والمشاركة المدنية والسياسية.

ب- العزلة الاجتماعية:

تُعرّف العزلة الاجتماعية في الأدبيات السوسولوجية، بأنها حالة من الضعف، أو الانقطاع شبه التام للروابط الاجتماعية للفرد، سواء على مستوى الأسرة، أو الأصدقاء، أو المجتمع الأوسع. وتتجلى العزلة في محدودية التفاعلات الاجتماعية، وانخفاض المشاركة في الأنشطة الاجتماعية، وقد تكون اختيارية، أو مفروضة على الفرد، نتيجة عوامل اقتصادية، أو صحية، أو نفسية، أو مجتمعية.

ج- التهميش الاجتماعي:

يشير التهميش الاجتماعي إلى وضعية تُدفع فيها فئات أو جماعات، إلى أطراف البنية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، بما يحول دون مشاركتهم الكاملة في أنشطة المجتمع وموارده. ويحدث التهميش عندما تقصى هذه الفئات عن التعليم، والعمل، والتمثيل السياسي، والخدمات الأساسية. وهو ظاهرة بنيوية، وليست فردية؛ إذ تنشأ غالبا من سياسات غير عادلة، أو أنظمة اجتماعية تميز بين الفئات. ويرتبط التهميش بظهور أنماط من السلوكيات الاحتجاجية أو العنيفة، بما يشمل الانخراط في شبكات إجرامية، أو جماعات راديكالية في بعض السياقات الهشة.^(٥)

ويحدد التهميش بوصفه تهميشا فعليا عن الأهداف الفردية أو المجتمعية؛ فظهور الأشكال «الممارساتية» لدى الفرد الفاعل، مثل: الشبكات الإجرامية، أو التنظيمات الإرهابية، مرتبط في حقيقته بمضمون الفعل المجتمعي.^(٦)

ويتضح من العرض المفاهيمي السابق، أن الاستبعاد الاجتماعي والتهميش والعزلة الاجتماعية، تشكل منظومة مترابطة من العمليات والنتائج، التي تفضي في مجملها إلى إضعاف بنية الاندماج الاجتماعي داخل المجتمع؛ فالاستبعاد الاجتماعي، يُعدّ عملية بنيوية متعمدة أو غير مباشرة، تُمارس من خلال سياسات عامة، أو ممارسات اجتماعية وثقافية، تُقيد وصول أفراد أو جماعات إلى الموارد، والفرص، والحقوق الأساسية، مما يجعلهم في موقع أقل قدرة، على المشاركة الفاعلة في الحياة العامة. ويأتي التهميش كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لهذه العملية؛ إذ يتحول الاستبعاد من عملية إلى وضعية اجتماعية مستقرة، تتجسد في ضعف المكانة الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، للفئات المعنية، وتعطل قدرتها على التأثير في مسارات التنمية وصنع القرار، الأمر الذي يعمّق الفجوات الطبقيّة، ويعيد إنتاج أشكال متعددة من اللامساواة.

أما العزلة الاجتماعية، فتمثل أحد المظاهر السلوكية، أو النفسية، أو البنيوية الناجمة عن تراكم آثار الاستبعاد والتهميش؛ حيث يفقد الفرد، أو تفقد الجماعة القدرة أو الرغبة في بناء روابط اجتماعية فعّالة، مما يؤدي إلى تراجع المشاركة المجتمعية، وضعف الانتماء، وقد يتطور ذلك إلى شعور بالاعتزاب، أو فقدان الثقة في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية. ومن منظور سوسولوجي، يمكن اعتبار العزلة ليس فقط نتيجة، بل أيضا آلية، تعيد إنتاج الهشاشة الاجتماعية؛ إذ إنها تقطع قنوات الدعم الاجتماعي، وتحُدّ من فرص الحراك الاجتماعي.

وتشكل هذه المفاهيم الثلاثة - بوصفها عمليات ونتائج متداخلة - إطارا نظريا، لفهم طبيعة الاندماج الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة، خاصة تلك التي تعاني من اختلالات هيكلية، كالفقر متعدد الأبعاد، والتمييز، وضعف مؤسسات الحكم. فالاستبعاد والتهميش والعزلة، لا تعمل في جزر منفصلة، وإنما تتكامل لتنتج نمطا من الهشاشة البنيوية، التي تمهّد لظهور توترات اجتماعية، وصراعات داخلية، تتخذ أشكالا مختلفة، ومنها الاحتجاجات العنيفة، أو الانخراط في شبكات غير رسمية، وقد تكون إجرامية أو راديكالية. ومن ثم، فإن تحليل هذه المفاهيم، لا يكتمل إلا بالنظر إليها كآليات بنيوية مؤثرة في استقرار المجتمع، وقدرته على تحقيق الاندماج الشامل، وتعزيز التماسك الاجتماعي.

ثانيا- تأثير الفجوات الاقتصادية والسياسية على مشاعر الحقد والانقسام الاجتماعي في إفريقيا

يشير التحليل إلى وجود عاملين رئيسين، يسهمان في تعزيز مشاعر الكراهية والاستياء بين الأفراد، ويولدان شعورا بالغبن تجاه الدولة، بسبب انعدام العدالة، وعدم المساواة في الحقوق والواجبات. ويتمثل العامل الأول في التوزيع غير العادل للثروات والموارد، على المستوى الوطني والإقليمي، داخل القارة الإفريقية، حيث

يهيمن صنع القرار على الموارد، ويحددون آليات تخصيصها، بشكل يفضي إلى حرمان فئات واسعة من المجتمع. أما العامل الثاني، فهو غياب المشاركة السياسية الفعالة، من قبل الجماعات المتنوعة في المجتمع، وهو ما يزيد من إحساس الأفراد بالإقصاء والتهميش، ويحد من قدرتهم على التأثير في صنع القرار الوطني.

١- عدم التوزيع العادل للثروات في إفريقيا

يلعب التوزيع غير العادل للثروات والموارد داخل الدول الإفريقية، دورا مركزيا في تكوين بيئات هشة، تفضي إلى النزاع، والعنف، وتتيح الفرص لاستقطاب جماعات مسلحة أو متطرفة؛ فبدلا من أن تمثل الموارد - من معادن وأراض وصادرات - مصدرا للتنمية والنهضة، فإنها غالبا ما تصبح مدخلا للصراع، عندما تدار ضمن نظام غير عادل، ولا يضمن توزيع عوائدها بإنصاف بين الجماعات والأقاليم.

ورغم أن القارة الإفريقية شهدت في عام ٢٠٢٥ م نموا اقتصاديا متوقعا، يقارب ٣,٩% (بعد ٣,٣% في ٢٠٢٤)،^(٧) فإن هذا النمو لا يعكس - بالضرورة - تحسنا شاملا في مستوى المعيشة. فعلى سبيل المثال، يعيش نحو ٤٦٤ مليون شخص في إفريقيا جنوب الصحراء في فقر مدقع،^(٨) فيما يعاني حوالي ٤٣,٩% من سكان القارة من الفقر المدقع (أقل من ٢,١٥ دولار يوميا) في عام ٢٠٢٥ م،^(٩) كما يواجه أكثر من ١٢٠ مليون إفريقي انعداما شديدا للأمن الغذائي، وتشكل أغلب هذه الفئة المجتمعات المتأثرة بالنزاعات أو العنف.^(١٠)

وفي الكثير من الحالات، تكون موارد الدولة - خصوصا الطبيعية - ضعيفة الإطار المؤسسي والاجتماعي، كما تعاني مؤسساتها من الهشاشة والفساد، أو من انعدام النفاذ الشامل للعدالة الاقتصادية. وفي هذه الظروف، يصبح الاقتصاد مصدرا لتمويل النزاعات، بدلا من وسيلة للرفاه.

ويتجاوز التمييز الاقتصادي كونه مسألة دخل؛ فهو غالبا ما يتقاطع مع التباينات الإثنية أو الجهوية، بحيث تحرم جماعات محددة من الحصص العادلة من الثروة أو الخدمات، وفي هذه الحالة، لا تلعب الهوية الإثنية دورها بمفردها في إنتاج العنف، بل توظف كأداة تعبئة احتجاجية، من قبل نخب تسعى لاستثمار الحرمان الاقتصادي والسياسي، لتحقيق مكاسب جماعية أو فردية.

ولا يكفي التوزيع غير العادل للثروات بإشغال أزمات فورية، بل يسهم في إطالة أمدها؛ ففي غياب العدالة الاقتصادية، وتنامي الفوارق، تصبح الجماعات المحرومة عرضة للاستقطاب من منظمات مسلحة، أو جماعات راديكالية، لا سيما إذا شعرت بعدم وجود بدائل سلمية للتعبير عن غضبها، أو تحقيق مطالبها. وهذا ما أظهرته دراسات تربط بين الفقر، وهشاشة الدولة، ونسب الإرهاب في بعض الدول الإفريقية.

ويعمق التهميش الاقتصادي شعور الغبن والإقصاء، ويضعف الثقة بين المواطنين والدولة، وهذا بدوره

يؤدي إلى تفكك النسيج الاجتماعي، ويزيد من احتمالات النزاعات على الهوية أو الموارد. وكذلك، تفشل أنظمة الحكم في تحقيق العدالة والتمثيل المتوازن، وهو ما يفضي إلى دوامة من العنف والفوضى، وصعوبة تحقيق تنمية حقيقية.

٢- ضعف المشاركة السياسية في إفريقيا:

تشير نتائج أحدث استطلاعات «الأفروباروميتر» لعام ٢٠٢٥م، إلى أن المشاركة السياسية والمواطنة في شتى الدول الإفريقية - رغم بعض المستويات من التصويت أو النشاط المدني - تواجه عوائق بنيوية، تؤدي إلى ما يمكن تسميته: - «إقصاء سياسي فعال» لفئات واسعة؛ وبحسب التقرير، فمن بين ٣٩ دولة شملها المسح، أظهر أن نحو ٧٢٪ من الأفارقة، صوتوا في الانتخابات الوطنية الأخيرة.^(١١) وإضافة للتصويت، تتعدد أشكال المشاركة، فيذكر التقرير أن ٤٧٪ حضروا اجتماعا مجتمعيا، مرة على الأقل خلال العام السابق، و٤٢٪ شاركوا مع آخرين في رفع قضية مجتمعية، أو مطلب جماعي. ورغم ذلك، فلا يترجم هذا النشاط دائما إلى تمثيل سياسي مؤسسي فعال؛ فالتعبير عن القرب من حزب سياسي (كمؤشر على الانتماء والتمثيل)، بلغ فقط ٤١٪ من المستجيبين.^(١٢)

هذا الواقع - مشاركة مدنية واسعة مع ضعف التمثيل - يشير إلى انفصال بين المواطنين والدولة، أو المؤسسات السياسية؛ أي إن كثيرين يشاركون (تصويت، اجتماعات محلية، مناشدات)، لكن دون أن يجدوا تمثيلا حقيقيا لصوتهم، داخل أطر صنع القرار.

ومن ثم؛ يُعد ضعف المشاركة السياسية، أحد أبرز أشكال الإقصاء البنيوي في المجتمعات، حيث لا يقتصر أثره على غياب التصويت أو التمثيل داخل الأحزاب السياسية، بل يمتد إلى استبعاد شرائح واسعة من المجتمع من عمليات اتخاذ القرار، وفقدانها أدوات فعلية للمساءلة، والتأثير على السياسات العامة، التي تمس حياتها اليومية. وعندما لا تتوفر هذه القنوات الحقيقية للتعبير والمشاركة، يتراكم شعور الأفراد بالغبن والإقصاء، ما يضعف الشرعية المجتمعية للدولة، ويقلل من قدرة المؤسسات على كسب ثقة المواطنين. كما أن هذا الفراغ السياسي والتمثيلي، يمكن أن يشكل أرضا خصبة لانخراط المواطنين في بدائل غير رسمية، سواء عبر الانخراط في جماعات موازية، على المستوى القبلي أو العرقي أو المحلي، أو في حالات أكثر خطورة، في جماعات متطرفة، تسعى للحصول على العدالة، أو الاعتراف بما حرّموا منه، ومن ثم، فإن غياب المشاركة السياسية الفاعلة، يصبح أحد العناصر الجوهرية للإقصاء البنيوي؛ إذ يفاقم من هشاشة المجتمع، ويزيد من مخاطر الصراعات الداخلية، ويهيئ الظروف لتنامي التطرف والعنف بين بعض الفئات.

ثالثا- نشاط التنظيمات الإرهابية في الساحل الإفريقي، الأبعاد الهيكلية والسياسية:

تصاعد نشاط التنظيمات الإرهابية في منطقة الساحل الإفريقي خلال السنوات الأخيرة، بفعل السياق القائم فيها، والأزمات التي تعيشها دول الساحل، بوصفها دولا تعاني من هشاشة البنى الاجتماعية القائمة، وتضائل القدرة على التعامل مع الإرث التاريخي، لمرحلة ما قبل الاستقلال. ووجدت التنظيمات الإرهابية في هذا السياق المتحم بالأزمات، فرصة مواتية لتكريس وجودها لأمد طويل في المنطقة، خصوصا أن تراجع قدرة الدولة الوطنية في المنطقة، أفرز مساحات هائلة داخل حدود الدولة، غير خاضعة لسيطرتها، فضلا عما أفضت إليه سياسات الدول بالمنطقة، وعجزها عن القيام بوظائفها الأساسية، من إنتاج سلسلة لا تنتهي من المظالم، سواء كانت مادية أو بشرية.

ونمت هذه التنظيمات الإرهابية بصورة مطردة خلال العقدين الأخيرين، في منطقة الساحل والصحراء الإفريقية، حتى بات أكبر إقليم في العالم من الناحية الجغرافية، يعج بالتنظيمات الإرهابية المسلحة، إذ يشمل الإقليم دولا مثل: ليبيا، والجزائر، وتشاد، ومالي، والنيجر، وبوركينا فاسو، وأخيرا موريتانيا. (١٣) وأنتجت مراهنة التنظيمات الإرهابية على هذه الملامح لمنطقة الساحل الإفريقي، عددا من السمات الجوهرية للتنظيمات، وتوجهاتها العملية؛ فكثير من التنظيمات - إن لم تكن كلها - لا يمكن وصفها بأنها تنظيمات داخلية، بل تنظيمات إقليمية، تتسع دائرة نشاطها لتشمل أكثر من دولة في الإقليم، ناهيك عن الزخم الذي اكتسبه هذا التوسع في النشاط الإرهابي الإقليمي، عقب التدخل العسكري الفرنسي في مالي، عام ٢٠١٣ م. (١٤)

وقد باتت هذه الدول ساحة عمليات مفتوحة للتنظيمات الإرهابية، مستغلة العديد من العوامل السياسية والبيئية والاقتصادية، التي مهدت لترسيخ وجودها وبسط نفوذها. وفي محاولة لفهم طبيعة التنظيمات الإرهابية، وتحركاتها وتنظيماتها في منطقة الساحل، أصدر «مشروع التهديدات الحرجة» التابع لمؤسسة «أمريكان انتربرايز»، للكاتبة «كاثرين زيمرمان»، تقريرا، تناولت فيه خريطة التحولات التنظيمية للجماعات الإرهابية في منطقة الساحل، والدوافع التي عززت وجودها. (١٥)

وأوضحت الخارطة أن التنظيمات الإرهابية في منطقة الساحل والصحراء، تنبئ بانتشار واسع للجماعات المتشددة، التي أسهمت من خلال وحدة منطلقاتها الفكرية، في زيادة درجة التنسيق والتشابك فيما بينها، ليخرج تهديدها عن حيزه الضيق، ويتسم بالشمولية أكثر، فأضحى من الضروري صياغة إستراتيجية شاملة، قائمة بالأساس على رفع درجة التنسيق بين بلدان المنطقة، والعمل على ضرب المفاصل الرابطة بين الإرهابيين فكريا وأمنيا، من أجل صد هذا الزحف الإرهابي المتنامي. (١٦)

وتشترك الجماعات الإرهابية في منطقة الساحل والصحراء «بوكو حرام الإرهابية، وتنظيم داعش في غرب

إفريقيا، وتنظيم القاعدة في بلاد المغرب العربي»، في رفض مفهوم الدولة الوطنية، وتتبنى إقامة نموذج «دولة الخلافة الإسلامية» سرا أو جهرا، باعتبار أن المسارات السياسية القائمة، هي مسارات كفر وتغريب، يجب مناهضتها بالقوة.

كما تدعو هذه الجماعات إلى إقامة الشريعة من منظورها الخاص، باستعمال قوة السلاح والعنف، متبينة الجهاد كحجر زاوية في التصور النظري والتطبيقي، لتغيير الواقع، بما يجعلها مرشحة لتبني أقصى حدود العنف.^(١٧)

فبعد أكثر من ستة عقود على الاستقلال، تبدو الدولة الإفريقية في منطقة الساحل، غير مكتملة النمو الوطني؛ فمؤسساتها ليست قادرة على أداء وظائفها السياسية، ولا الأمنية، ولا التنموية، فيما تعاني المجتمعات نزاعات محلية، وانقسامات قبلية، تأخذ سمة عابرة للحدود، مما عمق معضلة فقدان المناعة أمام التهديدات والمخاطر، ولذلك لجأت الأنظمة الحاكمة إلى التدخلات العسكرية الخارجية، لمساعدتها على مواجهة العدوى الإرهابية، إلا أن الأخيرة تفاقمت، لتتكرر بذلك تجارب دولية، فشلت فيها العوامل الخارجية في معالجة السلطة، إثر الانسحاب الأمريكي من أفغانستان.^(١٨)

خاتمة

يمثل الإقصاء السياسي والاجتماعي، أحد أهم العوامل البنيوية، المسفّرة لتصاعد نشاط الجماعات الإرهابية في إفريقيا؛ إذ إن حرمان فئات واسعة من المشاركة في إدارة الشأن العام، وتهميشها من عمليات صنع القرار، يخلق شعورا عميقا بالغا، وفقدان العدالة. وتتفاقم هذه الوضعية بفعل ضعف الخدمات الأساسية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية، وانتشار البطالة بين الشباب، ما يجعل الكثير منهم يرى في الدولة كيانا بعيدا، وغير قادر على تلبية احتياجاته، أو توفير أبسط مقومات الحياة الكريمة. وفي هذا السياق، تجد الجماعات الإرهابية بيئة مثالية لتوسيع نفوذها، من خلال تقديم نفسها كبديل، يوفر الحماية والاعتراف والفرص، مستغلة هشاشة العلاقة بين الدولة والمجتمع.

كما يسهم الإقصاء في تعزيز الانقسامات العرقية والمحلية، ويضعف ثقة المواطنين في المؤسسات، ويسهم في انتشار النزاعات على الموارد، وهو ما تستغله هذه الجماعات لتجنيد الأفراد، والسيطرة على المناطق المهمّشة. وبالتالي، فإن مواجهة التطرف العنيف في إفريقيا، لا يمكن أن تنجح بالاعتماد على المقاربة الأمنية وحدها، بل تتطلب معالجة جذرية لمسببات الإقصاء، من خلال توسيع المشاركة السياسية، وتعزيز الحكم الرشيد، وتمكين الفئات الهشة، وضمان توزيع عادل للثروة والخدمات؛ فبناء دولة عادلة وشاملة، هو السبيل الأنجع لحرمان الجماعات المتطرفة من استغلال مظاهر التهميش، وتحويلها إلى وقود للعنف والإرهاب.

- (١) حدة يوسف، «مواجهة التهميش والإقصاء الاجتماعي من وجهة نظر المختصين في الجزائر وبعض البلدان العربية»، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، (الجزائر: جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، ٢٠١٩م)، العدد ١، ١٤٧.
- (٢) نوال بوطرفة، «عن الإقصاء الاجتماعي والمقصين الاجتماعيين»، مجلة أفاق للعلوم، (الجزائر: جامعة زيان عاشور، الجلفة، ٢٠١٩م)، العدد ١٦، ٥٥.
- (٣) حدة يوسف، «مواجهة التهميش والإقصاء الاجتماعي من وجهة نظر المختصين في الجزائر وبعض البلدان العربية»، ١٤٧.
- (٤) عزوز عبد الناصر، رحاب مختار، «الاستبعاد الاجتماعي، تعقّد المفهوم وتعدد الأبعاد»، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، (الجزائر: المؤسسة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، ٢٠٢٢م)، العدد ١٢، ٩٥٦-٩٧٦.
- (5) Hina Haq and Delaram Shafieiou, "Radicalization from a societal perspective," *Personality and Social Psychology*, 14, 2023, <https://tinyurl.com/2afcp6pw>
- (٦) كريمة هرندي، «التهميش الاجتماعي وانعكاساته الهجرة غير الشرعية والعنف أنموذجا»، مجلة الحوار الثقافي، (الجزائر: مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم، ٢٠٢٤م)، العدد ٢، ٣٤٦.
- (٧) «التوقعات الاقتصادية الإفريقية ٢٠٢٥: التوقعات الاقتصادية لإفريقيا على المدى القصير ستكون مرنة رغم الرياح الاقتصادية والسياسية العالمية المعاكسة»، البنك الإفريقي للتنمية، (٢٧، مايو، ٢٠٢٥م)، <https://tinyurl.com/mt5dnkpu>
- (8) "International Bank for Reconstruction and Development," The World Bank, October 2025, <https://tinyurl.com/2e4rrwn2>
- (9) International Bank for Reconstruction and Development», The World Bank.
- (10) International Bank for Reconstruction and Development», The World Bank.
- (11) "African insights 2025: Citizen engagement, citizen power: Africans claim the promise of democracy," Afrobarometer, 2025, <https://tinyurl.com/4ckphb8c>
- (12) "African insights 2025: Citizen engagement, citizen power: Africans claim the promise of democracy".
- (١٣) حسن كي ورتي، «التحديات الأمنية بمنطقة الساحل الإفريقي وانعكاساتها على الاستقرار في تشاد»، (رسالة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، المغرب، ٢٠٢٥م)، ١٠٨.
- (١٤) أحمد أمل، وخالد عكاشة، الإرهاب في الساحل الإفريقي عشر سنوات من المواجهة المستعصية، (القاهرة: دار نشر المركز المصري للفكر والدراسات الإستراتيجية، ٢٠٢١م)، ٣٢.
- (١٥) حسن كي ورتي، «التحديات الأمنية بمنطقة الساحل الإفريقي وانعكاساتها على الاستقرار في تشاد»، ١٠٨.
- (١٦) محمد بوبوش، العنف الجهادي بشمال إفريقيا: التحديات الأمنية والإستراتيجية المواجهة، دراسة في السلفية الجهادية، (دار نور للنشر، ٢٠١٦م)، ٣٨.
- (١٧) محمد بوبوش، العنف الجهادي بشمال إفريقيا: التحديات الأمنية والاستراتيجية المواجهة، ٣٩.
- (١٨) أحمد أمل، وخالد عكاشة، الإرهاب في الساحل الإفريقي عشر سنوات من المواجهة المستعصية، ١٢.

مراكز التفكير في إفريقيا: التواجد والتحديات

أ.د. فوزي بن دريدي، جامعة محمد الشريف مساعدي، سوق أهراس.

مقدمة

تؤدي مراكز الفكر أدوارا مهمة، في ردف السياسات الوطنية بالتوجيهات، المبنية على آراء خبراء ومتخصصين في المجالات التي تعنى باتخاذ القرار. ويختلف تواجد مراكز الفكر في العالم حسب متغيرات عديدة، يرتبط بعضها بالقوانين الوطنية التي تسمح بمأسستها، وشروط تأسيسها قانونيا، إضافة إلى التوجهات الرسمية في السماح لبروز مثل هذه المراكز -الخاصة منها على سبيل المثال - ومستوى التنمية الاقتصادية التي تؤثر في قدرة هذه المراكز، على تأمين التمويل اللازم للمراكز الفكرية وبهذا، فإن إفريقيا يتواجد فيها عدد من المراكز الفكرية المتخصصة (حكومية، خاصة)، وتحاول هذه الورقة تحليل واقع هذه المراكز، والتحديات التي تعترض تطورها وأداء أدوارها. ويلاحظ أن هناك فجوة بين أهمية المراكز الفكرية في إفريقيا عموما، وبين الحاجة الملحة التي تدعو إلى تواجدها، لمساعدة أصحاب القرار في إحداث تنمية اقتصادية واجتماعية مدروسة وموجهة.

أولا - تصنيف مراكز الفكر حول العالم:

- يمكن تصنيف مراكز الفكر حول العالم، وفقا لمجموعة من المعايير، وذلك على النحو الآتي:
- **الاتجاه السياسي أو الأيديولوجي:** تقسم مراكز الفكر من جانب الاتجاه السياسي إلى مراكز ليبرالية، ومراكز محافظة دينية وقومية ويسارية، بالإضافة إلى نوع ثالث، يندرج ضمن المراكز المستقلة فكرياً.
 - **الاستقلالية:** مثل المراكز البحثية المستقلة، وشبه المستقلة، والمراكز البحثية الحزبية، والمراكز الجامعية.
 - **التخصص:** هناك مراكز متخصصة بمجال معرفي معين؛ مثل: مؤسسة راند الأمريكية، التي تركز في دراستها على القضايا ذات الطبيعة العسكرية والمخابراتية والإستراتيجية، ومكتب المحاسبة العامة التابع للكونغرس الأمريكي.

- **النطاق الجغرافي:** وتنقسم إلى مراكز تُعنى بمنطقة جغرافية محددة، دولة أو قارة ما، مثل: مراكز الفكر المعنية بشؤون الشرق الأوسط ومنطقة الخليج العربي.
- **التمويل:** تنقسم المراكز البحثية إلى مراكز بحثية حكومية، مثل: معهد البنك الدولي في الولايات المتحدة الأمريكية، والدوائر المتحدة لدراسات الأمن التابع للاتحاد الأوروبي، وغيرها. والمراكز البحثية الأكاديمية، مثل: معهد هوفر التابع لجامعة ستانفورد، ومراكز بحثية خاصة، سواء ارتبطت بتقديم النفع العام، أو تقديم النفع للجهات التي قامت بتأسيسها، مثل: الشركات. والجدير بالذكر، أن التمويل يعتبر عنصرا مهما، يؤثر على مستوى الإنفاق داخل المؤسسات البحثية.^(١)

ثانيا - أنواع مراكز الفكر:

- يميز جيمس ماكجان، وكينت ويفر،^(٢) بين أربعة أنواع رئيسة من مراكز الفكر، وعلى النحو الآتي:
- **مراكز الفكر الجامعية:** التي تضم باحثين أكاديميين من حملة الدكتوراه، وتتخذ شكل «جامعات بلا طلاب». وهي أكثر توجهاً نحو البحث عن المعرفة، من البحث عن السلطة.
- **مراكز المناصرة:** التي تدافع عن قضية أو أيديولوجية سياسية معينة، من خلال إعداد تقارير خبراء حول السياسات العامة والتوصيات.
- **مراكز الفكر التابعة للأحزاب السياسية:** التي تنتج أبحاثا مفيدة بشكل مباشر لحزب معين، وخاصة لتغذية برنامجه.
- **معاهد البحث المتعاقدة:** والتي تتبع منطق الاستجابة للأوامر العامة أو الخاصة.

جدول رقم (٠١)، يوضح تصنيف مراكز الفكر عالميا حسب الانتماء

الفئة	المفهوم
مستقلة وذاتية	استقلال كبير عن أي مجموعة مصالح، أو جهة مانحة مستقلة في عملها وتمويلها من الحكومة.
شبه مستقلة	مستقلة عن الحكومة، ولكن تسيطر عليها مجموعة مصالح، أو جهة مانحة، أو وكالة تعاقدية توفر غالبية التمويل، ولها تأثير كبير على عمليات مؤسسة الفكر.
تابعة للحكومة	جزء من الهيكل الرسمي للحكومة.
شبه حكومية	يتم تمويلها حصريا من خلال المنح والعقود الحكومية. ولكنها ليست جزءا من الهيكل الرسمي للحكومة.

الفئة	المفهوم
تابعة للجامعة	مركز أبحاث السياسات في الجامعة
تابعة لحزب سياسي	منتتم رسميا إلى حزب سياسي
تابعة لشركات ربحية	منظمة أبحاث السياسات العامة، التي تهدف إلى الربح، تابعة لشركة، أو تعمل فقط على أساس الربح

Source: James McGann et al., "Think Tanks in Policy Making – Do They Matter?," Friedrich-Ebert-Stiftung, Shanghai, September 2011, <https://tinyurl.com/289e4e28>

ثالثا - ما واقع مراكز الفكر في إفريقيا من حيث التواجد والتحديات؟

وتتولد عن هذا السؤال مجموعة من الأسئلة الفرعية، وعلى النحو الآتي:
ما واقع تواجد المراكز الفكرية في إفريقيا؟ وما التحديات التي تواجهها تلك المراكز؟ وكيف يمكن تفعيل دورها مستقبلا في المساعدة على تحقيق التنمية في إفريقيا؟

أ- الإطار النظري حول المراكز الفكرية:

يعرّف برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) مراكز الفكر بأنها: «الجسر بين المعرفة والقوة، وتعمل مراكز الفكر في أفضل حالاتها كمرشحات ومركبات تجميعية، تسهل تحديد قضايا السياسات، وتصميم حلول السياسات، وتنفيذ القرارات السياسية والتغذية المرتدة بشأنها. وقد أدى انتشار مؤسسات الفكر والرأي وتوسعها عالميا، وتوسعها وتشبيكها، إلى تضخيم قدرتها على البحث، وتطوير الحلول لقضايا السياسة العامة العالمية في الوقت الحاضر».^(٣)

ويعرّف ما كجان وويفر «مراكز الفكر بأنها: « منظمات بحثية سياسية، تعمل على مستوى عال من الأتمتة، من خلال العلاقة مع الحكومة ومجموعات أخرى من الشركات، مثل: المؤسسات، والأحزاب السياسية. وتقدم مبادرة مؤسسة الفكر (ITT) تعريفا مفصلا لمؤسسة الفكر، يقول: «إنها منظمة غير حكومية مستقلة، تجري أبحاثا دقيقة ومحايدة، لا تعتمد ماليا على مصدر واحد للتمويل، غير سياسية، محايدة سياسيا، وتلتزم بنشر نتائج أبحاثها في هذا المجال عامة، ولديها القدرة على إنشاء برنامج بحثي مستقل».^(٤)

تعريف «ماكجان» يستبعد المراكز المؤسسة من الحكومات، وهذه المراكز لها أهميتها في الاستجابة للخطط التي تضعها الحكومات. وعلى الرغم من أهمية استقلالية مراكز الفكر عن المؤسسات الرسمية، يعتبر ماكجان أن تلك المراكز، تقيم علاقات وثيقة مع المؤسسات الرسمية والأحزاب السياسية. إلا أن وجود مراكز

إفريقية حكومية، يعتبر ذا أهمية بالغة في مساعدة صاحب القرار، في وضع وتقييم الإستراتيجيات الفعالة، في مجالات التنمية، والموارد البشري، والتعليم، والصحة، وغيرها من المجالات.

وسنعمد في تعريف مراكز التفكير على ما جاء في تقرير جامعة بنسلفانيا، بأنها «منظمات تعنى بتحليل أبحاث السياسات العامة، والمشاركة فيها، وتقديم أبحاثاً وتحليلاتٍ ونصائحٍ موجهة نحو السياسات، وحول القضايا المحلية والدولية، مما يمكّن صانعي السياسات والجمهور، من اتخاذ قرارات مستنيرة بشأن السياسات العامة. وقد تكون مراكز الفكر مؤسسات تابعة أو مستقلة، تشكل هيئات دائمة، وليست لجانا مؤقتة. وغالبا ما تعمل هذه المؤسسات كجسر بين الأوساط الأكاديمية، وصانعي السياسات، وبين الدول والمجتمع المدني، مقدمة خدمة للصالح العام، كصوت مستقل، يُترجم الأبحاث التطبيقية والأساسية إلى لغة مفهومة وموثوقة، وسهلة الفهم، لصانعي السياسات والجمهور».^(٥)

وتبرز صعوبة منهجية لقياس التأثير التجريبي لمراكز الفكر؛ فهناك من وضع بعض المؤشرات لقياس ذلك التأثير، ويتمثل في الآتي:

- الظهور الإعلامي.
- المنشورات.
- إشارات إلى مراكز الأبحاث في المنشورات العلمية والسجلات الحكومية.
- تعيين الموظفين في مناصب حكومية.

بالطبع لا نمثل هذه المؤشرات إجماعاً بين المؤسسات الفكرية، لكنها تمثل وجهة نظر واضعيها.^(٦) والباحثون، إما يوظفون النظرة التعددية، أو النظرة النخبوية للسياسة العامة، عند تحليل مراكز الفكر. وتفترض المقاربة التعددية في السياسة العامة، أن المشاركة في صنع السياسات العامة، مفتوحة أمام مختلف الجهات الفاعلة، وبالتالي، فإن مراكز الفكر، تشارك على قدم المساواة في التنافس على خيارات صانعي القرار.^(٧)

١- المقاربة التعددية:^(٨)

وبالنظر إلى أن مراكز الفكر لها جذور أنجلوسكسونية، فإن البيئة السياسية الأمريكية، هي أفضل إطار لفهم عمل مراكز الفكر، وقد أدت إلى ذلك بعض السمات المميزة للنظام السياسي الأمريكي، مثل: الضوابط، والتوازنات بين الفروع المختلفة.

إن عملية السياسة المفتوحة الموضحة أعلاه، هي أكثر ما يحدد بشكل أساس، مفهوم الديمقراطية التعددية، وهو أحد الأطر النظرية، التي توظفها هذه الأطروحة، لشرح عمل مراكز الفكر. ويعتقد أنصار وجهة النظر التعددية، أن السلطة السياسية في الدولة، موزعة بين العديد من الفاعلين، الذين يسهم كل منهم في عملية صنع السياسات التعددية، وجعلها أداة مفيدة، لوضع تصور لعمل مراكز

الفكر، لأنه من خلال هذه العدسة، يمكن تحديدها، كمنظمات تسهم في صنع السياسات من الخارج.

٢- نظرية النخبة:^(٩)

تم تطوير نظرية النخبة كرد فعل للنظرية الديمقراطية التعددية، مع التأكيد على أن «النخب، وليس الجماهير، هي التي تحكم كل المجتمعات»، على عكس التعددية، التي تؤكد على أن الجميع يمكنهم المشاركة في عملية صنع السياسات الديمقراطية.

وعادة ما يتم تطبيق نظرية النخبة على دراسة مراكز الفكر، من أجل الإشارة إلى العلاقات البارزة، التي تربطها بالقادة السياسيين، والتأكيد على المكانة المتميزة التي تتمتع بها هذه المنظمات، في التأثير على عملية صنع السياسات. بل ويذهب بعضهم إلى حد التأكيد على أنه «غالبا ما تعمل مراكز الفكر كأدوات للنخبة الحاكمة، ويمكن لنظرية النخبة كأداة للنظر إلى مراكز الفكر، أن تذكرنا أيضا، بأن مراكز الفكر لا تمثل في الواقع أي مصالح اجتماعية، على عكس جماعات المجتمع المدني.

٣- التعاونية:

التعاونية كنظرية تعترف بإدماج الجماعات في عمليات صنع السياسات للدولة، كوسيلة للتغلب على تضارب المصالح بين العمالة ورأس المال. وعلى النقيض من التعددية والنظرية النخبوية، لا تستعمل التعددية في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها تستعمل في السياق الأوروبي بشكل أكثر تواترا، لوصف المصلحة السياسية، والتمثيل، والمفاوضات في دولة الرفاهية.

ووفقا للنظرية التعددية، تتنافس مراكز الفكر مع بعضها البعض في سوق الأفكار، لتحقيق النفوذ على صنع السياسات. ومن ناحية أخرى، ووفقا لنظرية النخبة، تتمتع مراكز الفكر بشكل عام بمكانة متميزة، من خلال كونها جزءا من نخبة، وعلى النقيض من العدستين السابقتين، يمكن اعتبار التعاونية حلا وسطا، بين التعددية والنخبوية.

وحسب الباحثة «أنا راينخ»، فإن النموذج الأقرب لفهم ومقاربة مراكز الفكر، هي المقاربة التعاونية، التي تنطبق أكثر على المراكز المتواجدة خارج الولايات المتحدة الأمريكية، انطلاقا من خصوصياتها الثقافية والسياسية.^(١٠)

ب - واقع تواجد مراكز الفكر في إفريقيا

يمثل تأسيس مراكز الفكر في إفريقيا أمرا ضروريا، ليس للحكومات فقط، ولكن أيضا للمجتمعات الإفريقية، حيث إنها تسهم في الرفع من أداء المؤسسات الحكومية والخاصة، والشركات الوطنية؛ لذلك فإن التعرف على واقع تواجد تلك المراكز، يعد حيويا لفهم توزيع المراكز، وتواجدها في الدول الإفريقية.

١- الوضع الراهن لمراكز الفكر في إفريقيا:

يمكننا ذكر أهم مراكز التفكير في إفريقيا جنوب الصحراء، بناء على تقرير صادر عن «جامعة بنسلفانيا» لسنة ٢٠٢٥م، لأفضل مراكز التفكير في إفريقيا جنوب الصحراء، وعلى الترتيب الآتي:

جدول رقم (٢): يوضح أفضل ٢٠ مركز بحث في إفريقيا

الرقم	اسم المركز الفكري	البلد
٠١	معهد بوتسوانا لسياسات التنمية والتحليل الإنمائي (BIDPA)	بوتسوانا
٠٢	المركز الإفريقي للتسوية البناءة للنزاعات	جنوب إفريقيا
٠٣	مركز إيماني للسياسات والتعليم	غانا
٠٤	المركز الإفريقي للتحويل الاقتصادي (ACET)	غانا
٠٥	معهد كينيا لبحوث وتحليل السياسات العامة (KIPPR)	كينيا
٠٦	مجلس تطوير بحوث العلوم الاجتماعية في إفريقيا (CODESRIA)	السنغال
٠٧	معهد جنوب إفريقيا للشؤون الدولية (SAIIA)	جنوب إفريقيا
٠٨	المعهد الإثيوبي لبحوث التنمية (EDRI)	إثيوبيا
٠٩	الاتحاد الإفريقي للبحوث الاقتصادية	كينيا
١٠	معهد الشؤون الاقتصادية (IEA)	كينيا
١١	مؤسسة البحوث حول التخفيف من حدة الفقر	تنزانيا
١٢	معهد الدراسات الأمنية (ISS)	جنوب إفريقيا
١٣	المركز الإفريقي للبحوث الاقتصادية والاجتماعية (CIRES)	ساحل العاج
١٤	شبكة تحليل سياسات الأغذية والزراعة والموارد الطبيعية (FANRPAN)	جنوب إفريقيا
١٥	مركز التنمية والمشاريع (CDE)	جنوب إفريقيا
١٦	مركز الديمقراطية والتنمية (CDD)	نيجيريا
١٧	معهد الشؤون الاقتصادية (IEA)	غانا
١٨	رابطة الاقتصاديين الإثيوبيين (EEA)	إثيوبيا
١٩	تحالف المدافعين عن التنمية والبيئة (ACODE)	أوغندا
٢٠	مركز حل النزاعات - جنوب إفريقيا	جنوب إفريقيا

Source: "Top Think Tanks in Sub-Saharan Africa," Penn Libraries, University of Pennsylvania, May 14, 2025, <https://tinyurl.com/5auu9te5>

نلاحظ أن أقوى مراكز التفكير في إفريقيا جنوب الصحراء، متواجدة في إفريقيا الجنوبية، وقد يرجع ذلك إلى التقاليد البحثية، التي تأسست في تلك الدولة منذ فترة طويلة، وتأثرها بالتقاليد الأنجلوسكسونية تحديداً، نتيجة الاستعمار الماضي لجنوب إفريقيا، وتلك التقاليد، أثرت بشكل مباشر في أداء مراكز الفكر.

٢- مصادر تمويل مراكز الفكر في جنوب إفريقيا:

تستمد مراكز الفكر في جنوب إفريقيا مصادر تمويلها من عدد من الجهات، ومنها:

- **التمويل الحكومي:** المصادر الحكومية لتمويل البحث والتطوير في جنوب إفريقيا، هو من الحكومة - بما في ذلك المجالس العلمية، والصناديق الخاصة بالجامعات - ويليهما قطاع الأعمال.
- **تمويل القطاع الخاص:** يستطيع القطاع الخاص جمع الأموال لأنشطة البحث والتطوير الخاصة به من عدة مصادر، ومنها: التدفق الداخلي، وتمويل القروض، وحقوق الملكية، والحوافز الحكومية، والمساعدات، والمنظمات المانحة.

وحسب التقرير المعد في سنة ٢٠٢٠م، فإن توزيع مراكز الفكر حسب المناطق تتجلى في الآتي:

جدول رقم (٠٣): يوضح عدد مراكز التفكير حسب المناطق

المنطقة	عدد مراكز الفكر
أوروبا	٢٩٣٢
أمريكا الشمالية	٢٣٩٧
آسيا	٣٣٨٩
أمريكا الوسطى وجنوبها	١١٧٩
إفريقيا جنوب الصحراء	٦٧٩
الشرق الأوسط وشمال إفريقيا	٥٩٩
المجموع	١١١٧٥

Source: James G. McGann, "2020 Global go to think tank index report," The Think Tanks and Civil Societies Program, 2020, https://repository.upenn.edu/think_tanks/18

إن القارة الآسيوية، تعتبر واحدة من أكثر نقاط الاهتمام من وجهة نظر صناعة الأفكار. حيث إن ٢٢٪ من مؤسسات الفكر في العالم، يقع مقرها في دول آسيوية، لكن عند الحديث عن التأثير، فلا تزال الفجوة بين الدول الآسيوية والدول الغربية كبيرة.^(١١)

وهذا يدل على أن البيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية في الدول الإفريقية، مازالت لم تعط الرعاية الكافية، والوسائل اللازمة لإشعاع مراكز الفكر، وضمن تأثيرها في السياسات العمومية. وهناك من يرى أن مراكز الفكر الإفريقية، تشكل جزءاً ضئيلاً من مراكز الفكر العالمية، كما تختلف عنها من حيث طبيعة أدوارها، وآليات عملها، وبالرغم من ذلك، فإنها لاتزال ظاهرة حديثة في إفريقيا، تستمر في النمو والتطور، نتيجة لتأثير القوى الخارجية، باعتبارها أحد أدوات المجتمع المدني، وتسعى لأن يكون لها دور فاعل في صنع السياسة العامة في إفريقيا.^(١٢)

وعلى الرغم من قلة عدد مراكز الفكر في إفريقيا، وفي إفريقيا جنوب الصحراء - مقارنة بالمراكز المتواجدة في مناطق أخرى - إلا أن هذا لا ينقص من المجهود الذي تبذله الجهات ذات العلاقة (حكومات، جامعات، مؤسسات، شركات) في إفريقيا، لتأسيس مراكز فكر قابلة للاستمرارية، وذات فعالية.

وللتعرف على عدد مراكز التفكير في منطقة جنوب الصحراء، فإننا نستعين بالجدول المرفق أدناه:

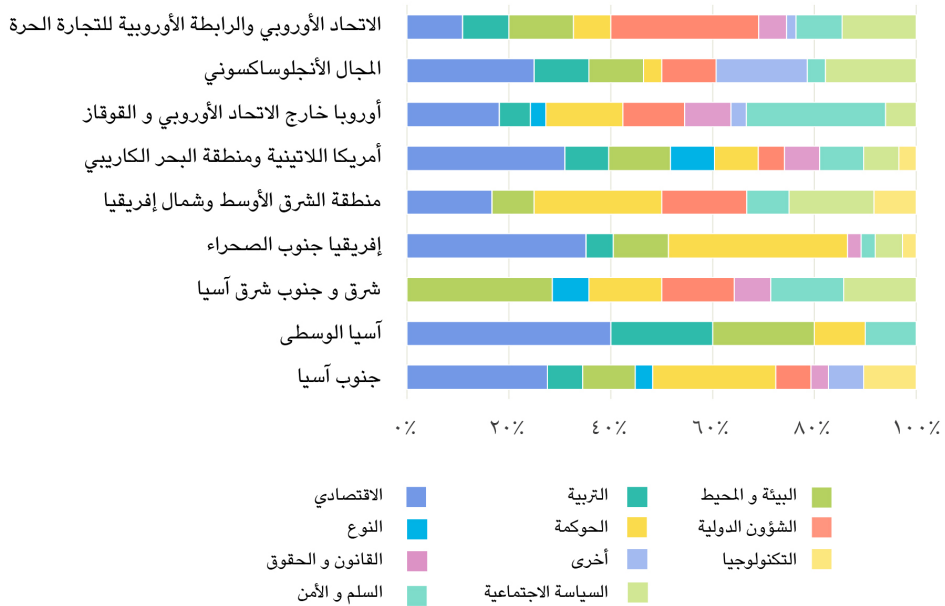
جدول رقم (٠٤): يوضح توزيع مراكز التفكير في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء

إفريقيا جنوب الصحراء						
٠٣	السيشل	٠٤	مدغشقر	١٤	جمهورية الكونغو الديمقراطية	٠٥ أنجولا
٠٢	سيراليون	١٧	مالاوي	٠٥	أريتيريا	١٧ بنين
١١	صوماليا	١١	مالي	٣١	إثيوبيا	١٦ بوتسوانا
١٠٢	إفريقيا الجنوبية	١٠	موريتانيا	٠٢	الغابون	٢٠ بوركينافاسو
٠٦	السوان	١٠	موريتوس	٠٦	غامبيا	٠٤ بورندي
٠٥	سوازيلاند	٠٥	موزمبيق	٤٤	غانا	٢٣ كامرون
٢١	تانزانيا	١٦	ناميبيا	٠٤	غينيا	٠٢ كاب فردي
٠٧	الطوغو	٠٢	النيجر	٠١	غينيا بيساو	٠٢ جمهورية إفريقيا الوسطى
٣٦	أوغندا	٥٢	نيجيريا	٦٤	كينيا	٠٣ تشاد
١٣	زامبيا	٠٦	رواندا	٠٣	لوزوتو	٠٤ كونغو
٣٠	زيمبابوي	٢٥	السينيغال	٠٤	ليبيريا	١٤ كوت ديفوار

Source: James G. McGann, "2020 Global go to think tank index report".

يتضح من الإحصاءات أعلاه، أن إفريقيا الجنوبية، تضم أكبر عدد من مراكز التفكير، ويبلغ عدد مراكزها: (١٠٢) مائة ومركزين، وأقلها في دولة غينيا بيساو (٠١)، مركز واحد. ومن حيث الموضوعات التي تركز عليها مراكز الفكر في إفريقيا، فإنها تتوزع كالآتي:

الشكل رقم (٠١): يوضح الموضوعات ذات الأولوية التي تعالجها مراكز التفكير في إفريقيا



Source: Marcos González Hernando, “Resilience and impact in a politically shifting world the on-think tanks state of the sector report 2024,” A global consultancy and Platform for change, 2024, <https://tinyurl.com/2xwdz2ks>

فقد جاء الاهتمام بالاقتصاد في المرتبة الأولى (المراكز الإفريقية)، على معظم المجالات الأخرى (٢٣٪ من الإجمالي)، يليه الحوكمة (١٥٪)، والشؤون/العلاقات الدولية (١٢٪)، وقضايا البيئة والمناخ (١١٪). وهذا يدل على أن مسألة الاقتصاد، ومسألة الحوكمة في إفريقيا، تمثلان أكثر القضايا التي تهم الجهات المشرفة على المراكز الفكرية، واهتمام الممولين لها. ويمكن توقع تغير مجالات الاهتمام لهذه المراكز، في حال تحولات المعطيات السوسيوولوجية، والثقافية، والاقتصادية، في تلك الدول. إن الموضوعات الرئيسية التي يتم الاهتمام بها من المراكز، تتبع السياقات الداخلية، في تقاطع مع التحديات الطارئة، وتأثير العولمة وما بعدها في البنى المختلفة.

عند موقعة بعض الدول الإفريقية، التي تشمل أكثر عدد من مراكز الفكر في العالم، فإننا نستنتج أن دولة إفريقية (جنوب إفريقيا)، احتلت مراتب جيدة ضمن التصنيفات، وهذا ما يذكر في تقرير جامعة بنسلفانيا الدوري. ويمكن الاستشهاد - وعلى سبيل المثال - بالتقرير الصادر في سنة ٢٠٢٠م عن تلك الجامعة.

٣- التحديات التي تواجه مراكز الفكر في إفريقيا:

إن الجهات المانحة، عادة ما تكون وكالات حكومية غربية، أو مؤسسات، أو أوقاف، وبشكل متزايد القطاع الخاص. وقليل جدا من الحكومات الإفريقية، تمول مراكز الأبحاث المستقلة. ومع ذلك، فلا ينبغي الاستهانة باستقلالية مراكز الأبحاث، بل يجب إثباتها يوميا، لا سيما في وقت تطمس فيه قيود التمويل الخط الفاصل بين جماعات الضغط، ومنظمات المناصرة، والشركات الاستشارية، ومراكز الأبحاث الأصيلية ذات السجل الحافل.^(١٣) ويعد التمويل من أكبر التحديات التي تواجه مراكز الفكر، باعتبار أن اختيار مصدر التمويل يحدد «أجندة» تلك المراكز، ودرجة استقلاليتها. وهذه المسألة تعتبر ذات أهمية خاصة، لأنها ترتبط بجدية التقارير التي ستصدر عنها، وقدرتها على إحداث تأثير في السياسات.

وقد عرض تقرير^(١٤) للمجلس الوطني للتطوير الاقتصادي والاجتماعي بليبيا، أهم التحديات التي تواجه المراكز الفكرية، وتتمثل بالآتي:

- ١- عدم تخصيص الميزانيات الكافية لإجراء البحوث بالطرق المناسبة.
- ٢- حجب الأرقام والإحصاءات الرسمية.
- ٣- صعوبة الوصول إلى بعض المعلومات في الإدارات الحكومية.
- ٤- الصعوبات الميدانية التي تواجه عملية جمع البيانات.
- ٥- نقص المصادر العلمية.
- ٦- الاهتمام بالكم وليس بالنوع.

هناك من المتخصصين من يجمع التحديات التي تواجه جميع مراكز الفكر، ضمن محاور أساسية، تتمثل في الآتي:

- التحديات التنافسية.
- تحديات الموارد.
- التحديات التكنولوجية.^(١٥)

أوضح تقرير قطاع مراكز الفكر لسنة ٢٠٢٢م، أن (٥٤%) - حسب الاستطلاع والذي يمثل التصور الإفريقي- ينظر إلى التمويل، باعتباره التحدي الأكبر بالنسبة للمستجوبين، على الرغم من تفاؤلهم بأن سياق التمويل سيتحسن في العام المقبل. وحدد صنّاع الفكر - الذين تم التحدث إليهم في التقرير من

المنطقة - سببين لذلك، يكمن الأول في التحديات السياسية، وإمكانية الوصول إلى التمويل؛ حيث تفتقر مراكز الفكر الإفريقية إلى الدعم الحكومي، مما يضطر مراكز الفكر نتيجة لذلك إلى البحث عن التمويل الدولي، لمواصلة عملها. ورأت بعض مراكز الفكر، أن القضايا السياسية القائمة منذ فترة طويلة في المنطقة، قد أحبطت عزيمة المانحين للاستثمار، ومع ذلك، علقوا بأن هذا الوضع أخذ في التغيير، مع ظهور تطورات إيجابية في المشهد السياسي.

وتعتبر هذه المراكز أكثر عرضة للتحديّ المزدوج، المتمثل في صياغة المذكرات المفاهيمية باللغة الإنجليزية، وتعبئة الشركاء الذين يهيمنون على العالم الناطق باللغة الانجليزية بشكل واضح.^(١٦)

تتعرض مراكز الفكر الإفريقية لتهديد خطير؛ فقد اختفت العديد من مراكز الفكر الموثوقة، وبات بقاء ما تبقى منها على المحك. في الواقع.^(١٧)

وللتعرف على التحديات الرئيسية التي تواجه مراكز التفكير، فإننا نستعين بالإحصاءات الواردة في الجدول أدناه. فقد بين تقرير مهم صادر عن «أون ثانك تانك» (on think tanks) والصادر في سنة ٢٠٢٤م، أن هناك مجموعة من التحديات، نعرضها في الجدول أدناه:

الجدول رقم (٥٠): يوضح التحديات الرئيسية التي تواجه مراكز التفكير

التحدي	النسبة
التكيف مع التغيرات	٧٣٪
تأمين مصادر تمويل جديدة	٥٩٪
صعوبات القيادة والإدارة	٤٤٪
معدل دوران الموظفين	٤١٪

Source: Marcos González Hernando, "Resilience and impact in a politically shifting world the on-think tanks state of the sector report 2024".

وحسب الجدول أعلاه، فإن «التكيف مع التغيرات»، يعتبر من أكثر التحديات التي تواجهها مراكز التفكير الإفريقية (٧٣٪)، وهذا يأتي أساساً مع التغيرات الدولية والإقليمية والمحلية، التي يشهدها العصر الحاضر. كما يمثل مشكل تأمين مصادر تمويل جديدة (٥٩٪) مسألة في غاية الأهمية، لأنها تحدد مدى استمرار مراكز التفكير من عدمها. ويعتبر رهان تأمين تلك المصادر مشكلة عالمية -على نحو ما - لكنها تزداد وطأة في إفريقيا.

وتأتي التحديات الداخلية - صعوبات القيادة والإدارة، معدل دوران الموظفين - في المراتب السفلى للمراكز الفكرية في إفريقيا.

ومن أكبر التحديات التي تواجهها مراكز الأبحاث الإفريقية، مدى توافر التمويل واستدامته؛ فكثيرا ما يكون التمويل غير مؤكد، وغير منتظم، وغير كاف، وموزعا بشكل غير متساو في مجال مراكز الأبحاث، ويتفاقم هذا الوضع بسبب اعتماد مراكز الأبحاث الإفريقية المفرط على التمويل الدولي. كما أن التنافس بين الدول، وبين مراكز الأبحاث والمسؤولين الحكوميين، يؤثر في تأمين الموارد المالية الدولية، بالإضافة إلى محدودية مشاركة القطاع الخاص، الذي يسهم في هذا النقص.^(١٨)

وذكر تقرير للبنك الدولي أهم التحديات التي تعترض مراكز التفكير الإفريقية، وتمثلت في الآتي:

- خطر تأثر مؤسسات الفكر والرأي بالحكومات، أو مجموعات المصالح الخاصة، التي يمكن أن تؤثر على عملها.

- غالبا ما تكافح مراكز الفكر الإفريقية لتوظيف موظفين مهرة متنوعين والاحتفاظ بهم، مما يجعل من الصعب الحفاظ على معايير البحث العالمية.

- لا يزال الاقتصاد مجالا يهيمن عليه الذكور، بما في ذلك في إفريقيا؛ حيث تواجه النساء تحديات في الجمع بين العمل والمسؤوليات الأسرية، مما يؤدي إلى ضياع فرص العمل، وحصول فجوات في الأجور بين الجنسين.

- معوقات تحقيق التأثير بسبب محدودية قدرات التواصل، وانخفاض مستوى الظهور الإعلامي، وعدم مواءمة الأولويات.

ويعتبر تدخل الحكومات، أو المجموعات الخاصة ذات المصلحة في عمل مراكز الفكر، تحديا كبيرا، يعيق إنجازها لمهامها بشكل مستقل.

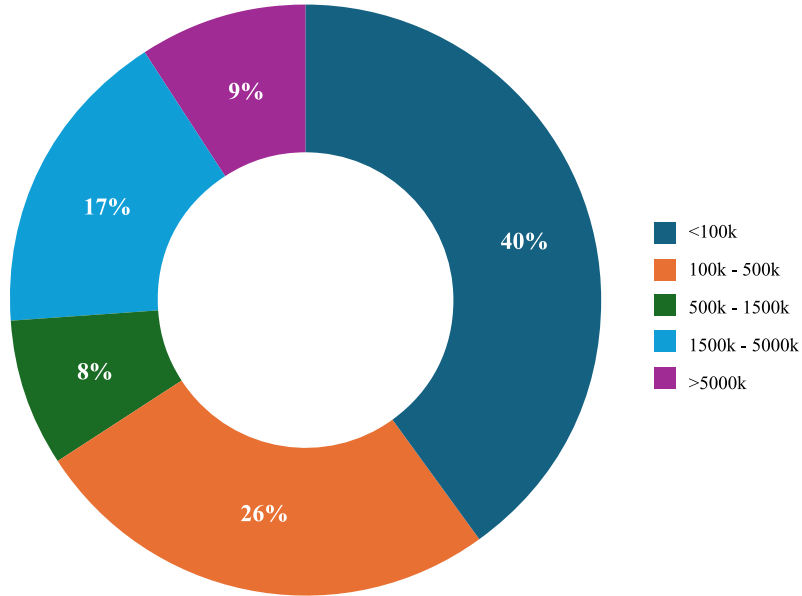
وتعاني مراكز الفكر الإفريقية من موضوع إبقاء الباحثين، (باعتبار أن البيئات الأخرى أكثر جذبا للباحثين من تلك المراكز، من حيث مدة العمل، والحوافز المالية، وغيرها)، مما يهدد بقاء عملها متوافقا مع المعايير الدولية. وعلى الرغم من التحديات التي تواجه مراكز الفكر في إفريقيا، إلا أن هناك فرصا متاحة أمامها، وتحتاج للتطوير مستقبلا.

سعى استطلاع رأي مجتمع السياسات الإفريقي، الذي أُجري في ثلاث مناسبات، وعلى مدى عشر سنوات، إلى فهم الفرص والقيود المتاحة لمراكز البحوث الإفريقية، في التفاعل الفعال مع الجهات الفاعلة في السياسات الإفريقية. وأشارت نتائج الدراسة إلى العديد من الاتجاهات الإيجابية لمراكز البحوث في المنطقة، فيما يتعلق باهتمام الجهات الفاعلة في السياسات، وانفتاحها في عملها.^(١٩) وجاء فيه:

- أصبحت المعلومات الداعمة لتطوير السياسات المتعلقة بأهداف التنمية المستدامة، وعلى نطاق واسع في إفريقيا، أكثر سهولة، وخاصة فيما يتعلق بقضايا النوع الاجتماعي، والتخفيف من حدة الفقر.
- لا تزال المواقع الإلكترونية والبريد الإلكتروني والمطبوعات، هي أكثر الوسائل فائدة لأصحاب المصلحة، للحصول على المعلومات اللازمة لتطوير السياسات الوطنية، مع تزايد الاهتمام بوسائل التواصل الاجتماعي، كإحدى هذه الوسائل. ويعتمد الفاعلون في مجال السياسات على مزيج متوازن من المصادر عند البحث عن المعلومات، لتعزيز فهمهم لتطوير السياسات.
- تُعدّ المنشورات/التقارير، والمؤتمرات/الفعاليات، والنقاشات مع الزملاء/الأقران، أكثر مصادر المعلومات شيوعاً لدى الفاعلين في مجال السياسات، ولكن لوحظ انخفاض ملحوظ في استخدام قواعد البيانات/ بنوك البيانات الإحصائية، وهذا يثير تساؤلات حول الدعم اللازم لمختلف جوانب منظومة الأدلة الإفريقية، بما في ذلك - وعلى سبيل المثال - تعزيز قدرات الوظائف الإحصائية الحكومية، بالإضافة إلى منتجي المعرفة، مثل مراكز الفكر.
- وفي مواجهة التحديات المتعددة التي تواجهها القارة، مثل: انعدام الأمن، واستغلال الموارد، والتوترات الإقليمية، تلعب هذه المعاهد ووظائف مختلفة، من مثل:
 - **توقع المخاطر:** ٨٠٪ من الخيارات السياسية التي تتأثر بها منظمات البحث، تتعلق بالاقتصاد والأمن.
 - **الاهتمام بالعلاقات:** في عام ٢٠٢٢م، تم تناول العلاقات الاقتصادية مع الصين، والاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة في ٦٥٪ من التقارير المنشورة.
 - **تنقيف القادة المحليين:** تعمل هذه المؤسسات على تدريب القادة المستقبليين، وبالتالي خلق نخبة قادرة على حماية المصالح الوطنية بشكل أفضل.^(٢٠)
- وحسب تقرير جامعة بنسلفانيا،^(٢١) فإن أسباب التراجع الأخير في عدد مراكز الفكر العالمية يعود للآتي:
 - عدم فهم مصادر المنافسة غير التقليدية والاستجابة لها.
 - عدم تبني تقنيات وإستراتيجيات تسويق وتواصل جديدة.
 - بيئة سياسية وتنظيمية معادية بشكل متزايد لمراكز الفكر، والخبراء، والمشورة السياسية.
 - انخفاض تمويل أبحاث السياسات من الجهات المانحة العامة والخاصة.
 - ميل الجهات المانحة العامة والخاصة إلى التمويل قصير الأجل، والمخصص لمشاريع محددة، بدلا من الاستثمار في الأفكار والمؤسسات.
 - ضعف القدرات المؤسسية، وعدم القدرة على التكيف مع التغيير.

- زيادة المنافسة من منظمات المناصرة، وشركات الاستشارات الربحية، ومكاتب المحاماة، ووسائل الإعلام الإلكترونية، التي تعمل على مدار الساعة.
- توقف المؤسسات عن العمل بعد أن حققت أهدافها.

الشكل رقم (٠٢): القدرة المالية لمراكز الفكر الإفريقية



Source: Ariel Houessou, Frejus Thoto and others, “Africa | Challenges in supporting development policies,” Think Tanks State of the Sector Report, African Think Tanks (ATTs), November, 5, 2024, <https://tinyurl.com/4tem5a84>

يلاحظ أن هناك تفاوتاً كبيراً في القدرة المالية لمراكز التفكير؛ ففي العام الماضي، حشدت حوالي ثلثي هذه المراكز أقل من ٥٠٠,٠٠٠ دولار أمريكي، بما في ذلك ٤٠٪ بأقل من ١٠٠,٠٠٠ دولار أمريكي، ونظراً لتفاوت مدة التمويل بين سنتين و٤ سنوات، فإن الميزانية السنوية لمعظم هذه المراكز منخفضة. وخلال العام الماضي، أبلغت ٤٤,٧٪ فقط من المراكز عن زيادة في التمويل، بينما شهدت ٥,٢٦٪ منها ارتفاعاً ملحوظاً، بينما أبلغ حوالي ٣٤٪ عن انخفاض في التمويل. وتعد هذه قضية بالغة الأهمية لبقاء هذه المراكز؛ حيث إن انخفاض القدرة المالية، لن يؤثر فقط على أدائها وعملها، بل سيؤثر أيضاً على جودة دعمها، بل وعلى أهميتها ومصداقيتها.^(٢٢)

ويحدد تقرير «جامعة بنسلفانيا»^(٢٣) مجموعة من أسباب الانخفاض الأخير، في عدد مراكز الفكر المنشأة في جميع أنحاء العالم، ومنها:

- الفشل في فهم مصادر المنافسة غير التقليدية والاستجابة لها.
- الفشل في تبني تقنيات وإستراتيجيات تسويق واتصالات جديدة.
- البيئة السياسية والتنظيمية المعادية بشكل متزايد لمراكز الفكر،
- انخفاض التمويل لأبحاث السياسات من قبل الجهات المانحة العامة والخاصة.
- اتجاه المانحين من القطاعين العام والخاص نحو التمويل قصير الأجل، الخاص بالمشاريع، بدلا من الاستثمار في الأفكار والمؤسسات.
- تخلف القدرة المؤسسية وعدم القدرة على التكيف مع التغيير.
- المنافسة المتزايدة من منظمات المناصرة، والشركات الاستشارية الهادفة للربح، والشركات القانونية، ووسائل الإعلام الإلكترونية، على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع.

خاتمة

تعتبر مراكز التفكير ذات أهمية خاصة في دعم جهود التنمية والتطور في إفريقيا، إلا أن واقع الحال، يبرز أن هذه المراكز تحتاج الى تمكين، يسمح لها بالبروز والاستدامة. وفي المقابل، تواجه تلك المراكز تحديات عديدة، يختص بعضها بطبيعة بنيتها الداخلية في حد ذاتها، وهناك ما يختص بالسياقات التي تتأسس فيها. إضافة الى التحديات التمويلية التي تهدد ديمومة بعض مراكز الفكر الإفريقية.

وفي المقابل، فقد أثبتت مراكز فكرية إفريقية جدارتها، من خلال بروزها في مراتب محترمة في تصنيفات دولية. كما أن اهتمام تلك المراكز بالحاجات المحلية- دون إغفالها للرهانات الدولية- يمثل نقطة قوة لديها. وعلى المؤسسات الرسمية والأكاديميين الأفارقة، الاهتمام أكثر فأكثر بتأسيس المراكز المتخصصة، والتشبيك بين تلك المراكز على المستوى الإفريقي، لزيادة تصنيفها عالميا.

توصيات:

- تفعيل التشبيك بين مراكز الفكر الإفريقية، لزيادة قدراتها وديمومتها.
- التعاون البحثي (الما - بين إفريقي) في قضايا مشتركة.
- تفعيل دور مراكز الفكر في رفد المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، في مجال تقديم المشورة.
- إيجاد آليات أكثر فعالية في مجال التمويل، الذي يعتبر مشكلة حقيقية تواجه مراكز الفكر الإفريقية.

- (١) محمد مبروك، «مراكز الفكر حول العالم، قراءة في المفاهيم والآليات»، مركز شاف للدراسات المستقبلية وتحليل الأزمات والصراعات، (١٩، يوليو، ٢٠٢٣م)، <https://tinyurl.com/2rz9ztcn>
- (2) Théophile Nguimfack Voufo, “The role of think tanks in strengthening democratic institutions in Central Africa,” On Policy, July 3, 2024, <https://tinyurl.com/3skanxr3>
- (3) James McGann et al., “Think Tanks in Policy Making – Do They Matter?,” Friedrich-Ebert-Stiftung, Shanghai, September 2011, 08.
- (4) Jean Pierre Ndiaye, «Cartographie Des Think Tanks En Activite Au Senegal,» SENRTT, December 2018, 04-05.
- (5) James G. McGann, “2020 Global go to think tank index report”, The Think Tanks and Civil Societies Program, 2020, https://repository.upenn.edu/think_tanks/18
- (6) James McGann et al., “Think Tanks in Policy Making – Do They Matter?,” 05.
- (7) Anna Reich, “Think Tanks in the Policy Process: The Case of Hungary,” (Master thesis, *Central European University*, Hungary, 2009), 03.
- (8) Anna Reich, “Think Tanks in the Policy Process: The Case of Hungary”, 8-9.
- (9) Anna Reich, 10-11.
- (10) Anna Reich, 12.
- (١١) عبد الحق دحمان، «أهمية مراكز الفكر في صنع السياسات الخارجية للدول»، مركز المجدد للبحوث والدراسات، ٢٠٢١م، <https://tinyurl.com/mrxbn7nr>
- (١٢) - إيمان الشعراوي، «دور مراكز الفكر في صنع السياسة العامة في إفريقيا جنوب الصحراء»، قراءات إفريقية، أغسطس ٢٠٢٣م، <https://tinyurl.com/55ypw9ht>
- (13) Paul-Simon Handy, “Think tanks in Africa: a widely untapped resource,” *The Institute for Security Studies*, March 25, 2020, <https://tinyurl.com/4ansx8hc>
- (١٤) «دور مراكز الفكر في صنع القرار وتحقيق التنمية»، المجلس الوطني للتطوير الاقتصادي والاجتماعي، ٢٠٢٢م، <https://tinyurl.com/4k6h794r>
- (15) James McGann et al., “Think Tanks in Policy Making – Do They Matter?,” 17.
- (١٦) ستيفاني نيكول، وأندريا بيرتل، وآخرون، تقرير حالة قطاع مراكز الفكر ٢٠٢٢، ترجمة: علاء بن ساري الزعبي، (الرياض: مركز البحوث والتواصل المعرفي، ٢٠٢٢م)، ٢٦.
- (17) James McGann et al., “Think Tanks in Policy Making – Do They Matter?,” 21.
- (18) James McGann et al., “Think Tanks in Policy Making – Do They Matter?,” 21.
- (19) Peter Taylor and Maria Alejandra, “Strengthening African Regional Economic Policy Making through Evidence: Opportunities and Challenges for Think Tanks and Their Supporters”, Working Paper, The World Bank Group, September 2024, 9-10.
- (20) Peter Drucker, “The best way to predict the future is to create it,” Rock Institute, January 8, 2025, <https://tinyurl.com/38xx2xu9>
- (21) James McGann et al., “Think Tanks in Policy Making – Do They Matter?,” 16.
- (22) Ariel Houessou, Frejus Thoto and others, “Africa | Challenges in supporting development policies”.
- (23) James McGann et al., “Think Tanks in Policy Making – Do They Matter?,” 16.

عرض کتاب

العمق التاريخي لظهور الكتابة في شبه الجزيرة العربية

د. عيد اليحيى، د. قصي التركي، القلم العربي الثمودي: دراسة في ضوء النقوش
التمودية المرافقة لحيوانات منقرضة في المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى،
(الجيزة: المؤسسة العربية المتحدة للنشر والتوزيع، ٢٠٢٥ م)، ٢٤٨ ص.

د. إيمان عبد العظيم سيد أحمد، مدرس العلوم السياسية بكلية الدراسات الإفريقية العليا،
جامعة القاهرة، القاهرة.

يصدر هذا الكتاب في إطار الاهتمام المتزايد، بدراسات التراث والآثار في المملكة العربية السعودية،
مقدّمًا مقارنة جديدة لتأريخ الكتابة في شبه الجزيرة العربية. ويعتمد البحث على مسوحات
ميدانية متعددة التخصصات، شملت مواقع في مختلف مناطق المملكة. وي طرح الكتاب فرضية
مركزية، مفادها، أن القلم الثمودي، هو أقدم قلم عربي على الإطلاق، ويعود تاريخه إلى عصور
سحيقة، تسبق بكثير ما هو شائع في الأوساط الأكاديمية (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)، حيث
يرجعه إلى فترة «الهولوسين الرطب» ما بين (٨٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ ق.م) أو ربما أبعد من ذلك. ولأهمية
الموضوع وطروحاته، فسوف نقوم بعرضه، وتقديم رؤية تحليلية لمحتواه.

أولاً - رؤية تحليلية للكتاب

يبدأ الكتاب بتسليط الضوء على الإشكالية الكبيرة في دراسة قوم ثمود؛ فبينما ورد ذكرهم صراحة في تسع
عشرة سورة في القرآن الكريم، فإنهم غائبون تماما عن سجلات التوراة، والمصادر الكلاسيكية اليونانية
والرومانية. وهذا التناقض جعل الدراسات الغربية، التي اعتمدت على هذه المصادر، تهمش الدور الحضاري
والتاريخي للثموديين. ويهدف هذا الكتاب إلى وضع حد لهذا الجدل، من خلال أدلة أثرية مادية وكتابية
جديدة، تعيد تأريخ قوم ثمود وقلمهم.

القسم الأول - المعطيات اللغوية والتاريخية

١- معضلة النظرية والرد على الانتقادات المتوقعة

يتوقع أن تواجه نظرية الكتاب نقداً، يتطلب الردّ عليه:

- **مراحل تطور الكتاب:** لماذا لم يمر القلم الثمودي بمراحل تطورية (صورية → رمزية → مقطعية) مثل الكتابة السومرية والمصرية؟
- **الرد:** يرجح الكتاب أن القلم الثمودي وُلد مكتملاً، انطلاقاً من فرضية «الهبة الربانية»؛ فأدم علمه الله الأسماء كلها بلغة عربية كاملة، ثم كتب نسلُ آدم، فلم يحتج لتطويرها تدريجياً. بينما اخترعت الحضارات الأخرى الكتابة بشكل تدريجي، نتيجة للاحتياج البشري.
- **عدم وجوده خارج الجزيرة:** لماذا لم ينقل المهاجرون من الجزيرة العربية القلم الثمودي إلى حضارات الرافدين وبلاد الشام؟
- **الرد:** بسبب الظروف القاسية (الجفاف والتصحر) التي هاجروا فيها؛ فقد فقدوا الاهتمام بالكتابة كأحد مظاهر الترف، واكتفوا باللسان العربي، وعند وصولهم، تبنّوا خطوط تلك الحضارات (كالمسماري)، لكنهم حافظوا على لغتهم. فالإنسان الجزري، لم يستمر في معرفة الكتابة وتعلمها، بعد الظرف المعيشي الصعب، الذي كان يشغله للبحث عن العيش، بدلا من البحث عن الترف، الذي من خصائصه تعلم الكتابة، واستمرار تداولها على نطاق واسع.

٢- قدم اللغة العربية والثمودية في ضوء القرآن الكريم:

يستند الكتاب إلى تفسيرات آيات القرآن، وخاصة قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ليستنتج أن اللغة العربية، هي لسان آدم الأولى، وهذه الهبة الإلهية، تعني أن اللغة (وقرينتها الكتابة)، وهبت كاملة ومكتملة، مما يفسر عدم وجود مراحل تطور للقلم الثمودي. والقلم الثمودي هو التجسيد الكتابي الأول لتلك اللغة العربية الأم.

٣- أدلة أنثروبولوجية وجيومورفولوجية على قدم الوجود البشري:

يستعرض الكتاب أحدث الاكتشافات العلمية في المملكة العربية السعودية، التي تؤكد على وجود «الإنسان العاقل في الجزيرة العربية منذ ما لا يقل عن ١٠٠,٠٠٠ سنة، وفي موقع «الوسطى» بحائل منذ ٨٥,٠٠٠ سنة. وقد شهدت الجزيرة العربية فترات مناخية رطبة (الهولوسين الرطب)، وتحولت فيها إلى «جزيرة عربية خضراء»، مليئة بالبحيرات والأنهار والسهول العشبية (السافانا)، وكانت بيئة للاستقرار والإبداع. وقد بدأ التصحر والجفاف الحاد منذ حوالي الألف الخامس قبل الميلاد، وبلغ ذروته نحو ٢٢٠٠ ق.م، مما أدى إلى هجرات بشرية، وانقراض للعديد من الحيوانات التي تحتاج لتلك البيئة.

القسم الثاني- النظرية الجديدة: القلم الثمودي والحيوانات المنقرضة

يمثل هذا القسم جوهر الكتاب؛ حيث يقدم الأدلة الميدانية على قدم القلم الثمودي من خلال الآتي:

١- الربط بين النقوش الثمودية والحيوانات المنقرضة:

الفكرة الرئيسية هنا هي: وجود كتابات ثمودية (من نوع «نقوش المُلْكِيَّة»، التي يفتخر فيها الشخص باصطياد أو امتلاك حيوان ما)، منقوشة بجانب رسوم صخرية، لحيوانات انقرضت من الجزيرة العربية بسبب الجفاف. وبما أن هذه الحيوانات لم تعد قادرة على العيش بعد فترة التصحر (قبل ٤٠٠٠ ق.م تقريبا)، فإن تاريخ هذه الرسوم والكتابات المرافقة لها، يجب أن يعود إلى ذلك العصر أو ما قبله. وذلك للتوافق والدلالة بين رسم الحيوان، والكتابة المرافقة له، مع تساوي درجة العتق بين النقش المكتتب، والرسم للحيوان.

٢- أدلة جديدة على تسمية «ثمود»:

يقدم الكتاب كتابات ثمودية جديدة، تكررت فيها لفظة ثمود، وينفي الكتاب أن تسمية «الثمودي» مجازية؛ فمن موقع «جبة» وغيره من المواقع الأثرية، عرض الكتاب نقوشا تحمل اسم العلم «ث م د» بشكل صريح، مثل نقش: «ود ف ث م د» (تحيات لثمود)، وكذلك اسم العلم الموث «ثمد»، في نقش تثبت فيه المرأة الثمودية ملكيتها للناقة، من موقع «سرماء» بمحافظة «تيماء»، مما يؤكد وجود قوم بهذا الاسم.

٣- أمثلة على الحيوانات المنقرضة والكتابات الثمودية المرافقة:

ثور الأرخص: ثور ضخم، انقرض منذ آلاف السنين، ولا يعيش إلا في بيئة السافانا. وتم العثور على رسومه، مع كتابات ثمودية تذكر اسم الصياد، مثل: نقش «ل أم خ ل هـ ث و ر» (هذا الثور لأمخل). **غزال العلند:** أكبر أنواع الغزلان، وهو طعام مفضل للأسود. كنموذج، في منطقة جَمى بنجران، فهناك مشهد لغزال علند مع نقش ثمودي، يفاخر فيه الصياد بقدرته على صيده: «عم أيل ابن ردمان خشن وأسد».

الأيل البربري: من جنوب محافظة تيماء، عثر على رسم لهذا النوع من الأيائل المعروف بالبربري، والتميز بمؤخرته البارزة، والذي عاش في مرحلة ما قبل حشائش السافانا، وأمام الرسم كتابة ثمودية متزامنة بدرجة العتق مع الرسم، يوثق صاحبها ملكيته لهذا الأيل بالقول: «هـ أ ل ل م ن س ي» (هذا الأيل لمنسي)

الأسد: تظهر رسوم الأسود في مواجهة الثيران، أو في مشاهد صيد، في موقع «جبة»، فهناك مشهد لرجل وامرأة يصارعان أسدا، مكتوب تحته اسم الثمودي «حجاج بن رغض».

الحُمُر الوحشية (غير المخطط وليس حمار الأخر) وغزال الغراند (وليس الأدمي والعفري والريم): حيوانات إفريقية بحتة، رسومها المرافقة للكتابات الثمودية، تدل على البيئة المشتركة بين الجزيرة العربية وإفريقيا، في ذلك العصر.

٤- الانتشار خارج الجزيرة العربية:

يكشف الكتاب عن اكتشافات جديدة لنقوش ثمودية في ليبيا (جنوب غربي البلاد)، وهي الأولى من نوعها في إفريقيا خارج الجزيرة العربية، مما يدل على هجرة الثموديين، ونقلهم لثقافتهم وكتابتهم معهم.

القسم الثالث- الخاتمة والاستنتاجات

أولا - القلم الثمودي بين فرضيات التاريخ

- ١- القلم الثمودي هو القلم العربي الأول والأقدم في التاريخ.
 - ٢- تاريخه الحقيقي يمتد إلى آلاف السنين قبل التاريخ المتداول (القرن ١٣ ق.م)، ويرتبط بفترة السافانا الخضراء في الجزيرة العربية.
 - ٣- الأدلة المقنعة: هي الربط الجيولوجي - الأثري، بين درجة «عتق» الرسوم الصخرية للحيوانات المنقرضة، ودرجة عتق الكتابات الثمودية المرافقة لها، على نفس الواجهة الصخرية.
 - ٤- الإنسان العاقل في الجزيرة العربية (آدم وذريته من بعده)، استخدموا هذا القلم للتعبير عن حياتهم وثقافتهم، في ظل ظروف مناخية ملائمة.
 - ٥- القرآن الكريم مصدر موثوق لتأريخ اللغات والحضارات، ومعلوماته عن تعليم آدم، تدعم فرضية اكتمال اللغة والكتابة من البداية.
- يختتم الكتاب بخطة عمل لمشروع بحثي ميداني، مقدمة إلى هيئة التراث السعودية، يؤمل أن تتبناه الهيئة، ويهدف إلى:
- تأريخ النقوش والرسوم الصخرية باستخدام طرق علمية متطورة، مثل: (الكربون المشع، الفحص المجهر الإلكتروني).
 - تحليل عينات من هذه النقوش لتحديد عمرها بدقة.
 - الحفاظ على المواقع وتأهيلها سياحيا.
 - التأكيد على أن أرض المملكة العربية السعودية هي المنبع الأول للقلم العربي.

ثانيا - الإشكاليات الفكرية

يمثل هذا الكتاب جهدا بحثيا طموحا وجريئا، عن التصورات السائدة في تاريخ الكتابة واللغات، في شبه الجزيرة العربية. وفيما يأتي عرض للإيجابيات والسلبيات، بناء على المنهجية والأدلة المقدمة.

أ- جوانب القوة

١- الجرأة في الطرح:

لا يكتفي الكتاب بمناقشة النظريات السابقة، بل يقدم نظرية جديدة تماما، تُعيد تأريخ القلم الثمودي بآلاف السنين؛ مما يحفز الحوار العلمي، ويضخ دماء جديدة، في مجال كان يعتمد على تصورات شبه ثابتة.

٢- المنهجية متعددة التخصصات:

لا يعتمد الكتاب على علم النقوش فحسب، بل يدمج علم الآثار، والجيومورفولوجيا، باستخدام بيانات عن المناخ القديم (الهولوسين الرطب)، وانقراض الحيوانات، والأنثروبولوجيا، من خلال دراسة استيطان الإنسان العاقل في المنطقة. وعلوم الحيوان، لتحليل أنواع الحيوانات المنقرضة، وبيئاتها الملائمة. والدراسات الدينية، بالاستناد إلى التفسيرات القرآنية. ويمنح هذا التكامل النظرية بعدا أوسع، ويجعلها أكثر تشعبا وقابلية للنقاش من مختلف الزوايا.

٣- الأدلة الميدانية والبصرية:

يعتمد الكتاب على مسوحات ميدانية حديثة، ويقدم صورا وخرائط لنقوش ورسوم صخرية؛ مما يضيف مصداقية على البحث، ويربط النظرية بالواقع المادي للموس.

٤- الربط بين الأدلة المادية والكتابية:

فكرة الربط بين «درجة العتق» للرسوم الصخرية، والكتابات المجاورة لها، هي فكرة جديدة بالبحث، إذا تم إثبات أن العتق متطابق، فإن ذلك يعضد فرضية التزامن الزمني بين الرسم والكتابة.

٥- تسليط الضوء على الإرث السعودي:

يخدم الكتاب هدفا وطنيا وعلميا كبيرا، بوضع المملكة العربية السعودية في مركز الخريطة التاريخية لتطور الإنسان والكتابة، مستندا إلى اكتشافات محلية، مما يعزز من قيمة التراث الوطني.

٦- الشفافية في التخطيط للمستقبل:

تضمن خطة عمل مفصلة لمشروع مستقبلي، يهدف إلى التأريخ العلمي المباشر، سواء بالفحص المعروف (كربون ١٤، المجهر الإلكتروني) أو أي طرق علمية جديدة. وبهذا الطرح، يظهر المشروع وعيا بأهمية الأدلة القاطعة، ويترك الباب مفتوحا للتطوير والإثبات.

ب- ملاحظات منهجية نقدية:

١- تخطي الإشكالية الأساسية لتطور الكتابة

الرد على سؤال: «لماذا لم يتطور القلم الثمودي»؟ بأنه «وُلد مكتملا»، يعد حلا غير مُرضٍ علميا؛ فجميع أنظمة الكتابة في العالم، مرت بمراحل تطورية. وعدم وجود دليل على هذه المراحل للثمودي، لا يعني أنه لم يمر بها، بل قد يعني أن الأدلة الأقدم، لم تُكتشف بعد. والافتراض بعدم وجود تطور، هو تسليم بالنظرية بدلا من إثباتها.

٢- الأدلة التاريخية المباشرة

القلب النابض للنظرية (الربط بين الرسوم والكتابات)، لم يُخضع بعد للتأريخ العلمي المباشر. و«درجة العتق»، هي دليل نسبي وليس مطلقا. وما يفتقده الكتاب، هو نتائج تحاليل كربون مشع، أو تحاليل كيميائية للغبار، أو المواد العضوية المصاحبة للنقوش، لتحديد عمرها الزمني المطلق. وبدون هذا، تبقى النظرية في حيز «الفرضية القوية» وليس «الحقيقة المثبتة».

٣- مشكلة السببية في الربط مع الحيوانات المنقرضة

يفترض الكتاب، أن رسم حيوان منقرض (كثور الأرخص)، يعني بالضرورة أنه رُسم عندما كان هذا الحيوان حياً في المنطقة. بينما من الممكن نظريا، أن الإنسان في فترات لاحقة، رسم حيوانات انقرضت، بناءً على ذاكرة ثقافية، أو أساطير متوارثة. ووجود الكتابة بجانب الرسم، يثبت أنها من نفس الفترة، لكنه لا يثبت قطعا أنها تعود إلى عصر السافانا ما قبل الجفاف.

٤- الاعتماد على «بيانات قيد النشر» أو اتصال شخصي:

الاستشهاد بمعلومات دون أن تكون منشورة في مجلات محكمة، يضعف من قوة الحجة العلمية؛ حيث لا يمكن للقارئ أو الباحث الآخر التحقق من هذه البيانات، بشكل مستقل.

ملاحظات ختامية

يمثل هذا الكتاب إضافة للمكتبة الأثرية السعودية، ويشكل نقطة انطلاق لمشاريع بحثية مستقبلية في مجال دراسة النقوش، والرسوم الصخرية في المملكة. ويعد جهدا طموحا، وإعادة نظر جذرية في تاريخ الكتابة واللغة في الجزيرة العربية. ويعتمد على مقارنة متعددة التخصصات (آثار، أنثروبولوجيا، جيومورفولوجيا، علوم بيئية، تفسير قرآني) ليدعم نظريته. وتكمن قيمته الحقيقية في كونه إطارا نظريا مثيرا ومحفزا للغاية، ويفتح آفاقا جديدة للبحث، وي طرح أسئلة جوهرية. وهو بمثابة خارطة طريق لبرنامج بحثي طموح. وتظهر قوته في الربط الميداني بين الأدلة الأثرية (الرسوم)، والأدلة الكتابية (النقوش الثمودية)، مع أحدث المعطيات العلمية عن المناخ القديم.

هجرة العلماء من المغرب إلى المشرق

د. أحمد عزاوي، علماء من المغرب الأقصى في المشرق خلال القرنين (٨ - ٩) هـ،
(فاس: دار بصمة للنشر والتوزيع، ٢٠٢٥م)، ٢٨٢ ص.

د. فيصل علي صالح سعيد، باحث يمني متخصص في التاريخ الوسيط، مقيم في المغرب.

شكّلت حركة العلماء بين المغرب والمشرق إحدى الظواهر الحضارية البارزة في تاريخ الإسلام الوسيط، وذلك لما انطوت عليه من تفاعل علمي وثقافي مكثّف، أسهم في توحيد المجال المعرفي داخل العالم الإسلامي الواسع. ولم تكن الرحلة العلمية مجرد انتقال جغرافي، بل كانت مساراً يتضمن طلب العلم، والحج، ومجالسة الشيوخ، وتولي الوظائف الدينية والقضائية، والانخراط في الحياة العلمية والفقهية والأدبية بالمشرق. وفي هذا السياق، يأتي كتاب الدكتور أحمد عزاوي، علماء من المغرب الأقصى في المشرق خلال القرنين (٨ - ٩) هـ، الصادر عن دار بصمة للنشر والتوزيع بمدينة فاس عام ١٤٤٦هـ/٢٠٢٥م. الطبعة الأولى، الذي حاول من خلاله سدّ فراغ واضح في التأريخ لأعلام المغرب الأقصى، الذين قصدوا المشرق ونشطوا فيه، خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وهي فترة تميزت بثراء علمي، وبروز إمارات ومراكز حضارية. تهدف هذه المساهمة إلى عرض أكاديمي لكتاب الدكتور أحمد عزاوي، وهو إضافة نوعية في مجال تراجم العلماء، ودراسة حركة التواصل العلمي بين جناحي العالم الإسلامي. وترصد منهج المؤلف، وبنية عمله، ومصادره، وقيمة إضافاته، مقارنة بما سبق من مؤلفات في هذا المجال. وسنعمل في هذا العرض على الكشف عن إسهامات العلماء المغاربة، الذين شدوا الرحال إلى المشرق، ورصد مساراتهم العلمية، ودورهم في إثراء الحياة الفكرية في بيئاتهم الجديدة، التي تعددت فيها الرحلات بين ضفتي العالم الإسلامي. وترصد هذه المساهمة منهج المؤلف، وبنية عمله، ومصادره، وقيمة إضافاته، مقارنة بما سبق من مؤلفات في هذا المجال.

واستناداً إلى ما سبق يهدف هذا العرض إلى تقديم الكتاب تقديماً علمياً، يتناول بالأساس مناهج التأليف في تراجم العلماء، كما تجلّت في كتاب عزاوي، والتصنيف الجغرافي والأُسري للعلماء الذين تناولهم هذا العمل، ويعرض للمشهد العلمي في المشرق من خلال سير هؤلاء العلماء، مع إبراز طبيعة التواصل الثقافي بين المغرب والمشرق، ويجعل في الأخير من تقويم عمل المؤلف خاتمة له.

وعملا بمنهجية تقديم الأعمال الأكاديمية، اخترنا في هذا العرض إبراز الإشكالية التي اعتمدها المؤلف، منطلقا من التساؤلات الآتية:

ما موقع كتاب (علماء من المغرب الأقصى في المشرق) داخل حقل الدراسات التاريخية والتراجمية، في الغرب الإسلامي؟

إلى أي حد نجح المؤلف في توثيق ظاهرة الهجرة العلمية للمغاربة، خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين؟ ما الصور التي رسمتها مصادر التراث لمسارات هؤلاء العلماء في المشرق؟ وما دلالاتها؟

ما الذي تضيفه هذه التراجم إلى فهمنا للتواصل الحضاري بين جناحي العالم الإسلامي؟ وللوصول إلى هذا المبتغى جعلنا نصب أعيننا الأهداف الآتية: ١- تقديم قراءة تركيبية لبنية الكتاب ومنهجه

٢- تحليل المقاربة التاريخية والتراجمية التي اعتمدها المؤلف ٣- إبراز إسهامات العلماء المغاربة في الحياة العلمية بالمشرق ٤- الكشف عن مظاهر التأثير المتبادل بين المغرب والشرق ٥- تقييم

القيمة العلمية والإضافية للكتاب، مقارنة بسابقه. كل ذلك ضمن منهجية تستند على إبراز محتوى الكتاب، وتفكيك بنيته، وتصنيف العلماء، واستقراء مساراتهم العلمية، والوقوف على

مدى انسجام مقاربة المؤلف، مع تقاليد التأليف في كتب التراجم والطبقات.

أولا - بنية الكتاب ومنهج المؤلف في التصنيف

أ- قسّم المؤلف كتابه إلى قسمين رئيسين:

١- القسم الأول: العلماء الوافدون من المغرب الأقصى إلى المشرق

وتناول فيه من قصد المشرق من العلماء المغاربة، وصنّفهم بحسب الجهات المغربية التي غادروها، معتمدا الترتيب الزمني. وابتدأ بعلماء فاس لما لهم من شهرة علمية، وبقى عليهم بعلماء باقي

الحواضر الأخرى، فجاء الترتيب على النحو الآتي:

• **علماء فاس:** بلغ عددهم ستة عشر عالما،^(١) وقد تتبّع في ترجمته لهم منها يوافق التطور

العمرى لكل منهم، مبتدئا بالمولد، والنشأة، والتربية، فالصفات، ثم المصادر. وعرج على أماكن استقرارهم في مصر، والشام، والحجاز، واليمن. وأبرز جوانب حياتهم العلمية، والفقهية،

والوعظية، في مناطق إقامتهم الجديدة، وركز على مساراتهم في طلب العلم، وتولي المناصب، معتمدا في ذلك على المصادر الكلاسيكية من مثل: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، وابن حجر

في الدرر الكامنة، وابن القاضي في درة الحجال، وابن فرحون في الديباج، والمقرئزي في السلوك، (٢) وغيرها من الكتب المعاصرة لهم.

- **علماء مراكشي:** (٣) نهج المؤلف المنهج نفسه مع علماء فاس، مبتدئاً بمحمد بن علي بن قطرال المراكشي (ت ٧١٠هـ)، (٤) مع ترتيب دقيق للمصادر حسب وفيات أصحابها، وأهم مصادره: الذهبي في المعجم، وابن الخطيب في الإحاطة، ومحمد بن سليمان بن أحمد المراكشي، وأحمد بن عبد الله بن محمد الأزدي المراكشي، متتبعا التسلسل الزمني لتاريخ وفاتهم.
 - **علماء سبته:** (٥) وعددهم تسعة علماء، ومن أبرزهم ابن رشيد السبتي، الذي حظي بتقدير كبير في المشرق، وكان قد نزل في بداية أمره مصر، وانتقل بعد مدة ليجاور مكة، ثم المدينة، وأثنى عليه ابن الخطيب، وابن فرحون، وابن حجر، والسيوطي، كما أثنوا على الثمانية الباقين.
 - **د - علماء من أصول مغربية مختلفة حسب التسلسل الزمني:** (٦) وعددهم ٢٨ عالماً، وتميزت تراجمهم بثرائها، وبين فيها المؤلف مولدهم، ونشأتهم، وشيوخهم، وأماكن ترحالهم واستقرارهم، وأورد ما قيل في خصالهم، وبعض مثالبهم، وعرج على ما ذكر في كرامات البعض منهم، وما ورد منها في المصادر وبعض المصنفات، وأتى على ذكر أماكن الأعمال التي اشتغلوا بها، وطلبهم للعلم، وشيوخهم، ومصنفاتهم، وما أنيط بالبعض منهم من مهام، وخصوصية كل واحد منهم، وضرب مثلاً بابن بطوطه في أسفاره إلى مصر، والشام، والهند، والصين، وتقربه من صاحب الهند، وحظي بعض هؤلاء العلماء بصلات حسنة. وأغنى المؤلف حواشي الكتاب بالمزيد من الشرح، وصحح ما استشكل من الأمور، عندما رأى أن بعض الكتاب وقعوا فيها، وحدد معنى لقب «حاج»، (٧) ومن يستحقه. وناقش الكتاب ما حدث بين بعض العلماء من جفوة، وتتبعها في مصادرها المكتوبة، وأحال عليها، سواء في أعمالهم، أو في إجازاتهم العلمية. ومن بين ما ذكر من طرائف: أن الحسن بن عثمان بن عطية المكناسي، لما أراد اعتزال القضاء، والتفرغ للعبادة، قالت له امرأته: «إما أن ترجع للقضاء وإما أن تطلقني، فأنا استأنست أن تخدمني النساء، فرجع إلى القضاء، فبقي خمسة عشر يوماً، ثم مات». (٨) وأورد من الخلاف بين العلماء على المناصب، أو التدريس، ما أوجب إراقة دم بعضهم، ومنهم محمد بن يوسف الريراكي، (٩) الذي رمي بالرغبة عن دينه.
- ومن الملاحظ أن هذا الكتاب، ناقش العلماء في مذاهبهم، ومدارسهم الفقهية، وأماكن سكنهم، وأبرز مواهبهم في نظم الشعر، وأبان عن قوة أساليبهم في النثر، وكفاءتهم في الفتوى والتدريس، وميولهم الشعرية، وكانت غالبيتهم، إن لم يكونوا جميعهم، مالكية. وحمل إلينا هذا الكتاب بعضاً من فحش العلماء وزيجاتهم، في مكة وغيرها، وبسط القول أيضاً في بعض الكرامات التي رويت، أو نقلها من مصادر أخرى؛ وتتبع الكاتب كل من عاد منهم إلى المغرب، ومن سلك منهم سبل الصوفية، وما أنتجوه في كثير من العلوم كالتاريخ، والطب، وغيرهما.

٢- القسم الثاني - العلماء المغاربة الذين وُلدوا في المشرق^(١٠)

يُعد هذا القسم من أثنى أجزاء الكتاب، بالنظر إلى ندرة الدراسات حول الأسر المغربية المستقرة في المشرق؛ ولذلك اتخذ الكاتب طريقة خاصة في الكتابة عنها، وصنفها على أساس الشرف، فبدأ بالأسرة الحسنية الفاسية، وهي أسرة شريفة، ولما كانت أصول الكاتب من أحد فروعها، فقد بسط القول فيها، وتناول علماءها ذكورا وإناثا.

- **الأسرة الحسنية الفاسية:** بلغ عدد من أحصاهم من علمائها ٢٨ عالما، و٧ عالقات، مع تتبع دقيق لميلادهم، ووفاتهم، ومشيختهم، ومواهبهم العلمية والأدبية. ومن أبرز شخصياتها: تقي الدين عبد الرحمن الفاسي،^(١١) مفتي الحرمين. وكعاداته، تعقب المؤلف عدة جوانب من حياتهم الاجتماعية من خلال المصادر، واطلع على ما حُط عنهم من كتب ومصنفات، تناولت سيرهم الذاتية، وما كانوا يعتقدونه من مذاهب، ودرسوه منها في المساجد والمدارس العلمية. وتعددت أماكن وفاتهم شرقا وغربا، وخاصة في اليمن، ومكة، والمدينة. وأورد المؤلف بعض أسبابها، وقال: إن منهم من مات مطعونا، وتكررت عملية الطعن في هذه الأسرة. أما نساء هذه الأسرة، فكان بعضهم عالقات، وعددهن سبع، أجازهن شيوخ معاصرون لهن كالنويري وغيره، ولم يفت المؤلف الإشارة إلى مناقبهن وبيوتاتهن، والحديث عن البعض من حياتهن الشخصية، وكيف قضى بعضهم نحبهن وهن حوامل.
- **علماء من أصل مراكشي:**^(١٢) وعددهم خمسة، وقد أورد المؤلف قبسات من حياتهم، وكعاداته فقد أورد أسباب موت بعضهم، والعاهات التي كانوا يعانون منها، وكتب عن المدارس التي ارتادوها، وما نظموا من أشعار في مدح الملوك تزلفا إليهم، وطمعا في هداياهم.
- **علماء من أصل دكالي:**^(١٣) وعددهم ثمانية، وتناول أخبارهم من كتب التراجم العامة والخاصة، وخاصة من أعيان العصر للصفدي، وابن رافع في الوفيات، والمقرئزي في السلوك، وابن حجر في الدرر، والسخاوي في الوجيز، وغيرها من أمهات مصنفات المشاركة، وتناولت هذه المصادر، وهي قاعدة المؤلف، إسرار بعض أهل دكالة من العلماء في النفقات، وموت بعضهم غيلة دون ذكر أسباب ذلك.
- **علماء من أصول مغربية متنوعة:**^(١٤) وعددهم سبعة عشر، وكلهم حفظوا القرآن في صباهم، وضرَبوا بسهم وافر في الفقه المالكي والعربية، وغالبا ما تصيد بعض الكتاب غريب أفعال بعضهم، كما كان الحال مع محمد بن علي الرهوني، الذي كان «زائد التهور في أحكامه، شديد الإقدام على ما يجِبُّ غيره عنه، خصوصا في المعاذير»،^(١٥) حتى كاد يلقي بنفسه إلى التهلكة، مع «خفة روح ومزاج وهيئة مزرية». ^(١٦) وحكم عليه بكونه «لم يشتهر بدين ولا تقوى».

وتذكر نفس المصادر غيره بكل خير، ممن اشتهروا بعلم الحروف، ومن انتحل تصوف ابن عربي، ومن تحول شافعيًا وتولى قضاء دمشق، وذكر من علماء صنهاجة وإفريقية الذين نزلوا الإسكندرية، يحيى بن محمد الصنهاجي،^(١٧) (ت ٧٣٧ هـ) وإبراهيم بن عبد الله الصنهاجي^(١٨) الدمشقي المولد، وغيرهما، ويبدو أن البسط في الحديث عن بعضهم حالت دونه قلة المادة المصدرية.

ثالثا - دلالات حضور العلماء المغاربة في المشرق ونتائج التقديم

يتكشف هذا العرض عن مجموعة من الدلالات العلمية والحضارية، متمثلة في وحدة الفضاء العلمي الإسلامي:

١- تبين التراجم تداخلا كبيرا بين مراكز العلم في المغرب والمشرق: مما يدل على أن حركة العلماء تجاوزت الحدود السياسية والجغرافية.

٢- تميز العلماء المغاربة في العلوم الشرعية: أغلب العلماء كانوا على المذهب المالكي، لكنهم انفتحوا في المشرق على مذاهب أخرى، وأسهموا في التدريس، والفتوى، والقضاء، والوعظ.

٣- انتقال الأساليب التعليمية: عاد عدد من العلماء إلى المغرب بأساليب جديدة في التعليم، والجدل الفقهي، والتأليف، مما أثرى المدارس المغربية.

٤- شبكة التفاعل الثقافي: تكشف الروايات المشرقية عن علاقات واسعة مع العلماء المغاربة، أثرت في الحياة العلمية في كلا الجانبين.

٥- البعد الاجتماعي للرحلة: تشير التراجم إلى: الزواج في المشرق؛ والصراعات المهنية بين العلماء، والكرامات، والرؤى، وتفاصيل الحياة اليومية، والأطعمة، والعادات في المدن المشرقية، وهي جوانب قلما تتناولها كتب التاريخ والتراجم بدقة مماثلة.

خلص هذا التقديم للكتاب، إلى أن هذا الكتاب، سد فراغا واضحا في دراسة العلماء المغاربة الوافدين على المشرق، واعتمد فيه المؤلف منهجا دقيقا، جمع بين الرواية المصدرية، والربط التاريخي. وأبرز الكتاب أن الهجرة العلمية، كانت ظاهرة حضارية راسخة، لا مجرد رحلات فردية، وأعاد الاعتبار لدور المغرب الأقصى في بناء المشهد العلمي في المشرق، خاصة في القرنين ٨-٩ هـ، وأضاف المؤلف قيمة جديدة، عبر دمج التراجم النسائية ضمن السياق العلمي العام. ويشكل هذا العمل قاعدة بيانات مهمة للباحثين، ويمكن البناء عليها في دراسات لاحقة، حول العلاقات العلمية بين المغرب والمشرق.

خاتمة

يمثل كتاب الدكتور أحمد عزاوي إضافة علمية متميزة، في حقل دراسات التراجم والتاريخ الثقافي، إذ نجح في تقديم صورة شاملة لحركة العلماء بين المغرب والمشرق، في فترة ازدهار علمي بارز. ويجمع الكتاب بين الدقة التاريخية، وجمال العرض، وإحكام الإحالة إلى المصادر، مما يجعله مرجعا مهما لكل الباحثين في تاريخ الغرب الإسلامي، والتواصل الحضاري داخل العالم الإسلامي. وإن تقديم هذا العمل، وتحويله إلى دراسة أكاديمية - في هذه الورقة - يبرز قيمة الجهد المبذول فيه، ويفتح آفاقا جديدة للبحث في موضوع الهجرة العلمية، وشبكات المعرفة العابرة للحدود، ودور العلماء المغاربة في صياغة الحياة الفكرية للمشرق الإسلامي.

- (١) أحمد عزاوي، علماء من المغرب الأقصى في المشرق خلال القرنين (٨ - ٩) هـ، (فاس: دار بصمة للنشر والتوزيع، ٢٠٢٥م)، ٤٠-٧.
- (٢) تقي الدين محمد بن أحمد الحسن الفاسي المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)، ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب المالكي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م)، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٣م)، تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م).
- (٣) أحمد عزاوي، علماء من المغرب الأقصى في المشرق خلال القرنين (٨ - ٩) هـ، ٤٠-٤٦.
- (٤) أحمد عزاوي، ٤٠-٤٤.
- (٥) أحمد عزاوي، ٤٧-٦٥.
- (٦) أحمد عزاوي، ٦٥-١١٨.
- (٧) تفرد بهذا اللقب محمد بن محمد بن أجروم الفاسي ودونها التنبكتي في نيل الابتهاج، انظر: أحمد عزاوي، علماء من المغرب الأقصى في المشرق خلال القرنين (٨ - ٩) هـ، ٧٠.
- (٨) أحمد عزاوي، علماء من المغرب الأقصى في المشرق خلال القرنين (٨ - ٩) هـ، ٧٨.
- (٩) أحمد عزاوي، ٧٩-٨٠.
- (١٠) انظر الذكور: أحمد عزاوي، علماء من المغرب الأقصى في المشرق خلال القرنين (٨ - ٩) هـ، ١١٩-١٨٤، بينما العالمات: ١٨٤-١٩٢.
- (١١) أحمد عزاوي، علماء من المغرب الأقصى في المشرق خلال القرنين (٨ - ٩) هـ، ١٢٣.
- (١٢) أحمد عزاوي، ١٩٢-٢٠٩.
- (١٣) أحمد عزاوي، ٢٠٩-٢٢٨.
- (١٤) أحمد عزاوي، ٢٤٨-٢٥٧.
- (١٥) أحمد عزاوي، ٢٣٧.
- (١٦) أحمد عزاوي، ٢٣٦-٢٣٨.
- (١٧) أحمد عزاوي، ٢٤٨.
- (١٨) أحمد عزاوي، ٢٥٠.

أعلام التأثير الروحي والفكري للتصوف المغربي في إفريقيا

د. بومدين بوزيد، أقطاب في محراب الإنسانية: قراءة في روحنة العمل الاجتماعي،
(وهران: دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ٢٠٢٥م)، ص١٥٠.

د. لخضر سباعي، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.

- **عن مؤلف الكتاب:** بومدين بوزيد (١٩٦٢م)، مفكر وأكاديمي جزائري، يجمع بين الاطلاع الواسع على التراث العربي الإسلامي، والتمكّن من الأدوات المنهجية، التي تتيحها العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية الحديثة، والمعاصرة، أثرى المكتبة العربية بمجموعة من التحقيقات والأبحاث والدراسات، في مجال التراث الإسلامي، والفكر العربي والغربي المعاصرين، يتميز أسلوبه في الكتابة بعمق التحليل، وكثافة العبارة، وغازة الإحالة، والقدرة الفائقة على محاورة النصوص ومقابلتها، واستثمارها واستنطاقها سياقيا، ضمن هموم الزمان والمكان ماضيا، ثم وضعها على عتبات الراهن، مفترضا لها صلاحية ما.
- **مضمون الكتاب:** هذا السفر، هو سَفَرٌ داخل العوالم الروحية والاجتماعية والسياسية، لخمسة من أعلام التصوف في الجزائر، والذين كان لهم أثر روحي وفكري في بعض الأقاليم الإفريقية، وهم: محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت ٩٠٩هـ)، أبو راس الناصر (ت ١٢٣٨هـ)، الأمير عبد القادر (ت ١٣٠٠هـ)، ابن عطية الدرقاوي (ت ١٢٧٢هـ)، أحمد بن مصطفى العلوي (ت ١٣٥٣هـ). وغرض استدعاء هذه النصوص، هو الإبانة عما تكتنزه من راهنيات على مستوى أسئلة عصرنا الإفريقي، المتخّم بالحروب والنعرات القبلية والدينية، وإعادة بعث ما يكمن فيها من قدرة روحية ومعرفية على محاورتنا، والاصغاء لهمومنا الراهنة. تتواشج داخل هذا الكتاب ألياف فلسفة في القراءة، تبتغي زحزحة النصوص التراثية من محبس البيداغوجيا التعليمية الاجترارية، المثقلة بالتبجيل، إلى أفق القراءة التوليدية الإحيائية، التي تضعها على التماس مع هموم العصر.
- **في الفصل الأول:** يستضيف سيرة المغيلي ورحلته في الأصقاع الإفريقية، السيرة التي تجسّد صورة ناصعة عن إسلام صوفيٍّ مالكيٍّ، كان له الحضور الوزان في الغرب الإفريقي، من خلال الإشعاع العلمي، والدور الحاسم في فض النزاعات، وترسيخ ثقافة السلم والمصالحة بين المكونات الإثنية الإفريقية، والتأليف بينها تحت رابطة الإسلام. يلمعُ هذا الفصل إلى الدور الكبير الذي لعبته شخصية المغيلي، في

جعل حكّام وأمراء أفارقة، يتبنون الإسلام في صيغته المالكية الأشعرية الصوفية، ويضعنا أمام «الإمام المغيلي»، بوصفه مفكرا جزائريا إفريقيا، له صلوحيته المعرفية والإنسانية على مستوى التفكير، في حل الكثير من الإشكاليات التي تواجه إفريقيا اليوم، إن على صعيد النزاعات السياسية والعرقية الدينية الإفريقية، وما يتصل بانتشار التطرف الديني المؤذن بانمحاء المصاهرة العائلية والثقافية، التي أسس لها «الفتح المغيلي»، أو على صعيد التغلغل المتزايد للكلونيالية الغربية في العمق الإفريقي.

وفي هذا الفصل حث صريح على إعادة تمثّل الدور الإستراتيجي، الذي أدّاه المغيلي وتلامذته في أزمانهم المتوالية، وترحالاتهم المتعددة، إعادة التمثّل التي تضعهم في صلب مهام استئناف الدور التاريخي، الذي لعبته الطرق الصوفية في نشر الإسلام المالكي الأشعري الصوفي بالربوع الإفريقية، انطلاقا من حواضر الجزائر وغيرها من الحواضر العربية. هي أيضا دعوة لاستئناف رحلة الاطلاع على الميراث الإفريقي للفتح المغيلي، كما تشرّبه الكنتيين القادريين، «سيدي عمر» (ت ١٥٥٢م)، و «سيدي المختار» (ت ١٨١١م)، الذي أسهم في مأسسة التصوف الطريقي، وتعزيز دوره في مواجهة التحديات، التي واجهت المنطقة في ذلك العصر.

• **الفصل الثاني:** جاء تحت عنوان «التحدث بالنعمة في كشف الغمة وانتصار الأمة»، يستضيف سيرة أبي راس الناصر، كما كتبها هو بنفسه تحت عنوان: «فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته»، يستفتحه بتعريج مكثف على أشكال ومسار الكتابة السيرية المناقبية، وتطورها في التراث العربي الإسلامي، مع إحالات مقارنة إلى نظائرها في الفكر الغربي، يسترجع داخله السياقات التي صار معها هذا الفن «سلوكا منسكيا»، يتخذ عنوان: «التحدث بالنعمة»، كما هو الحال مع السيوطي في «نزول الرحمة في التحدث بالنعمة»، ولقد كان هذا الأخير أحد أبرز المهتمين لأبي راس، فقد تأسّى به، وأعلن بأنه مجتهد القرن. وقال: إنه « يغترف مثله من سبعة أبحر».

وبأدوات التحليل النفسي والاجتماعي السياقي، يرصد الدكتور بومدين بوزيد دافعين أساسيين، قادا أبو راس إلى كتابة «فتح الإله»، الدافع المعلن: وهو البحث عن الاعتراف، وإثبات الجدارة الفقهية لذاته، وهو الذي تقلد كرسي الإفتاء على المذاهب الأربعة، ولقد كان ممتعضا من عدم تقدير أهله لعلمه، وفي المقابل كان ذات العلم محل ثناء الغريب. أما الدافع المضمّر، فيتمثّل في نقد التراتبية الاجتماعية، التي سادت حاضرة بني راشد بـ (معسكر)، غربي الجزائر. لقد سعى نص «فتح الإله» إلى بيان تهافت تراتبية سائدة، مبنية على شرف النسب البيولوجي، وبالمقابل لها، يدعو إلى تراتبية بديلة، تتسيدها نخب ذات جدارة علمية فعلية، لا نخب غير مقنطرة، سطت على الولاية الصوفية، واستغللتها كأداة للاستئثار بالمال والجاه، والتقرب من السلطة. لقد انشغل أبو راس بإبطال شرف بعض العائلات في زمنه، الأمر الذي جلب له الكثير من المتاعب، وأوشك أن يلقي حتفه بسببها.

ومغزى استدعاء نص «فتح الإله»، هو الإبانة عن مشروع أمة، ينظمه حلمٌ يتقاطع في جغرافيته عصرنا، مع عصر أبي راس الناصري، إنه الحلم بواقع ينتصر لمنطق الكفاءة والأهلية الأخلاقية والمعرفية، ضد منطق القبيلة والعشيرة، والشرف البيولوجي الموهوم.

• **الفصل الثالث:** يستضيف سيرة الأمير عبد القادر الجزائري، تحت عنوان «المعرفة والتحرير في السياق الديني والتاريخي»، وفيه يتعرّض المؤلف لمجموعة من الإشكاليات، التي يطرحها التعاطي مع الميراث الأميري، يستفتحه بالسياقات التي تشكلت داخلها مسيرة الرجل من الميلاد إلى المعاد، متوقّفا عند السياق التاريخي والمعرفي، الذي يتداخل فيه الانتماء للبيت الشريف الحسني، والانتماء لثقافة الرباطات الصوفية والزوايا. ويحفل هذا الفصل بإحالات مكثفة إلى المرجعيات الفقهية، والصوفية، والكلامية، التي اغنتت منها وبها سيرة الأمير، والتي يتجاوز داخلها أبو حامد الغزالي، والجويني، وابن خلدون، وابن عربي، والقشيري، وعبد القادر الجيلاني، ومشايخ الطرق الصوفية القادرية. ويفصّل المؤلف في التجربة الصوفية الأميرية عبر مراحل ثلاث، وهي: مطالعة كتب المتصوفة في النشأ والتكوين، ثم التأمل الفلسفي والصوفي، ومعاناة تجربة الأسر في سجن لامبواز بفرنسا، ثم التماهي بدمشق مع النصوص الأكبرية، والحياة الذوقية الصوفية، وتجاوز الالتزام بطريقة صوفية واحدة.

ويستوقفنا عند مختلف الدلالات، التي تكتنزها سيرة الأمير في مفاصلها المتعددة؛ فيقف عند عاصمته المتنقلة، وأين تتمظهر عبقريته السياسية والتطيمية، وعند بيعته بوصفها عقدا روحيا واجتماعيا وسياسيا، وإزاء خطاب التعايش والاخلاق الديبلوماسية، ليستحث على ضرورة تمثّل هذه القيم في الراهن الإفريقي، على صعيد تدبير أسئلة الذاكرة والهوية، وتجاوز منطق القبيلة والعشيرة. ويتوقف أيضا عند العمق الفلسفي، والبعد التجديدي في فكر الأمير، ويعرّج على منهجه التأويلي الإشاري للقرآن الكريم، وموقفه من الحداثة الغربية. ونستشعر في هذا الموضوع أسئلة حارقة، تلح على معاودة قراءة السيرة الأميرية، قراءة نتجاوز بها التعسف والانحراف التأويلي، الذي تتعرض له هذه السيرة. وهي دعوة إلى قراءة إقامية (الإقامة داخل النص) للسيرة الأميرية، واستجلاء مختلف سياقاتها، ويرتسم أفق هذه القراءة في خطاب المناجاة الذي دبجه المؤلف في «حضرة» الأمير الواحد المتعدّد: الأمير(السلطان)، الحاج (زائر الكعبة)، المجاهد الفارس، المبايع المغدور، العارف الفيلسوف.

• **الفصل الرابع:** يستضيف صاحب «الاستمدادات الربانية في ما من الله علي من بحر الوجدانية»، الشيخ العربي بن عطية البوعبدلي العماري الدرقاوي، «المكّنّى بالطويل»، وعبر هذه الاستضافة، يضعنا في صلب إشكالية العلاقة بين المشيخة والسلطة في القرن التاسع عشر، زمن ظهور بعض المقاومات ضد الأتراك أولا، ثم ضد الفرنسيين لاحقا. وجاءت «الاستمدادات» تعبيرا عن مأزق معرفي، ونفسي،

وسياسي، واجهته الطريقة الدرقاوية أمام سؤال: هل نقاوم المحتل أو نرضى بسلطته؟ ولقد اختار الدرقاوي «المسألة واتقاء الفتنة»، بعد أن مثلت أمام ناظره إخفاقات متتالية، لمشايخ الطريقة الذين انتفضوا ضد الأتراك أو الفرنسيين. و«الاستمدادات»، هي محاولة لتصحيح مسار المشيخة الدرقاوية، بعد الإخفاقات المبررة للتجربة السياسية والجهادية، التي انخرط فيها بعض المشايخ، أمثال: أبي الحسن الشاذلي، والشيخ أحمد بن يوسف الملياني، وغيرهما من مشايخ الطوائف الصوفية الشاذلية والقادرية، الذين أطروا وترعموا الرباطات الجهادية في عديد الثغور. وفي هذا الموضع، نستشعر الحاجة إلى ضرورة التحرر من سطوة الموروث المدرسي الكولونيالي؛ فقد تم اختزاله في «حزب مسالم موال»؛ فالمنهجية العلمية المتاحة اليوم، تتطلب مراجعة هذا الصورة النمطية، والخروج من الأحكام التعميمية، التي تعدم القيم الطافحة بها، مسيرة العديد من التجارب الروحية ومشايخها في مواجهة الاستعمار. وضمن هذه المنهجية، تشكل القراءة السياقية، الملتفة إلى حيثيات المواقف ومسوغاتها، داخل الزمان والمكان، أحد الأدوات المنهجية الفعالة، في إنجاز فهم موضوعي للعلاقة بين «التصوف كسلطة روحية»، والدولة كسلطة زمنية، بعيدا عن الأحكام الموروثة في مختلف المرجعيات.

• **الفصل الخامس:** يضعنا في ضيافة الشيخ أحمد بن مصطفى العلوي، قبالة مآدبة «الأنموذج الفريد المشير لخالص التوحيد»، ويستفتح الفصل بالتعريغ على نسبه وتكوينه الروحي، ونشاطه التجاري، ومساره داخل حقل التصوف، وأين تلقى علمه عن شيخه محمد بن الحبيب البوزيدي، المعروف بالشيخ حمو، ولازمه لمدة خمسة عشر سنة، ثم تولى خلافة الطريقة البوزيدية بعده. ويتطرق الفصل أيضا إلى قرار استقلال العلوي عن الزاوية الأم ببني زروال بالمغرب سنة ١٩١٤م، مسميًا طريقته: «الطريقة العلوية - الدرقاوية - الشاذلية».

لقد كان للعلوي في زمنه دورا إعلاميا دينيا بارزا، بعد امتلاكه مطبعة خاصة به، إثر منعه من نشر كتابه «المرشد»، وأصدر منها جريدتا «البلاغ الجزائري»، و«لسان الدين»، وتميزتا بخط افتتاحي مختلف عن خط جمعية العلماء المسلمين، التي كتب في الرد عليها كتبا عديدة. ويذكر أيضا دوره في الدفاع عن حقوق المسلمين في فرنسا، ودفاعه عن الهوية الوطنية، وتحذيره من مخاطر التبشير، والانحرافات الاجتماعية. والحيز الأكبر في هذا الفصل، شغله منهج «تأويل الحروف» عند العلوي، وذلك بتتبع مسار هذا المنهج، غير مغفل الإحالة إلى ما يماثلها في الثقافة الهرمسية الاغريقية وغيرها. وقد أفرد عدة صفحات لإبراز نماذج من التقاطعات والاتفاقات التأويلية للحروف، بين الجيلي والعلوي.

هذه بعض شخصيات وملامح الأثر الفكري، والديني، والفلسفي، التي ظهرت عبر التاريخ بالمغرب العربي، وشمال إفريقيا، والتي حددت بصورة أو بأخرى نوعية التدين الإسلامي الإفريقي، لا سيما في أقاليم السودان الغربي.

